وزارة الثقافة والإعلام
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب المترجمة
٣

الحياة في العراق

منذ قرن

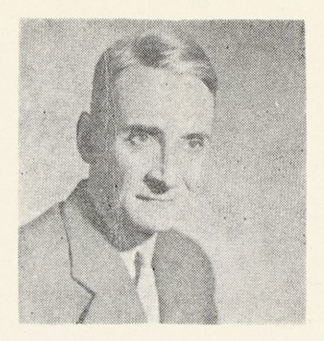
١٨١٤ ـ ١٩١٤

تأليف السفير الفرنسي

پيير دي ڤوصيل

ترجمة

الدكتور اكرم فاضل



بيير لوي جوزيف دى فوصيل

- المولد ١٣ شباط ١٩٠٧ .
- الحصول على الليسانس في الحقوق وعلى دبلوم العلوم السياسية ،
- التعبئة : ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ .
- إشغال منصب وزير مفوض من الدرجة الأولى .
- الاشتراك في مسابقة الانتساب الى السلك الدبلوماسي والقنصلي : ١٨ مايس ١٩٣٢ .
- ملحق في سفارة بخارست ، ١٩٣٢ ـــ ١٩٣٦ .
- الادارة المركزية الامريكية ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ ء
- سكرتير ثالث في برلين ، ١٩٣٧ ـــ ١٩٣٩ .
- نائب رئيس قسم الادارة المركزية (للأعمال) ، ١٩٤٠ .
- سكرتير ثان : في بودابست ، ١٩٤٠ ـــ ١٩٤٣ .
- اعتزال الخدمة موقتاً بدون راتب بناء على طلبه ، تموز ١٩٤٣ .
- سكرتير أول في بروكسل ١٩٤٤ ـــ ١٩٤٨ .
- الادارة المركزية (سكرتارية المؤتمرات) ، ١٩٤٨ ـــ ١٩٥٠ .
- فارس وسام الشرف ، ٢ تشرين الأول ١٩٤٨ .
- المستشار الأول في بروكسل ، ١٩٥٠ ـــ ١٩٥٤ .
- سفير فوق العادة ووزير مفوض في بغداد ، ١٩٥٤ ـــ ١٩٥٦ .
- ضابط وسام الشرف ، ٦ آذار ١٩٥٧ .
- ممثل مساعد دائم لفرنسا في مجلس الأمن ورئيس مساعد للبعثة الدائمة الفرنسية لدى هيئة الأمم المتحدة ، ١٩٥٧ ـــ ١٩٥٩ .
- رئيس القسم السياسي لمعهد الدراسات العليا للدفاع الوطني ، ١٩٦٠ ـــ ١٩٦٣ .
- سفير فوق العادة ووزير مفوض في كاراكاس من شباط ١٩٦٣ حتى ١٩٦٨ .

وزارة الثقافة والاعلام
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب المترجمة
٤

الحياة في العراق

منذ قرن

١٨١٤ ــ ١٩١٤

تأليف السفير الفرنسي

پيير دي ڤوصيل

ترجمة

الدكتور اكرم فاضل

المؤسسة العامة للصحافة والطباعة
دار الجمهورية - بغداد
١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م

توطئـــة

أيام اقامتي في بغداد ، منـذ بضع سنوات خلت ، لفت نظري بعض أعواني الى وجود خزانة خاصـــة بين خزانات السفارة تحتوي على محافظ لمجموعة من الوثائق يرجع تاريخها الى ما قبل عام ١٩١٤ .

ولكن هـــذه الوثائق والمستندات ، التي يرقى الزمان بتواريخهـا الى السنوات الأولى للقرن التاسع عشر ، والتي لم تأت عليها يد الدمار والبوار عبر سنوات انغماسنا في الحرب ضد الدولة العثمانية ، قد ظلت ناقصة يعتلج في صـدرها الشـوق الى الكمال ، وعلى الأخص كانت تعوزها مراسـلات قناصلنا . ولكن هذه الوثائق ، وهي على حالتهـا هذه ، قد أخذت بمجامع قلبي والهبت مشاعري : فهي ، على كونها مكتوبة باسلوب طنان وسـاذج في الوقت نفسه — من قبل وكلاء هم في اغلب الحالات على درجة كبيرة من البساطة وجلهم نابعون من الأوساط التي شملتها الحماية الفرنسية في المشرق ، ومن بين أولئك الذين تمرســوا وزاولوا أعمالهم بين حلب وجدة وديار بكر وبغداد ، وهم على علم تام باسرار الاوســاط التركية والعربية التي يتكلمون بلغتها — أقول رغم كل هذا فان هذه المراسلات تتضمن وصف عالم قد انطمس اليوم كل الانطماس ، لأن هـذه البلاد هي عبارة عن صحارى

بدون آبار نفط (١) تخترقهـا القوافل البـدوية فقط . ومدن ذات أزقة ومنعطفات ودروب متعرجة واسواق صاخبة تعج بالهرج والمرج والصخب والضجيج .

وهذه البلدان تجتاحها بين حين وآخر جحافل الأوبئة والطواعين وترجها الفتن العنصرية والمشاحنات الدينية رجاً عنيفاً ، وسكانهـا ما يبرحون يعانون ما يعانون من الويلات ، وهم يرزحون في طور البدائية تحت وطأة المصائب ، وتعصف بهؤلاء في بعض الاحايين نزوات الوحوش ، ولكنهم رغم ذلك قد ظلوا محتفظين ببعض فضائل الآباء والاجداد .

وهنـاك موظفون خونة الذمم أو كسالى خاملون متراخون متبلدون لا يخفف من طغيانهم وغطرستهم إلا الخوف الطارىء المفاجىء من غضب رؤسائهم عليهم وصب نقمتهم على رؤوسهم .

لقـد امضيت ، حين شرعت بتنقيباتي هـذه ، ساعات طويلة مضنية وأنا اجاهد في حل رموز هذه المراسلات القديمة التي علاها الغبار وكفنها ،

ولقد قدرت أن من المفيد والمبهج للمواطن الفرنسي في أيامنا هـذه ، الذي تجره شؤونه أو اوقات فراغه الى هذا الشرق الاوسط ، الذي يختلف كل الاختلاف عما كان عليه في السنين الغابرة ، أن يكون لنفسه فكرة أكثر دقة وتحديداً عن ظروف الحياة التي عرفها هناك منذ عشرات السنين

---

(١) ان الاشارة الوحيدة التي تخص وجـود البترول في العراق . التي عثرت عليها في مراسلات قناصلنا ــ وهذه المراسلات تتوقف ــ كما سأذكر ذلك فيما بعد في حدود عام ١٨٩٧ ــ ان هذه الاشارة وردت في احدى رسائل مسيو بلاس، قنصلنا في الموصل الذي باشر وظيفته في ٢٧ حزيران ١٨٥٤.

وهـذا القنصل يسرد علينا فيما يسرده قصة الرحلة التي قام بها الى ولاية كركوك . فيحدثنا ان البلدة المسماة طوزخورماتو (توجد فيها عين ماء ساخنة تقذف بالزفت المعدني ــ كذا ! ــ بصورة غزيرة بحيث ان الفلاحين يستعملونه لانارة منازلهم ، ذلك لأن الزيت نادر الوجود للغاية ، بل لعله لا وجود له في هذا الجزء من الولاية) . (المؤلف)

فقط اولئك الذين وقع على عاتقهم تمثيل فرنسا في تلك الربوع .

ويوم عدت الى باريس بعد بضع سنوات مضت على رحيلي من بغداد استطعت بفضل عناية ورعاية مسيو بايو ولطفه وكرمه ، وهو مدير حافظات وثائق وزارة الخارجية ومستنداتها ، أقول استطعت عن طريق هـذا الرجل ومعاونيه أن أراجع وأقابل مراسلات وكلائنا في بغداد والبصرة والموصل ، والمراسلات الواقعة بين الاعوام ١٨٣٠ و ١٩٠٠ وهي عبارة عن مقتبسات من هذه المكاتبات التي أخذت على نفسي أن أضعها تحت أنظار قرائنا . وقد عرضتها كما هي حرصاً مني على أن تظل محتفظة بطعمها ونكهتها .

وان مساهمتي الشخصية في هـذا العمل قد ظلت كذلك مقيدة بحدود الامكانات المتيسرة ، فلقد ضربت على نفسي نطاقاً في تلخيص بعض الرسائل أحياناً حين تكون مفرطة الطول بالغة الاسهاب على أن أربط بين ما في النصوص الأصلية من خطوط جوهرية .

ولأسباب تتعلق بوجوب التكتم فقد آثرت أحياناً الاضراب عن التصريح بأسماء محرري الرسائل أو أسماء الأشخاص الذين لعبوا بعض الادوار على مسرح تلك الأيام . وللعلة ذاتها قدرت أن من الأفضل — ولو كان ذلك على حساب اللون المحلي — أن أترجم الى اللغة الفرنسية التسميات التركية أو العربية أمثال كلمة (والي) وكلمة (قائممقام) أو التسميات التي لا نألفها كثيراً .

ان هذه المراسلات يزيدها لذة في مذاق من سيطلعون عليها كونها تستعير — كما كانت العادة الجارية آنذاك — شكل الرسائل الخاصة الموجهة الى الوزير ، تلك الرسائل التي تكون في أغلب الأحوال على جانب كبير من التطويل ترصعها عبارة (سيدي الوزير) وتنتهي بالصيغة المعهودة :

«.. وتفضلوا بقبول التطمينات بالاحترام الذي معه لي الشرف بأن أكون . لكم يا صاحب المعالي أوطأ خادم متواضع مطيع » . تلك الصيغة التي تتناقض بصورة مضحكة أحياناً مع محتوى الرسالة التي يضمنها الوكيل أو المعتمد وصف أمراضه واسقامه أو يقص ، بلهجة النديم الى النديم ، قصة معاكسات القدر ومشاكساته له أثناء سفرته .

ولكن قبل أن أترك حبل الكلام الى أسلافي الأبعدين ، أود أن أضيف ملاحظتين تتسمان بصفة العموم .

وأرى بادىء بدء أن انص على أنني — كما يشير إليه عنوان دراستي هذا — لم أهدف الى الوقوف موقف المؤرخ . ولذلك فانني لم اتخير من مراسلات معتمدينا إلا النصوص التي تعطي فكرة عن حياتهم وحياة سكان الوسط الذين كانوا يمارسون نشاطهم فيه . ولقد طرحت جانباً مع سبق التصميم عموم المراسلات ذات الطبيعة السياسية .

ولهذا فانني أود أن يعلم القراء أن ممثلينا لم يصرفوا كل اوقاتهم في إخبار وزارة الخارجية عن وقائع وتفاصيل خصوماتهم ومماحكاتهم التي هي في معظم الحالات مسلية جديرة بالتصور والتصوير وذلك فيما يقع لهم من مشاكسات السلطات المحلية لهم . وكذلك لم يقطعوا الزمان في وصف حفلات الاستقبال التي يقيمونها بمناسبة عيد فيليب أو عيد نابليون ، بل على النقيض من ذلك لقد فوجئت كل المفاجأة وأنا أتبين بنفسي درجة براعة قناصلنا في كيفية جمع الأخبار عما يجري في أماكن تكون في الأغلب الاعم نائية عنهم كل النائية .

بل لقد غمرني الاعجاب بدقة استعلاماتهم وصحتها بالرغم من المسافات الشاسعة وانعدام وسائل المواصلات السريعة في تلك الاصقاع .. وعلى سبيل

المثال أذكر تعقبهم وتتبعهم بأعلى درجة من الاهتمام والعناية خلال القرن الماضي بسنواته المئين المراحل المتتالية لتسرب الانكليز واقامتهم على شواطى الخليج العربي كما أعلنوا في عدة مناسبات منذ عام ۱۸۸۰ أن الجيوش البريطانية فى حالة نزاع عالمي ستبذل كل جهودها لضمان السيطرة على العراق . لقد تكهن قناصلنا بأهمية الدور الذي قدر على الوهابيين أن يلعبوه وقد استطعت والفضل يعود الى مراسلاتهم أن اتابع سنة فسنة وقبل أن أقرأ كتاب المؤلف الفرنسي « بنوا ميشان » ملحمة ابن سعود ومشاحناته مع الادارة العثمانية .

وعلى سبيل التذكير أقول بالاضافة الى ذلك تتألق بين القناصل وجوه بعض رواد التنقيب عن الآثار القديمة من ابناء الفرنسيس ، ومن بينهم أمثال بوتا وبلاس وسارزيك ☼ الذين عرفوا كيف يواجهون عملهم القنصلي بكفاية وامانة ، كما واجهوا في الوقت نفسه تنقيباتهم الأثرية بتصميم ودراية .. وإذا أخذنا بنظر الأعتبار الظروف المادية التي كانوا يعملون في معمعانها في اقليم بالغ القسوة والجفوة والغلظة وهم عرضة للامراض وهدف لبدوات وغيلات التعصب التي طالما عرضت حياة هؤلاء الأفراد الى الخطر ...

أقول إذا تذكرنا كل هذا وأطلنا التفكير فيه أحسسنا بالاعجاب بهؤلاء الموظفين الذين قد يبدو في تصرفاتهم أحياناً ما يدعو الى الابتسام والابتهاج لدى من يقرأون أخبارهم ، والذين هم مع ذلك شاعرون كل الشعور وواعون كل الوعي لمهمتهم التي قد أخذوا عنها فكرة رفيعة بما تتضمن من أداء مهمات وتحمل مسؤوليات في نطاق الوظيفة .

كما يطيب لي التذكير من جهة أخرى ، وذلك بغية تجنب المساس

☼ راجع الهامش ٤ ص ١٠ ــ ١١ « س . أ »

بالعواطف وبعض الاعتبارات المشروعة بان العالم الواردة صفاته وشياته في هذه المراسلات هو من نصيب ذمة الماضي . فأن أقطاراً قليلة من أقطار الكرة الأرضية قد عرفت تحولاً وتحوراً وتبدلاً أوسع وأعمق مما عرفته هذه البلاد من هذه الأشياء منذ خمسين عاماً .

فهي إذا كانت في الماضي ولاية محرومة مظلومة من ولايات الامبراطورية العثمانية تعيش في واقع كونها نهبة للفوضى القبلية وفريسة لمظالم وتعسفات الموظفين المبعوثين بصورة عامة من بين المغضوب عليهم الى هذه المناطق النائية ، فان هذه المنطقة هي العراق الذي عرفته أخيراً فاذا هو يختلف كل الاختلاف عن (ميزوبوتاميا) — بلاد ما بين النهرين — لعام ١٨٥٠ كما تختلف فرنسا الحالية عن فرنسا القرن السادس عشر .

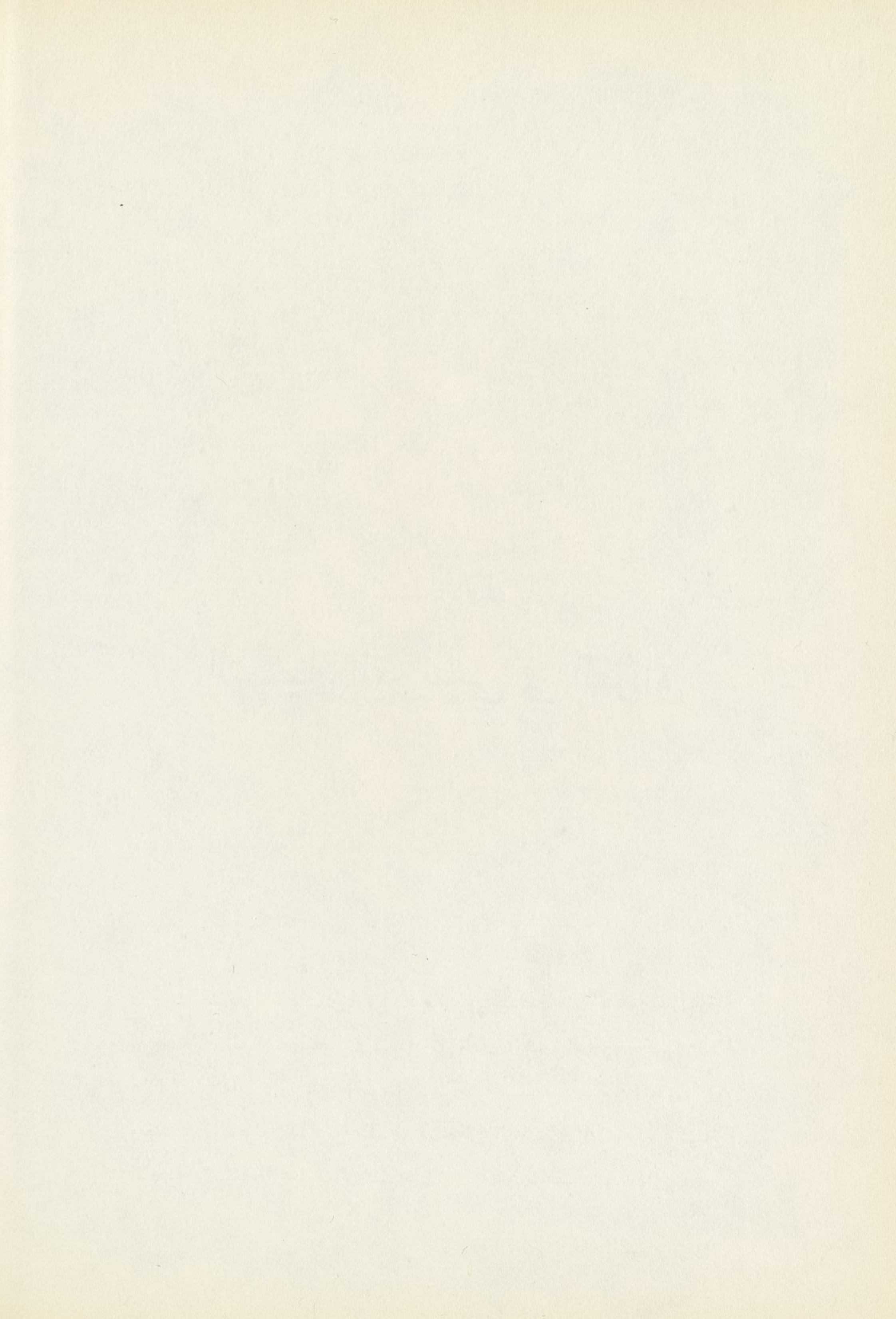
إن هواة المناظر الجميلة بوسعهم أن يأسفوا على عراق الماضي ، ولكن هذا هو الواقع .. وأياً كان الأمر فاني ان استطعت أن أمنح اسلافي براءة البطولة فان ذلك ليس بصورة مطلقة وإلا لكنت أهدف الى أن أحسب نفسي أنا بطلاً من الأبطال . كلا : وألف كلا . لست هناك . وإذا كان قد توجب علي اثناء اداء مهمتي التغلب على بعض الصعوبات فان هذه الصعوبات قد كانت من طراز آخر إذ لم تكن صحتي ولم تكن حياتي بمهددتين أبداً ، بل انني قد عشت في بغداد عيشة لم تختلف على وجه التقريب عن الحياة التي كنت قد عرفتها أثناء تأدية وظائفي السابقة .

إلا فليأسف من يأسف أو فليفرح من يفرح فان عهد الدبلوماسيين الرواد الذين خاضوا الغمرات الشداد قد مضى وانقضى وانطوت صفحاته .

القسم الأول *

التمثيل الفرنسي في العراق

* إن مجلدات أرشيفات وزارة الخارجية التي استنبطت منها الوثائق المذكورة هي: المراسلات السياسية لقناصل فرنسا في كل مكان تركية (الأجزاء ١ ـــ ١٢ للأعوام ١٨٣٠ ـــ ١٨٤٠) وبغداد والموصل (الأجزاء ١ ـــ ٥ الأعوام ١٨٤٠ ـــ ١٨٦٦) وبغداد (في الجزئين السادس والسابع للأعوام ١٨٦٧ ـــ ١٨٩٥) والموصل (في الأجزاء ٢ ـــ ٤ للأعوام ١٨٦٨ ـــ ١٨٩٥). « المؤلف »



لقد كان لنا خلال القرن التاسع عشر باكمله ثلاثة مراكز قنصلية لدى ما كان يسمى وقتئذ بميزوپوتاميا (بلاد ما بين النهرين) وهي : مركز بغداد ومركز الموصل ومركز البصرة . وكانت درجات هؤلاء القناصل لاتنقطع عن التحول والتبدل . ففي بعض الفترات ولأسباب تتعلق بالعزة أو بالانسجام مع متطلبات الوضع كان يقام مركز بغداد على هيئة قنصلية عامة . وهذا ما كانت عليه الحالة مثلاً أيام الامبراطورية الأولى وفي مطالع عهد الامبراطورية الثانية وكذلك كانت الحالة أثناء الأزمة المصرية لعام ١٨٣٩ إذ قدر مسيو تيير (١) أن من المفيد ارسال قنصل عام الى بغداد يأخذ على عاتقه مهمة مراقبة نشاط السياسة الانكليزية في هذه الاصقاع . بل لقد طلب إليه حتى إن يجوس خلال سوريا ليطمئن على المسيحيين هناك .. على أولئك المسيحيين الذين استحوذ عليهم القلق والجزع غداة انقشاع فرنسا التي اضطرت الى التخلي عن محمد علي . ولكن لسوء الطالع حدث أن مواطننا الذي نزل الى الاسكندرية في نهاية عام ١٨٤٠ لم يستطع أن يتعدى العريش نظراً لأن البلد كان في غليان وثوران فاضحى فريسة للحرب الاهلية (٢) فتلقى حينئذ

---

(١) تيير Thiers وزير الخارجية الفرنسية بعد عودة الملكية الى فرنسا ووفاة نابليون بونابرت (س١٠) .

(٢) الحرب الاهلية في مصر ١٨٤٠ - بعد انتصار جيوش محمد علي الكبير على الجيوش العثمانية ، واستيلائها على اجزاء كبيرة من اراضى السلطان ، واستسلام الاسطول العثماني وانضمامه الى جانب محمد علي ، تدخلت انكلترا في الامر دون ان تحيط فرنسا - التى كانت تساند محمد علي - بالامر ، فعقدت معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ التى وقعت عليها كل من روسيا والنمسا وبروسيا ، وبموجبها تخلى محمد علي عن كافة الممتلكات العثمانية التى استولى عليها ، ولغرض ارغام محمد علي على تنفيذ بنودها بعثت باساطيلها الى المياه المصرية ، فاحدث ذلك هياجا في اوساط الشعب المصرى كاد يوءدى الى حرب اهلية . (س١٠)

التعليمات بالتوجيه الى بغداد عن طريق البحر على أن يستفيد من رحلته فيجعلها وسيلة لمراقبة المنشآت التي أقامها الانكليز على طول البحر الأحمر العربي ، وهذا ما فعله . ولكن في الاوقات الاعتيادية لم تكن أهمية بغداد على درجة تجعل من الضروري وجود قنصل عام . وبصورة مستعجلة ولأسباب تتعلق بالاقتصاد في النفقات خفضت الحكومة الفرنسية درجة القنصلية العامة فجعلتها في درجة قنصلية فقط بل حتى نيابة قنصلية وحتى في أيام عودة الملكية والى عام ١٨٤٠ .

ولكن الحكومة عادت الى العادة المتبعة في ظلال النظام القديم التي تنحصر في تكليف القاصد الرسولي بالقيام بمهمة حماية مصالحنا ، وهو الذي كان بصورة تقليدية من المواطنين الفرنسيين .

وكان مركز الموصل يمثل بعض الأهمية وذلك بسبب وجود ارسالية دومنيكانية فرنسية في هذه البلدة ومن جراء وجود سكان مسيحيين في هذه المنطقة على جانب كبير من كثرة العدد . وكنا نحن نعتبر ، في نظرهم . الحماة التقليديين وذلك بموجب اتفاقية الامتيازات (٣) .

وسواء أكان لنا في تلك الحقبة ، التي تهمنا وتمسنا ، قنصل أو نائب قنصل فان هذا القنصل أو نائب القنصل كانا في أغلب الاحوالى مكلفين في الوقت نفسه بمهمات آثارية ، وهي ما كانت عليه على الأخص حالة (بوتا) و (بلاس) (٤)

---

(٣) عقد ملك فرنسا ـ فرنسوا الاول ـ وسليمان القانونى ـ اتفاقية في عام ١٥٣٥ منحت فرنسا بموجبها امتيازات واسعة كان من بينها السماح للبعثات التبشيرية الفرنسية ورجال الدين المسيحيين بحرية التنقل في الاراضى العثمانية . وقد بقيت العلاقات بين الدولتين ودية منذ ذلك حتى تعكرت بقيام نابليون بغزو الاراضى المصرية التابعة للسلطان العثمانى . (س١٠)

(٤) (أ) بول اميل بوتا Paul Emile Bottr « ١٨٠٢ ـ ١٨٧٠ » كان قنصلا لفرنسا في الموصل . وخلال تلك الاونة تولى اعمال التنقيب في أطلال خرسباد (دور ـ

أما البصرة وهي المدينة التي كانت قد سقطت من علياء مجدها القديم فقد كتب أحد وكلائنا عام ١٨٤٠ يقول انها « لم تعد سوى أكوام من الخرائب وأن سكانها قد تناقص عددهم نتيجة لغارات الحميات فاصبحوا يعدون (٥٠٠٠) نسمة ، الثلث منهم يتألف من العبيد السود البشرة المجلوبين من مسقط ومن زنجبار » . أقول لقد كانت البصرة مركز اقامة الوكالة القنصلية المودعة مهامها في معظم الحالات الى عهدة أحد الأفراد من الرعايا العثمانيين الذين شملتهم الحماية الفرنسية .

وباستثناء فترات التوتر الدبلوماسي كانت هذه المراكز الثلاثة لا تمثل بالنسبة لباريس مصلحة مهمة أو شيئاً مذكوراً . ففي عدة مناسبات أعاد الوزير الى ذاكرة وكلائه أن مهمتهم تنحصر بصورة جوهرية في « تنوير الحكومة عما يجري في هذا الجزء القصي من الامبراطورية العثمانية » ، وان يشملوا بحمايتهم رعايا السلطان الكاثوليكيين ولكن بدون تطرف وتظاهر بالغيرة والحمية . إذ كتب الوزير عام ١٨٤٥ الى قنصلنا العام في بغداد يقول : « أما حمايتنا الدينية فان الأمر الذي لامناص منه هو التوفيق في ممارستها بين الحكمة وبين مراعاة الاعتبارات التي يتطلبها الموقف ليس فيما يتعلق بحقوق السيادة والادارة التي يفرضها الباب العالي على رعاياه وإنما بالاضافة الى ذلك بخصوص الصعوبات التي تنجم من جراء بعد مسافات الاماكن

شروكين القديمة)١٨٤٣–١٨٤٤ فكشف عن آثار عظيمة • وبالرغم من خطورة اعماله بالكشف عن عاصمة آشورية جديدة فانه مات ولم يعلم بذلك اذ كان يظن انه ينقب في جزء من اجزاء مدينة نينوى القديمة • (س١٠أ)

– ب – بلاس (فيكتور) ١٨١٨–١٨٧٥ (Place (Victor كان قنصلا لفرنسا في الموصل وقد استأنف عمليات التنقيب في خرسباد (١٨٥٢ – ١٨٥٤) وكشف عن آثار عظيمة ، شحنها على الارماث « الاكلاك » من الموصل الى البصرة ، تمهيدا لنقلها بالبواخر الى فرنسا ، ولكنها غرقت في القرنة • وتعتبر هذه الحادثة من أكبر الكوارث الاثارية في القرن التاسع عشر ، ولم تسلم منها سوى قطع وصلت الى متحف اللوفر • (س١٠أ) •

فتعرقل بصورة حتمية أعمال سفارة الملك ومهام الباب العالي نفسه .

وحدث مشابه لهذه الحالة عام ١٨٥٤ حين ارتكز نائب قنصلنا في الموصل على اتساع دائرة أعماله في المنطقة وعلى الصعوبات الناجمة عن المواصلات فكتب يقترح تأسيس خمس وكالات قنصلية نفقاتها تتجاوز الـ (٦٠٠٠) فرنك ، فكان جوابه الزجر من جانب باريس التي اوصته « بتجنب كل ما من شأنه أن يهدف الى تضخيم أهمية المركز المعهود إليه تضخيماً يتخطى الحد المعقول » .

ولكن القنصل استقبل هذا التقريع بعدم اقتناع وبغير إذعان فرد عليه بعنف وشدة قائلاً : « انى ، يا سيادة الوزير وان كنت معترفاً كل الاعتراف بأن هذه التوصية قد اوحتها الى معاليكم اناة حذرة يقظة وحكمة عملية عظيمة إلا انني سأحاول الرد عليها .. لما كنت مقتنعاً غاية الاقتناع فينبغي — وارجو من السيد الوزير أن يعذرني في ذاك — أن أعرض وجهة نظري على الوجه الأتم وبعد أن أكون قد أبرأت مسؤوليتي (كذا) فأنني سأفوض أمري الى الله عن اختيار وطواعية فأبحث في جهات أخرى عن الوسائل المجدية للقيام بالأعمال النافعة والا أظل شخصاً خاملاً لا جدوى فيه ، ولو أن حالة الخمول هذه لو تمت للاءمتنى كل الملاءمة لا سيما تحت شمس آسيا المخدرة . وبالاضافة الى ذلك فانكم يا سيادة الوزير عارفون تمام المعرفة في هذه الآونة أن صحتي قد تردت الى أسفل الدركات (كذلك كذا !) فهي لا تسمح لي بالبقاء في الموصل ولعل مشروعي لن يكون أكثر من توصية قنصلية ستوضع على سبيل الذكرى فى محافظكم ، بل لعل هذا المشروع سيبرز في المستقبل الى حيز الوجود . أنا الذي كنت أرى دائماً وابداً أفكاري ومشاريعي يضرب بها عرض الحائط باديء بدء ثم تطبق بعدئذ بنجاح » .

والواقع إن نائب قنصلنا قد توهم هذه المرة ، وذلك لأن مشروعه لم يأخذ طريقه الى التحقيق ابداً .

ويماثل لذلك ما جرى عام ١٨٥٧ لقنصلنا العام في بغداد مسيو (تاستو) فانه حين خيل إليه ان من الأمور النافعة أن يتفضل بترشيح نفسه كوسيط شبه رسمي بين بريطانيا العظمى وفارس — وكانت الحالة حالة حرب — قد وجد نفسه يوبخ توبيخاً عنيفاً من قبل وزيره الذي كتب إليه يقول :

« لابد أن تدرك يا صاحب السيادة أنك حين وضعت نفسك خارج الدوائر التي يمكن أن يمارس فيها العمل الدبلوماسي لم تكن تنتظر مني تعليمات عامة في شؤون فارس . ان وظيفتك لا تتعدى المراقبة والملاحظة . ولم يكن عليك إلا أن تنقل الي المعلومات التي قد يهمني الاطلاع عليها . وفي الحالة التي تحتاج فيها الى تلقي تعليمات عن أحد المواضيع الخاصة كان بوسعك حسب مقتضيات الاستعجال أو طبيعة الحادث أن تراجعني أو أن تتصل بسفارة جلالته في الاستانة » .

أما بعض وكلائنا فكانوا على العكس من ذلك لا تحلق بهم الاوهام في أهمية وظائفهم فان أحدهم الذي كان قد أمضى قرابة العشر سنوات في بغداد والذي كان قد بلغه ان وظيفته قد هبطت الى مجرد نائب قنصل كتب يقول : « لقد قضيت سبع سنوات عجاف في اتفه وظيفة وفي اسخف دائرة لا محل لها من الاعراب من وجهة نظر جغرافية قنصليات الشرق . وانني تخلصاً من الاوهام التي ربما تراودني ارى ان ابرىء ذمتي فاعلن على ملأ الاشهاد انى على وجه التقريب لم اكن شيئاً مذكوراً ولا فائدة ترجى منى . ولو كانت القنصلية قد تحولت قبل ذلك بسبع سنوات الى نيابة قنصلية لكان الخير كل الخير في ذلك .

ولكن الجميع بصورة عامة كانوا يشعرون شعوراً عميقاً بمسؤولياتهم وبعظمة القطر الذي كانوا يمثلونه . فقد كتب مثلاً معتمدنا القنصلي في البصرة (مسيو فونتانييه) عام ١٨٣٦ يقول : « انني لست سوى احد الوكلاء الأشد مغمورية من وكلاء وزارة الخارجية . وقد زرعت في آخر زاوية من زوايا المعمورة . إذ انني قذفت الى بلدة قد تناولتها يد الخراب فدمرت نصفها وليس في جيبي سوى خمسين ليرة وبعض الألغاز التي لم يستطع أحد ان يفك رموزها حتى الآن ؟(٥) ولم يكن لدي لشد ازري ودعم كياني اي معين . فلا ابهة وفخفخة السفينة الحربية البريطانية(٦) ولا النفوذ الذي يصاحب تجارة عظيمة ولا مساندة ابناء وطني او معاضدة الاوروبيين ما دام لا يوجد احد منهم هنا . هذه هي الحقيقة ولا يستطيع احد ان يتصور اتعس من هذه الاحوال والظروف ولا انكد حظاً ولا أسوأ نفوذاً او اعتماداً وثقة . ولكنني معتمد فرنسي وهذا العنوان وحده يعدل لدي اكثر من اسطول . بل أكثر من امة كثيرة العدد . بل اكثر من تجارة مزدهرة ولكن لا تحمل هذا العنوان »

إن هذا الزهو الوطني يفسر ويبرر الشعور المدهش الذي اثبته ممثلونا كلما كانت كرامتهم في كفة القدر . وكم كان بودي ان اورد في مجرى قصتي هذه بعض الأمثلة ! ولكن فضلاً عن ذلك ينبغي ان نتذكر في هذا المجال الدور الذي لعبه « ماء الوجه » والذي ما يزال يلعبه في الاقطار

---

(٥) لم يوضح الموءلف المقصود بالالغاز التى لم يستطع احد ان يفك رموزها ، فلعله قصد بعض القطع الاثرية المنقوشة بالكتابات المسمارية التىيجهلها • (س١٠)

(٦) يعبر عن حسده لمنزلة القنصل البريطانى ونفوذه بين اهالى البصرة ، وللتعبير عن قوة بريطانيا كانت سفينة حربية ترابط على الدوام امام مبنى القنصلية البريطانية (س١٠)

العربية . فان ممثل احدى الدول الأجنبية خصوصاً إذا كانت هـذه الدولة مسيحية يفقد كل ما له من منزلة واعتبار وثقة واعتماد عليه إذا صفع صفعة علنية امام الملأ وذلك بتوجيه اهانة إليه ولم يعاقب مقترفها مهما كانت هذه الاهانة طفيفة !

من اية اوساط كان يجرى انتقاء معتمدينا ؟ .

اذا استثنينا القناصل العامين وجمهرة القناصل الاثاريين فان قناصلنا كان يتم اختيارهم على وجه العموم من بين المجربين . من اولئك الذين قضوا الشطر الاعظم من نشاطهم في قنصليات الامبراطورية العثمانية وغالبا ما يكون نشاطهم طويلاً ، وقد يكونون أحياناً من ارومة شرقية كما تبرهن على ذلك اسماؤهم امثال (سيوفي) (٧) او القابهم : هاجوت بليسييه ، ليزيماك . تافرنييه » وهو الذي كان في (سيفيتا فيكشيا) العون والخصم لستاندال في نفس الوقت .

وكانوا ينقلون حسب امزجة رؤسائهم او حسبما تمليه ضرورات الخدمة . فمن حلب الى بغداد الى ديار بكر الى طرابزون . وقلما كانوا يتصلون بفرنسا الأم . وكانوا يتكلمون العربية والتركية ، عامرة قلوبهم بالحنو والاشفاق على الفلاحين الفقراء المضطهدين من قبل الموظفين الذين كانوا في اغلب الحالات وحوشاً ضارية . وكانوا يعرفونهم تمام المعرفة لكثرة ما بلغهم عنهم او لفرط ما كانوا يلقونهم في دوائرهم السابقة .

ولهذه العلة كان يبدو هؤلاء الوكلاء قلقين جزعين احياناً لدى علمهم

---

(٧) نقولا سيوفي (١٨٢٩ - ١٩٠١) N.Siouffi ولد نقولا بن يوسف سيوفي بمدينة دمشق من عائلة عربية ، وشهرته سيوفي نسبة الى السيوف فلعل اجداده كانوا يصنعونها . وفي عام ١٨٦٦ منح الجنسية الفرنسية ثم عين بعدها في القنصلية الفرنسية ببغداد ١٨٧٣ ثم بحلب ١٨٧٥ واخيرا في الموصل عام ١٨٧٨ وقد وصل الى درجة قنصل ثم أحيل على التقاعد وسكن بقرية (بعبدا) بلبنان حتى عاجلته المنية عام ١٩٠١ ، وله عدة موءلفات بالفرنسية والعربية . (راجع سعيد ديوجي الذى حقق كتاب سيوفى : « مجموع الكتابات المحررة في ابنية مدينة الموصل » . بغداد ١٩٥٦) . (س١٠)

بتعيين الشخص الفلاني والانسان العلاني المشهور بالتعصب او كراهة البشر والياً في الالوية التي يعملون فيها . ولم تكن باريس لتستطيع تطمينهم على الدوام بل كانت تدعوهم الى التذرع بالصبر والروية . فعلى هــذه الشاكلة ردت باريس عام ١٨٤١ على قنصلنا العام في بغداد الذي شعر بفزع من جراء قدوم احد الولاة الجدد الى هذه المدينة وهو الذي نال في مركزه السابق شهرة فظيعة لايحسد عليها . اذ كتب الوزير يقول : « إن ما نخشاه هو ان تساهم تصرفاته السالفة في عدم جعل علاقاتكما على جانب كبير من السهولة كما كانت عليه مع سلفه : ولكن لابد انك قد تدرك كل الادراك ضرورة الوقوف موقفاً حازماً وحكيماً في الوقت نفسه لاسيما بخصوص الامور التي تمس الحماية الدينية » . وبوسعنا ان نتصور بأي توجس كان القناصل يتلقون امثال هذه النصائح .

وهذه المعرفة التامة بالاشياء وبالرجال من جراء طول معيشة معتمدينا في تركيا جعلت الانطباع عنهم احيانا كأنهم كانوا يشعرون بانهم يحيون في بلادهم الأم ذاتها . فهم يقولون بصورة عفوية « ولايتنا » « مدينتنا » . (والينا) . بل حتى انهم كانوا يقولون ما هو افضل من ذلك « ادارتنا » .

كانوا يتوقدون حماسة لاجل قضية تعصير الامبراطورية . كانوا يعنفون الموظفين العثمانيين الذين يهملون او يرفضون تطبيق الاصلاحات التي فرضت الدول الغربية على السلطان تبنيها . وكانت لصيغ التعبير عن الاماني التي كانوا يتمنونها لرفاهية ورخاء وامن الامبراطورية العثمانية لهجة تنم عن الاخلاص الذي لا تشوبه شائبة . بل كانت هذه التمنيات بالغة الشعور بالتأثر في معظم الحالات .. كانوا يتصرفون طوال هذا الفترة وكانهم انصار مؤمنون كل الايمان بالحلف الفرنسي التركي .

كل هـذا التحسس النبيـل كان يجري في دمائهم عندما كانوا يواجهون السكان الذين يضمرون لهم العـداء ويقابلون الولاة الذين لم يكن لهم اي استعداد للنهوض باعباء هذا الحلف ومقتضياته .

وبصورة عامة فان هؤلاء الموظفين المرؤوسين كانت تجري عليهم مرتباتهم بطريقة سيئة : كان يحدث انهم لايتسلمون رواتبهم الابعد تأخير طويل الامد ، ففي عام ١٨١٤ وقبل تنازل نابليون بوقت قصير كتب سفيرنا في الأستانة الى قنصل بغداد يأمره بان يلقي القبض على نائب قنصلنا في البصرة اذا استطاع الى ذلك سبيلا ، هذا النائب القنصل الذي ترك مقر وظيفته بحجة انه لم يتلق رواتبه منذ ستة اشهر . وقد ابدى السفير هذه الملاحظة ، وهي ان هذه الحالة هي نفسهـا حالة جميع مساعديه ولكن احداً منهم لم يتذرع بهذه الذريعة فيلوذ بالفرار تاركا مركز عمله !

وقد سبق ان اتيحت لي فرصة الاشارة الى ان حكومة (الملكية العائدة) وهي العاضة بنواجذها على أموال الدولة كانت قـد عادت الى النهج القديم الذي بموجبه كانت حماية مصالحنا في بغداد يقوم على ضمانها القاصد الرسولي ، وهذا القاصد الرسـولي لم يكن ليتلقى على القيـام بهذا العمل اي مرتب . ومع ذلك ولما كانت مهمته تؤدي الى بعض النفقـات فقـد وافقت الحكومة عام ١٨٣٥ على ان تمنحه (٣٠٠٠) فرنك مسانهة (سنويا) تغطية لمصروفات هذه الخدمة . فالتهبت عواطف القاصد الرسولى وانبعث يغرد بالحمد والشكران « على هذه المنة الكريمة لقاء النهوض بهذا العمل الشريف » و « توسل » الى الوزير « بالتفضل بقبول احر ما يكنه فؤاده من الشـعور بالاعتراف بالجميل والتكرم بتقبل تمنياته المشبوبة التي ينثرها يومياً على عتبـات الهياكل لاجل رفاهية فرنسا ورخائها وهناء ملكها ووزرائها »

ولكن رغم ذلك فقد كان هناك شجن يقض مضجع هذا الرجل الكريم إلا وهو ان المبلغ الذي نفح به على هذه الشاكلة لايسمح له بأي مصروف لتمثيل فرنسا فقد كتب يقول : « في السنين الخوالي كان للقنصل ترجمانان اثنان رهن اشارته ويتقاضي كل منهما ٩٠٠ فرنك مسانهة ولكن كل شيء قد ارتفع سعره في هذه الايام الراهنة (هكذا) فينبغي على الاقل حسبان ١٠٠٠ فرنك كمرتب يتقاضاه فراش و ١٢٠٠ فرنك كماهية يقبضها ترجمان » ويضيف الى ذلك بكآبة ملحوظة : « ينبغي اذن ان اروض نفسي على الذهاب الى السلطات المحلية دون فراش وكأنني احد الافراد العاديين بل دونهم منزلة وان اواصل عادة التشبث باول شخص اصادفه لجعله بمثابة ترجمان . أول شخص يبدى استعداده للقيام تجاهي بهذه الخدمة .

وبوصفي مبشراً بسيطاً فانني قانع بهذه الحالة والحمدلله . ولكنني بوصفي مواطناً فرنسياً اشعر بأن قلبي يمزقه الألم من وجود هذا العوز . من ظهور هذا البؤس في التمثيل الضروري كل الضروري في هذا القطر » .

ولكنه يستسلم ويفوض امره الى الله فيختتم كلامه قائلا : « سأمتنع في المستقبل عن التحدث اليكم عن هذه السفاسف والتفاهات اذا تفضلتم فتكرمتم علي باعلامي بأن هذه الخزعبلات لا تثير اي إلتفات اليها لديكم وان من فضول القول الافضاء بها اليكم » .

ولكن معاليه لم يتفضل ولم يتكرم بالاجابة ، ولذلك فان المبشر المسكين لم يعاود الحاحه ، وكان هذا الشح نفسه هو القاعدة التي يرتكز عليها كل ما يخص نفقات الموظفين في مراكزهم : ففي عام ١٨٤٨ جأر وكيلنا في الموصل بالشكوى من ان نفقاته في الخدمة التي ارتفعت في عام ١٨٤٥ الى ١٨٠٠٠ فرنك سنوياً قد انخفضت بصورة متوالية الى ١٢٠٠٠ فرنك ثم الى

٦٠٠٠ فرنك وهو يطالب بمضاعفة هذا المبلغ الاخير ولكنه لايحصل على اية ترضية لمطاليبه . وكذلك الحال في عام ١٨٨٣ فان احد اخلافه كان يتمنى لو استطاع ان يلبي دعوة وجهها اليه في عدة مناسبات رؤساء ورهبان طائفة الكلدان فشرح ما هو فيه من ضيق ذات يد وذلك ضمن هذه الكلمات :

لقد كنت أؤجل دائماً الاستجابة لهذه الدعوات وذلك بان أتذرع تارة بهذه العلة وطوراً بالعلة الاخرى . ولكن في كل هذه الحالات كنت شديد الاحتراس من رفض هذه الدعوات لئلا اجرح شعور الداعين اياي . ومع ذلك فان العائق الحقيقي كان عدم استطاعتي القيام بهذه الزيارات دون ان أكون مرغماً بوصفي مندوباً فرنسياً على توزيع العطايا والمكافآت المناسبة التي يتطلبها الظرف والتي لن ترقى الى اقل من ٤٠٠ فرنك لكلتا الزيارتين » .

ولكن باريس لم يخفق فؤادها رحمة به واشفاقا عليه بل رفضت قائلة :
« استناداً الى حالة الاعتمادات المخصصة للنفقات من هذا القبيل فاننا نرفض هذا الطلب ! »

وفي ايام الامبراطورية الاولى وجد قنصلنا في بغداد نفسه والحكومة ترفض ان تخصص له اعتماداً يبلغ خمسة فرنكات التمسها لشراء عصا ذات مقبض مطلى بماء الذهب تخصص للترجمان الثاني . هذا بالرغم من واقع ان المترجم الاول يملك مثل هذه العصا وان ابهة المراسيم والاحتفالات القنصلية كانت توشك ان تصاب في هيبتها من جراء هذا الرفض .

ومقابل ذلك كانت حسابات قناصلنا محل تدقيقات طويلة عريضة . واذا غفل احد القناصل نتيجة ذهول او جهل عن دفع (٢٠) او (٣٠) سنتيما الى احد رعايانا بمناسبة اجراء معاملة رسمية مثلاً فالويل له ، فانه يرى نفسه

وقد لفت نظره لفتا فظا جافيا صارماً بوجوب العودة الى النظام وأشعر بأن المبلغ موضوع البحث سيستقطع من راتبه .

وكانت هذه الدوانيقية شديدة الوقع على انفسهم . وزاد شدتهـا حدة كون زملائهم البريطانيين الذين لم يكونوا في تلك الفترة مرتبطين بوزارة الخارجية البريطانية (وهذا من باب الغرائب) ولكنهم مرتبطون بحكومة الهند ، يحيون حياة رخية رافهة . وكانت تحرس البريطانيين ثلة من جنود الهنـــد وتحت تصرفهم سفينة حربية في نهر دجلة تجاه محل اقامتهم . وكانوا يغدقون الهدايا والمنح والهبات على رؤســاء القبائل بكرم وسخاء . وبجانب أمثال هؤلاء « الحواتم » البريطانيين كان ممثلونا يظهرون ازاءهم بمظهر الاقرباء الفقراء فيتألمون لذلك اوجع الألم وامضه لاسيما انهم كانوا حتى السنوات الاخيرة من هذا القرن القناصل الاجانب الوحيدين في بغداد حيال الانكليز . ولهذا قال بحق قنصلنـا العـام في سنة ١٨٤٦ وهو البارون (دى فيمار) مؤكداً : « إن الموضوع من الاموال تحت تصرف زميله الانكليزي يساوى الموضوع من الاموال تحت تصرف السفارة الفرنسية في الاستانة » .

وقد اضاف الى ذلك والكآبة تقطر من كلماته ؛ « ارى لزاما علي أن اقول دون ان اخشى من معاليكم ان تعزوا الي بأن الدافع الى قولي الشعور بمصلحة شخصية ـــ ان القنصلية العامة لفرنسا في بغداد وهي بعيـدة كل البعد ان تفقد الاهمية التي كان يبدو انهـا تملكها عام ١٨٣٩ وهي الفترة التي ارتأت فيها حكومة الملك ان من المناسب انشاءها اقول ان هذا المركز هو اكثر من أي وقت مضى بمثابة مركز مراقبة من اعلى درجة من درجات المصلحة السياسية وهو جدير كل الجدارة بعمل نافع وقمين باقالته من عثرته وانتشاله من الحالة المزرية التي اوصلته اليها التقتيرات في منحه الاعطيات التي

يستحقها من يعمل على ادارته ويحمل لقب رئيسه » (٨)

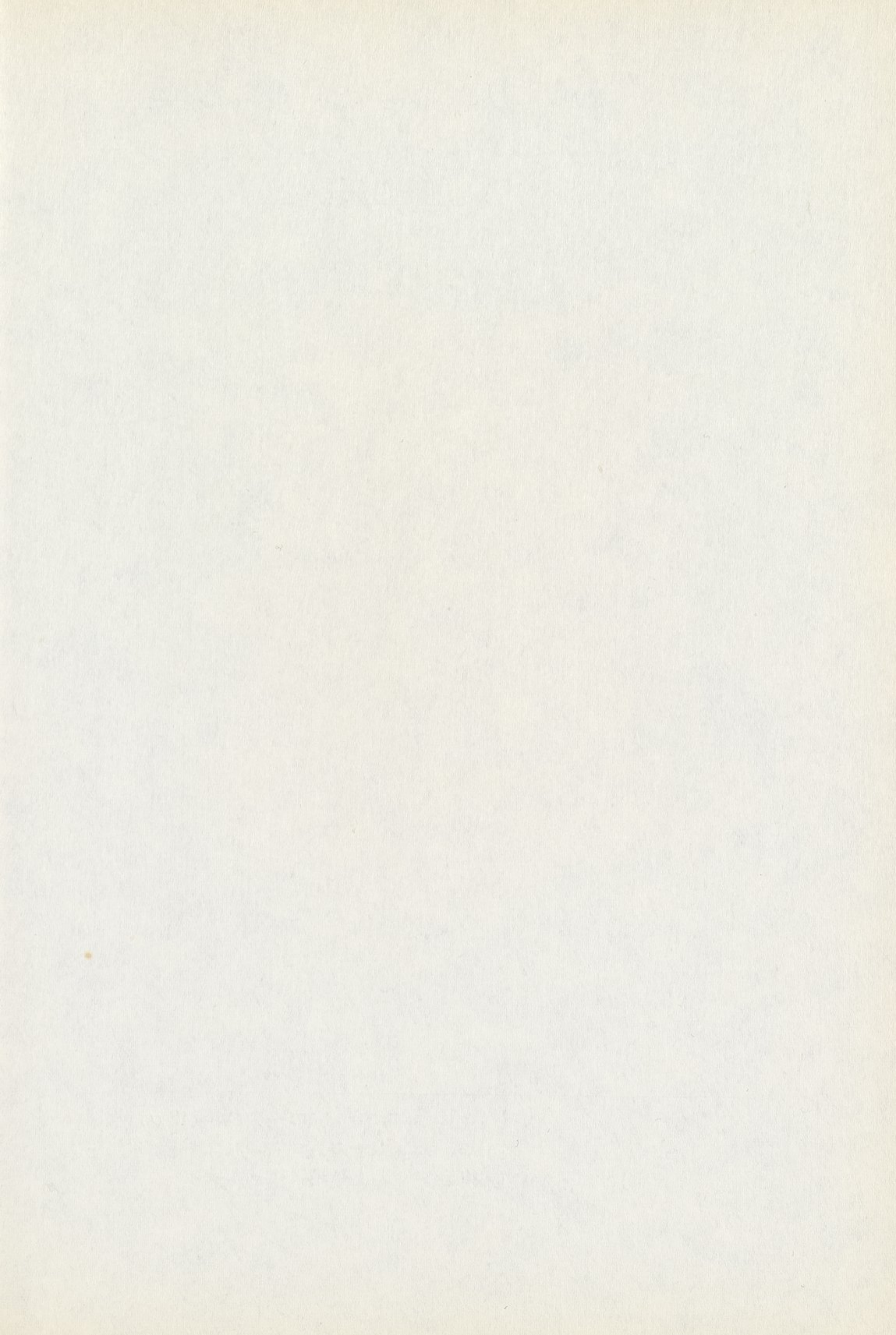
ولكن الذي حدث في الواقع هو ان القنصلية العامة قد حل محلها بعد عامين من هذا التاريخ نيابة قنصلية بسيطة !

---

(٨) الرسالتان الواردتان في هذا القسم هما :

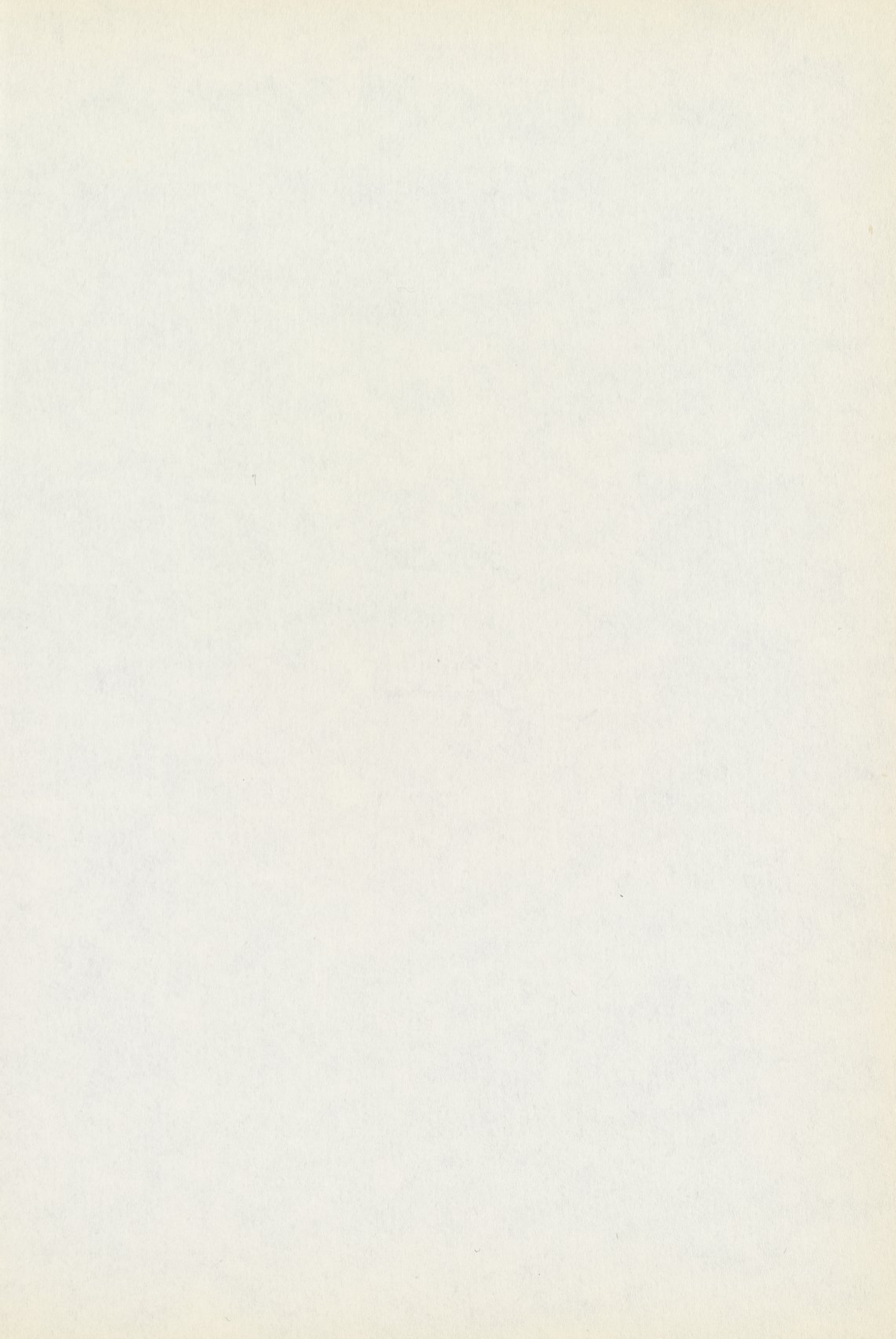
أ ـ الرسالة المؤرخة في ٧ نيسان ١٨٥٧ .

ب ـ الرسالة المؤرخة في ١٠ تشرين الثاني ١٨٤٦ .



القسم الثاني

السفر



لغرض الوصول الى العراق كان على الفرنسيين في الفترة التي نحن معنيون بالتحدث عنها هنا أن يختاروا بين أحد طريقين أحدهما الطريق الذي كانت تتبعه شركة (مال ديز ند Malle des Indes) أي بريد الهند، المشهورة. وهو الذي كان يمر بمرسيليا فبورسعيد فبرزخ السويس (ومنذ عام ١٨٦٧ عبر القنال) فالبحر الأحمر فبومباي فالبصرة. وكل ما كان موجوداً هو السفن الشرعية ، وكانت السفن الشرعية هي هذه القوارب الصغيرة (الحبيبة الى قلب أحد أصدقاء العرب مونفريد Monfried) وهي الوسائل الوحيدة التي تعتمد عليها الأسفار البحرية بين موانىء شبه الجزيرة العربية. ولكنها كانت على أعظم جانب من عدم توفير وسائل الراحة علاوة على كونها غاية في بطء الحركة ، وأنها لم تكن تستعمل إلا من قبل سكان البلاد الأصليين. فكانت الحاجة تتطلب السفر الى بومباي والانتظار هناك لاحدى السفن الانكليزية التي كانت تقوم برحلة واحدة في كل شهر بين الهند والبصرة.(١)

بالاضافة الى ذلك كان لهذه السفن سمعة سيئة مخزية وهي أن موجهي ادارة الشركة الذين لم يكن لهم منافسون يخشون منهم ، فرضوا على المسافرين الأسعار التي أملتها عليهم أهواؤهم. ففي عام ١٨٩١ كتب أحد قناصلنا يقول : « لقد اشتطت انكلترا وتعسفت في موقفها فان الأسعار التي فرضتها على شحن البضائع وعلى نقل المسافرين بالغة الفداحة خصوصاً اذا

(١) المؤلف لم يذكر الطريقة الثانية (المترجم).

آخذنا بنظر الاعتبار قلة توفير وسائل الراحة في هـذه السفن . فهي تسيء معاملة التجار من سكان البلاد الأصليين وتعامل الأجراء والفعلة والكسبة بقسوة ضارية بل تذهب في التعسف الى حد فرض لغتها عليهم باصرار على حضر التخاطب بلسانهم . وتطلق أيدي الزبانيـة الذين هم على جانب كبير من سـوء الخلق في فرض الأتاوات على المسافرين فيفرضون ما يشاؤون من رسوم على الأمتعة والبضائع والأحمال ويتخذون من الحزم والرزم والصناديق وقوداً لسفنهم ، هـذا اذا لم يلجأوا الى محتويات تلك الحزم والرزم والصناديق فيسرقونها . (٢)

ويضيف ممثلنا الى ذلك قائلاً : « ان في مقدور أية شركة فرنسية يهمها الأمر في مثل هذه الحالات أن تتدبر أمرها فتعزم على سفن خطوطها — من والى الشرق الأقصى — أن تجعل لنفسها مرسى في البصرة وتوقفاً الى حين . . على أن محاولة من هـذا القبيل كانت قد جرت عام ١٨٩٥ ولكن يبدو أنها لم يكن لها ما يقفوها .

وحين يصل مسافرنا الى البصـرة لا تكون متاعبه قد انتهت بعد إذ يتحتم عليه أن يعلو أثباج نهر دجلة أو نهر الفرات . وكان السـفر عن طريق اليابسـة مستحيلاً في حكم الواقع وذلك لانعدام الأمن من جهة وللشعور بالخوف من وجود الأمراض والأوبئة المتفشية حول شواطىء النهرين المذكورين من جهة أخرى . وان مراكزنا قد أشارت عدة مرات الى هـذه الحالة المؤلمة . . ففي عام ١٨٥١ أشار ممثلنا في بغداد مسيو تافرنييه الى أن : « القلاقل تجعـل الطريق البري والطريق النهري غير قابلين للاجتياز . وعلى هذا فان كل اتصال بين بغداد والبصرة قد انقطع منذ شهرين . وأن بريداً

---

(٢) الرسالة المؤرخة في ١٤ حزيران ١٨٩١

أرسله باشا البصرة قد أرغم إرغاماً على التقهقر والتراجع بعد أن خاض غمرات أخطار كبيرة.

إن هذه الانتفاضة تجعل السلطات في أسوأ حالة من حالات القلق والاضطراب والحيرة نظراً للعجز المطلق الذي تجد نفسها تتخبط فيه سعياً وراء احتمال الحصول على أي نصيب من النجاح تحرزه ضد الثوار.»

وإننا لنسمع كذلك نفس النغمة من نفس الناقوس في عام ١٨٩٢:
«ان احدى قبائل نهر دجلة الأسفل قد هبت كلها تقريباً هبة رجل واحد ثائرة على السلطة في أعقاب حبس اثنين من أبناء شيخها اللذين رفضا دفع الديون المتأخرة المترتبة عليهما تجاه الخزينة من جراء إلتزامهما لحقول الرز في ذلك الاقليم. وقد انقطعت المواصلات النهرية وغيرها بين بغداد والبصرة خلال خمسة عشر يوماً. وأن سفينة تركية قد تناوشتها عيارات البنادق النارية فعادت القهقرى وأنفها راغم. وان عدداً من السفن الشراعية التي تستخدم لنقل الحبوب كان نصيبها النهب والسلب واحراق ربابنتها وهم احياء داخل التنانير. ومسك الختام شبوب النار على شواطىء دجلة من الجانبين وسيلان الدماء على الساحلين.

وكان الشيخ بنفسه يحرض على التخريب والفساد ويدعو الى المذابح دون أن يبدو عليه أدنى رعب أو فزع من وجود السفينة الحربية العثمانية والوالي قابع على مقربة منه في البصرة.. وذلك لأنه على علم تام بكيفية تنفيذ أوامر الباب العالي بشأنه. لقد ثار ثلاث مرات خلال مدة لا تتجاوز الأحد عشر عاماً. وقد أنقذت رأسه الرشاوى ثلاث مرات».[٣]

وهكذا فان الطرق الصالحة للملاحة نفسها لم تكن لتعني كثيراً من

(٣) الرسالة المؤرخة في ٢١ مايس ١٨٥١

الأمن والطمأنينة لا سيما ان التوقف حين يميل ميزان النهار الى الهبوط كان أمراً محتماً كما كان من المحتم أيضاً تمضية الليل على أديم الغبراء . وعلاوة على ذلك فان الملاحة خطرة في أكثر الأحوال خصوصاً في نهر دجلة بحيث يصبح في كل لحظة من لحظات الربيع انقلاب السفن بسبب قوة التيار من الأمور المتوقعة . أما في موسم الخريف فهناك خطر جنوح السفينة وغوصها في الرمال الرخوة .

وأمثال هذه الحوادث المزعجة حدثت لأحد وكلائنا في نهر الفرات ، وكان القدر لم يكتف بايذائه الى هذا الحد فسلط عليه سكان الضفاف الذين سلبوه كل ما كان لديه ومن ضمن ذلك ملابسه فوصل الى بغداد عارياً كما ولدته أمه . فاذا أفلت الانسان بقدرة قادر من هذه المكاره فالمؤمل حينئذ أن يقطع المسافة خلال ستة أيام .

وقد حاول الانكليز عدة محاولات مستميتة إنشاء خط نظامي عبر النهرين تمخر في مياهه السفن التجارية التي وقودها من الخشب ولكنهم عانوا عدداً لا يستهان به من خيبات الأمل ولم ينتظم سير هذا الخط إلا في السنين الأخيرة من القرن .

لقد كانت المسافة إذن طويلة كل الطول . كان ينبغي أن يصرف شهران في الملاحة على الأقل . وعلاوة على ذلك فان اجتياز البحر الأحمر في الصيف على غوارب بواخر غير مكيفة للمناخ كان عملاً في غاية المشقة . وعلى ذلك فقد كان الكثير من الرحالة يفضلون الطريق الثانية من بيروت الى دمشق فالصحراء وهي أقصر مدة (إذ تستغرق شهراً) ولكن هذه الطريق لم تكن هي أيضاً خالية من المتاعب والخطوب والأخطار .

كان عبور الصحراء من حمص الى دير الزور يتطلب أسبوعاً كاملاً .

كان المسافرون يمضون الليل هاجعين في الخانات التي وصفها أحد وكلائنا في الموصل وهو (مسيو سيوفي) الذي اجتاز المنطقة السالفة في عام ١٨٩٠ بقوله : « يدخل الداخلون هناك من باب ضخم مصراعاه مبطنان بصفائح من الحديد . فيصلون الى فناء واسع يحيط به رواق تتخلله قناطر وعقود ويتوسطه حوض كبير يجرى فيه الماء ليلاً ونهاراً . ويرى الراؤون حول هذا الفناء غرفاً واصطبلات واسعة مشيدة من الحجر في أحجام كبيرة ولكن قد تناولت معظمها يد التخريب والتقويض » .

« أما الليالي في هذه الخانات أو الفنادق البدائية فلم تكن دائماً تخلو من المزعجات أمثال الحشرات المحلية » .

ويكشف لنا مراسلنا بهذه المناسبة عن سر من الأسرار أفضى اليه به أحد الأعيان فيقول : « لقد أكد لي أنه على بعد نصف ساعة من قريته يوجد محل يتميز بميزة فريدة في بابها تلك هي إنعدام وجود البراغيث بصورة قطعية . وهذا الأمر يفاجىء المسافر ببشارة هي في غاية العذوبة والحلاوة والنفاسة اذا تذكرنا أن هذه الحشرة منتشرة كل الانتشار في سوريا بحيث أنها تغدو في بعض الأحيان الطامة الكبرى » .

وهناك بين هواة عجائب وغرائب الأقاليم النائية من يفضلون البعير الوئيد الخطى الوقور الهيئة على الحصان اللعوب الرشيق . وسر تفضيلهم هذا هو أن البعير حمالة للأثقال وقد قص علي أحد أعيان العراق أن ذويه قرروا إرساله — وهو يدرج الى الثانية عشرة من عمره — الى الاستانة ليتلقى هناك علومه فعهدوا به الى أحد أصحاب القوافل الذي وضعه في سلة معلقة على عاتق أحد الجمال وأنه كان يتنقل على هذه الشاكلة من مكان الى آخر مدة تربو على الشهر .

اما عبور الانهار وهو من الامور النادرة لحسن الحظ فانه مضيعة للوقت الطويل ، لأن هذا العبور يتم بواسطة قوارب بدائية كل البدائية .

والحقيقة ان سكان البلاد الاصلية لايأبهون لهذا الأمر ، وذلك لانهم يتبعون طريقة كان يعرفها جنود اشور بانيبال (٤)

ولعل من المفيد ان تنصتوا معى الى مسيو سيوفي وهو يحدثنا قائلا : « وصل رهط من الاعراب مؤلف من رجال ونساء الى ضفة النهر . فنفخ كل منهم جرابه بفمه . وبعد ان كوروا ملابسهم حول رؤوسهم نزلوا الى النهر وقد اسندوا صدورهم الى اجربتهم المنفوخة بالهواء التي احتضنوها احتضان العاشق لمعشوقه وعبروا النهر على هذا المنوال وهم يرفسون الماء بارجلهم التي استعملوها إستعمال المجاديف » .

وحتى الصحراء نفسها لن تجعلك في مأمن من غائلة اللصوص وقطاع الطرق . ففي عام ١٨٥٤ روى لنا نائب قنصلنا في بغداد وهو مسيو (نيكولا) فور التحاقه بوظيفته بانه : « قد هوجم مرتين من قبل الاعراب الذين جرأهم على الاعتداءات انحسار القوات الحكومية عن هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية فزاد تغلغلهم يوما بعد يوم وانتشروا بكثرة على الطرق الخارجية ابتداءاً من الاسكندرونة حتى ارباض بغداد .

وقد هوجمت قافلتي للمرة الاولى في رابعة النهار من قبل عشرة فرسان مدججين بالرماح والمسدسات . ولكن بفضل حراسي العديدين والاسلحة التى اجتهدت أن اسلح نفسي بها لدي مغادرتي باريس دب الذعر في قلوب

---

(٤) يشير الى احد الالواح المرمرية المنحوتة بصورة ناتئة تمثل جنودا آشوريين يهاجمون قلعة من النهر وهم يسبحون على الاجربة . وقد عثر على هذا اللوح في نمرود (كالح القديمة) وهى موجودة في المتحف البريطانى . وفي كل من المتحف العراقى ببغداد ومتحف الموصل نسخة جبسية منقولة عن الاصل . (س . أ) .

المهاجمين لدى رؤيتهم عزمنا المصمم على الثبات في وجوههم . وذلك لاننا هاجمناهم وطاردناهم فلاذوا بالفرار فلولاً دون ان يجرأوا على اطلاق النار علينا .

ولكن الحالة هذه لم تكن هي نفسها لدى الهجوم الثاني الذي حدث في غسق الليل في واد ارغمنا المناخ ارغاما على نزوله في آخر الليل ، ففي هذه المرة اعتمد الاعراب على ظلمة الليل الطاخية الحالكة ، وقد خيل اليهم اننا غصنا في سبات عميق فشرعوا بالتسلل خلسة بين افراد القافلة فتركناهم يقتربون حتى اذا اصبحوا على مرمى من قذائف البنادق اطلقنا عليهم النار اطلاقاً عاما فردوا علينا وهم يمعنون في الهروب . ولكنهم لسوء الحظ أصابوا احد الرحالة الذين رافقوني وكان قد جانب الحيطة والحذر فاقترب منهم اكثر مما يجب وهو يطاردهم .ويتعقب آثارهم » (٥) فاذا لم يخالجنا الشك في صحة هذه الرواية فبوسعنا ان نقول بأفضلية السفر مصحوبين بقوات مدججة بالسلاح الوافر .

وبعد مسيرة اسبوع يصل المسافر الى الموصل . وبغية مواصلة السفر الى بغداد كانت تلك الفترة تحتم استخدام الكلك « وهذه تسمية لما يدعى بالطوف او الرمث . وهو مؤلف من الواح تستلقى على اجربة منفوخة بالهواء . وهذا الكلك ينساب مع التيار ويدار بواسطة استعمال المجاديف ادارة قد تسوء أو تحسن . وبالرغم من ان تركيب الكلك لايسمح له بتحدي جريان تيار الماء ولا ان يتقدم في انسيابه الا ببطء شديد فان هذه الوسيلة هي الضرب الوحيد من ضروب الملاحة النهرية الذي يستعمل لمتابعة جريان نهر دجلة . وان جميع البضائع التي تشحن من الموصل الى بغداد تنقل بهذه الواسطة .

---

(٥) الرسالة المؤرخة في ٢٣ حزيران ١٨٥٤ .

وحين تصل الاكلاك الى بغـداد تفتح افواه اجربتها فتلفظ انفاسها . اما اخشابها فتباع في محل رسوها . ويعاد ارسال الاجربة الى الموصل ولكن عن طريق البر على ظهور الدواب » .

لقد كانت الأكلاك فريسة سهلة لقطاع الطرق وذلك ما يؤكده الحادث الذي وقع لاثنين من مواطنينا عام ١٨٩١ ودونكم التفصيلات : « لقد شد مسيو جي . ومسيو سي . رحال السفر من الموصل الى بغداد فارتقيا ــ كما هي عادة المسافرين على وجه التقريب في تلك الحقبـة ــ ظهر احد الأكلاك مع من ركب معهما . ولكن حينما وصل هؤلاء الى محل يضيق فيه عرض نهر دجلة ويمضي فيه الكلك بين جبلين علم هؤلاء السادة الركاب ــ الذين سبق كلكهم أو اعقبه حوالى اثنى عشر كلكا محملة جميعها بالبضائع ــ بأن سلابين نهابين من البدو قد تجمهروا على الشاطىء الايمن على بعـد مسافة قصـيرة من اتجاههم . فربطوا الكلك على ضفة احدى الجزيرات وسمحوا للاكلاك جميعها بان تجتازهم . فانثـالت على الكلك الاول الذي حاول العبور نيران القراصنة . اذ اطلقوا عليه اكثر من خمسين رصاصة . وارغموا ملاحيه على الاستسـلام . وشرعوا بالاستيلاء على جميع الاكلاك التي اعقبت ذلك الكلك بالتتـابع . واستخدموا هذه الاكلاك لعبور نهر دجـلة وانتشروا على الضفتين . اما مسيو جي . ومسيو . سي وجماعتهما فقـد قضوا خمس او ست ساعات وهم يهيمون على ضفاف الجزيرة الصـغيرة على بعد ثمانين متراً من القراصـنة الذين كانوا واثقـين كل الوثوق من قدرتهم على ارغامهـم على الاستسلام لدى استئنافهم الانحدار مع التيـار وقد خيل اليهم عدم جدوى اطلاق النار عليهم . ولكن تلطف القدر فهبت زوبعة عاتية مروعة اثناء الليل . وبفضل هذا الاعصار المضاف الى الظلمات استطاعوا ان يجتازرا المنطقة المحتلة

من قبل اللصوص الشقاة دون ان يشعر بهم شاعر (٦)

لقد رأينا في السطور السالفة ان اللصوص لم يكونوا ليرعوا اية حرمة أو يراعوا اى اعتبار للاجانب . ومع ذلك ففي بعض الأحيان كانوا يخفضون جناح الذل من الرحمة . ومصداق ذلك ما يقصه علينا مسيو تافرنيية نائب القنصل في بغداد عام ١٨٥٠ اذ كتب يقول : « اثنـــاء اجتيازنا الطريق الواقعة بين الموصل وبغداد صادفنا بعض اللصوص الذين كانوا قد فرغوا من سلب ونهب اصحاب كلك من الاكلاك كان موسوقا بالاخشاب . وقد بلغ من قسوتهم وفظاظتهم ان سلبوهم حتى اقمصتهم في وقت جليدي البرد . فاتخذنا اجراءاتنا للدفاع عن انفسنا . وفي الوقت نفسه رفعنا العلم الفرنسي .

فكانت هذه الاستعدادات السبب في حملهم على التوقف عن استعداداتهم الهجومية ذاتهـا فسألونا من نكون والى اين نحن ذاهبون . فاشرقت في ذهن احد حراسنـا خاطرة عجيبة هي ان يجيبهم بانني باشـا بغداد الفرنساوي . حين ذلك ردوا علينـا بان في وسعنا متابعة السـفر دون خوف او وجل ، وبأن خيمتهم تحت تصرفنا اذا اردنا الاستراحة والاستجمام هنا . فتوجهنـا اليهم بالشكر وتمنوا هم لنا رحلة ميمونة (٧)

ولما كانت السلطات غير قادرة على حفظ سـلامة المسافرين فانها قد عهدت بهذه المهمة الى بعض القبائل البدوية التي تنفحها بالعطايا والهبات . فاذا عجزت هذه القبائل عن صيـانة أمن المسافرين ـــ وهذا ما كان كثير الحدوث ـــ او سولت لاحد الولاة نفسه وقد ركبته الحماسة ان يستوفي الضرائب من هؤلاء الاعوان الذين يصعب تذليلهم وترويضهم فانهم يضربون

---

(٦) الرسالة المؤرخة في ٢٣ اذار ١٨٩١ الموجهة من مسيو بونيـــون النائب القنصل في بغداد .

(٧) الرسالة المؤرخة في ٣١ كانون الاول ١٨٠٥

بمهمتهم عرض الحائط . وقد لايكتفون احياناً بان يدعوا القوافل التي عهد اليهم بتوفير الطمأنينة لها وحمايتها ينهبها الناهبون وإنما ياخذون هذا المجهود على عاتقهم فينهبونها بانفسهم .

ولابد اننا الان نستطيع ان نتصور جيداً كم كان معتمدونا يشعرون شعوراً مفرطاً بانهم بعيدون على هذه الشاكلة . فمر اسلاتهم كانت تودع اما الى حملة البريد الرسمي للباب العالى الذين كانوا يدعون بالططارية (٨) والذين كانوا يقطعون المراحل على ظهور الجياد . واما ان تطرح هذه المراسلات في الحقيبة الانكليزية . وإما أن تحملها القوافل المسافرة الى حلب او الى دمشق .

ولكن حملة هذه البرد كانوا في احايين كثيرة يعتقلون من قبل قطاع الطرق واللصوص فكان يتحتم اما ارسال الرسالة الواحدة مرتين واما أبرادها عن طريقين مختلفين . وهذه الحالة كانت تعقد مهمة القنصل واعوانه من السكرتارية . ففي عام ١٨٣٦ ظلت القنصلية تنتظر عدة اشهر لكي تتسلم في نهايتها جوابا من باريس .

وفي عام ١٨٥٣ كذلك انقضى اثنا عشر يوماً لكي يصل البريد من باريس الى الاستانة واقتضى عشرون يوما لوصول البريد من الآستانة الى بغداد .

اما التلغراف فلم يصل الى بغداد الى في عام ١٨٦٠ ولم يصل الى البصرة إلا في عام ١٨٦٣ .

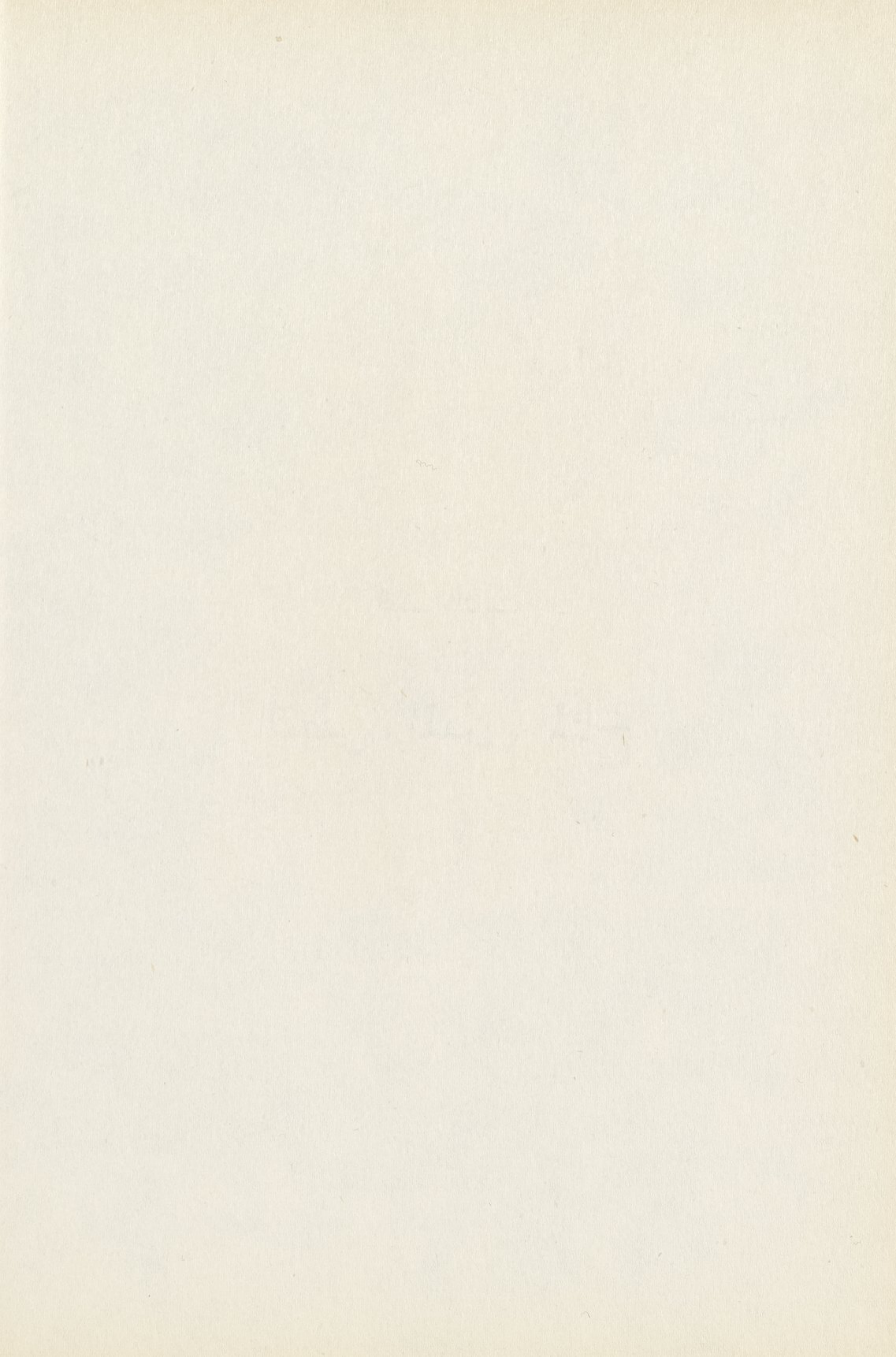
وكان حمل الرسائل باهظ النفقات : (٣٠٠) فرنك اجرة الساعي بين العراق وساحل البحر الابيض المتوسط .

---

(٨) الططارية : هم الموظفون المسوءولون عن نقل البريد .

القسم الثالث

القطر ، المدن ، المناخ



شاء نحس المصادفة ألاّ أجد في مراسلات معتمدينا الا الاقل من القليل من التفصيلات عن القطر . فان انعدام طرق المواصلات مضافا الى افتقار البلاد الى الامن والطمأنينة لم يحفزا وكلاءنا على التجول في ارجائها . وعلاوة على ذلك فان الاعتمادات اللازمة لهذه الاغراض كانت نزرة شحيحة .

ولكن حب الاستطلاع كان في بعض الاحيان من اقوى الحوافز . ففي عام ١٨٦٢ صمم مسيو (دى لا بورت) (١) نائب قنصلنا في بغداد على القيام بجولة في منطقته . فكتب يقول : « ساستفيد يا سيادة الوزير من حسنات العلاقات الطيبة في ديار بابل وبلاد ما بين النهرين . ومن هناك ساهبط منحدراً في الفرات الى النقطة التي يلتقى فيها هذا النهر بنهر دجلة . ومن ثمة سأدلف الى البصرة . ثم امضى صعدا في دجلة حتى اصل الى بغداد ماراً بخرائب سلوقيا وطاق كسرى . ولما كنت احسن اللغة العربية فباستطاعتي ان أستنطق هؤلاء السكان الذين يعرفهم العالم اقل المعرفة وان اتحقق بنفسي فأرى ان كانوا خليقين بتلقى بركات مدنيتنا . وسابذل كل جهودى — يا سيادة الوزير — لقطف اشهى ثمرات الملاحظات من رحلتى هذه . ولدى رجوعى سأرسل الى معاليكم تقريراً اؤمل ان يكون مفيداً

---

(١) دى لابورت (لويس) De Laporte (Louis) : عالم آثار فرنسى الف كتابا عن حضارة وادى الرافدين عنوانه : La Mésopotamie نقله الى العربية الدكتور محرم كمال وراجعه الدكتور عبدالمنعم ابو بكر ، وصدر في سلسلة ١٠٠٠ كتاب تحت الرقم (٣٥) ٠ (س١٠ أ)

وشائقاً من اربعة وجوه : الوجه السياسي والوجه التجاري والوجه الزراعي والوجه الآثاري .

ولما كنتم معاليكم قد احطتموني علماً بأنكم بعد الاجراءات المؤسفة التي شملت الميزانية بالتخفيض مرغمين على سلوك سبيل الاقتصاد والتقتير والتقشف فانني سأقوم بهذه الرحلة على نفقتي الخاصة . وسيكون جزائي الوحيد ، يا سيادة الوزير ، هو الاستحسان الذي سيتفضل معاليكم باسدائه الى نتائج ابحاثي وتنقيباتي (٢)

إن الحمية والغيرة والشهامة ونكران الذات لدى خادم الدولة المتواضع هذا تسمح لنا بتكوين فكرة عن حالة هذه المناطق . فهو يصف لنا ديار بابل وكأنها (نورمانديا آسيا) ويراها كما هي في الواقع مكسوة بقطعان الماشية . فاذا عمدنا الى تصديقه يتبين لنا ان قبائل شمر قد باعت فى عام ١٨٦١ (١٦٠٫٠٠٠) رأس من ذوات القرون من البهائم . كما باعت (١٥٠٠٠) رأس من الجياد والجمال وباعت (٤٥٠٠) طن من الصوف . وكان الشيوخ يشكون من عزلتهم التي هي ضارة بتجارتهم . وهم ينتظرون بفروغ صبر السكة الحديد (وهي التي لن تصل الى بغداد الا في عام ١٩١٤) والتي ستفتح لهم ابواب تصريفات جديدة للتجارة (٣) . أما استقبالهم للضيوف فهو استقبال عاطفي رقيق يتسم (بكل ما لدى القرون الاولى من اريحية وكرم) ويتابع قنصلنا كلامه قائلاً :

---

(٢) الرسالة المؤرخة في ٢٩ تشرين الاول ١٨٦٢

(٣) في مطلع الحركة الاستعمارية بلغ التنافس الاستعمارى أشده فيما بين الدول على الاستيلاء على مناطق النفوذ واستعمارها ، ومن بين تلك المناطق منطقة الشرق العربى وقد تجسد في تسابق الدول الاوربية على مد سكة حديد بغداد . وللوقوف على تفاصيل المشروع والدوافع الكامنة وراءه يراجع كتاب الدكتور لؤي بحري « سكة حديد بغداد » المطبوع في بغداد عام ١٩٦٧ . (س١٠)

والعرب منبثون في كل نقطة من نقاط هذه الاصقاع العاجة بأطايب الناس . فهم على اخلاق وشمائل 'رق مں أخلاق وشمائل الفلاحين المصريين . وهم في ديانتهم متسامحون اكثر من تسامح الفلاحين المصريين أيضاً . وان الاصل الذي ينتمون إليه باد للعيان في كل مكان تقريباً ، ولكنه يبدو أشد ما يبدو في ديار بابل ، حيث تظهر الخطوط الجميلة للانسان القديم .. لقد زرت مدينتين مرموقتين عند المسلمين هما : كربلاء والنجف وفي كلتا المدينتين تجولت محفوفاً بتكريمات ومجاملات لا أستطيع التعبير عنها ، وذلك من قبل حكام تلك المناطق . وكذلك السكان فانهم لم يتلفظوا كلمة واحدة نابية قد تسيء إلى الانسان المسيحي الذي كان يطوف خلال الاماكن المقدسة . كل هذا بالرغم من قبعتي المعمولة من اللباد التي لم اشأ أن تركها والتي فرضتها فرضاً على سكان المدينتين المقدستين » .

ويصل قنصلنا معتمراً بقبعته وهو يخترق الفرات « داخل القفة الرديئة وهي الزورق العربي الذي قوامه من الأسل وغلافه من الزفت المعدني » . وهي نفس القفة التي كان يستعملها رعايا حمورابي .

ويمضي لزيارة ما يعتقد أنه هو « برج بابل » ويدعى اليوم (بورسيبا) (٤) وهو لايخفى عن رئيسه خيبة الأمل التي انتابته فيقول : « لدى اقترابي من هذا البرج خالجني ، يا سيادة الوزير ، هذا الانفعال الغامض الذي تبعثه في النفوس مقاربة شيء من الاشياء العظيمة . ولدى وصولي الى قاعدة البناية دهشت كل الدهشة من انني لم أجد امامي إلا كومة هائلة من الآجر .

---

(٤) بورسيبا (وتعرف اطلالها اليوم برس نمرود) تقع الى جنوبي مدينة الحلة بمسافة ١٠كم وقد نقبت في هذا الموضع بعثة المانية قبل الحرب العالمية الاولى برئاسة الدكتور (روبرت كولدوى R. Koldewey) وكشفت عن جوانب البرج المدرج (الزقورة) ومعبد (اى - زيدا) المكرس لعبادة الاله (نابو) . وقد وصفها عدد من البلدانيين المسلمين . (س١٠)

فاحسست حينئــــذ احساسا مؤلماً بتبخر احلامي وانقشاع السحر الذي ملأ خيالي » وهنا يبدو مواطننا صارما مغالياً ذلك لان زقورة (بورسيبا) ما تبرح حتى الان تفيض جمالا وجلالا رائعين وهي غارقة في خرائبها وانقاضها .

وبعد مسيرة ساعتين وصل آنئذ الى ديار بابل حيث قام الاثارى الفرنسي فرنيل Fresnel (٥) قبل عشر سنوات من ذلك التاريخ بتنقيباته وتحقيقاته رغم انها لسوء الحظ كانت مجرد اخفاقات . فان هذه المدينة قد اثرت في نفسه تأثيراً عظيماً فاوحت له باعتبارات رومانتيكية عن عدم ديمومة الانشاءات البشرية . فكتب يقول :

« لاشيء يدانى خرائب بابل يا سيادة الوزير . . ان هــذه الخرائب هي جبال قد قلبتهـا الهزات الارضية رأسـاً على عقب ، فهي فوضى وعماء حقيقيان ، وهنا تتجلى في اكمل صورة من صور التشوش والاضطراب قدرة الله : ان نبوءة اشعيا (٦) قد تحققت » . وهو يذهب فيجلس بخشوع اسفل شجرة سدر هي لدى القبائل المجاورة ، موضـوع خرافات واعتقادات فاسدة » . ويظل عالمنا الآثارى يتفلسف فيقول :

« ان هذه السدرة العتيقة ما تزال تعرض على الانظار اوراقها التي عاشت بها القرون ، وان اغصانها لتحمل أنقاضاً من العيدان يبعث منظرها على القرف وهي غير بعيدة من اسس بعض الحيطان التي تؤكد متانة البناء القائم على عاتقها ، كما انها غير نائية عن بعض حطام الانصاب التى هي الآن ،

---

(٥) فرنيل (فولجانس) Fresmel (Fulgence) ١٧٩٥–١٨٥٥ دبلوماسي فرنسي كان قنصلا لفرنسا ببغداد ، وتولى التنقيب ببابل عــام ١٨٥٢ ، ولكنه لم يوفق في العثور على آثار مهمة . وقد قضى الشطر الاخير من حياته في فاقة وتعاسة . (س٠أ)

(٦) نبوءة أشعيا ، وردت في التوراة في سفر أشعيا ، وهى تخص عودة اليهــود الى اورشليم ، وقد تحققت النبوءة في رأيهم ، وذلك بخلاصهم من الاسر على يد كورش الفارسى الذي قضى على دولة بابل الجديدة ٥٣٧ ق٠م . (س٠أ)

يا سيادة الوزير ، الآثار الوحيدة والبقايا الفريدة لعاصمة سميراميس والاسكندر الاكبر المقدوني . وهذه الشجرة واقعة في نفس المكان الذي يعتبره المؤلفون موضع الجنائن المعلقة . فيا لها من مقايسة ويا له ، يا سيادة الوزير ، من موضوع عميق من مواضيع التأمل يبعثان على التفكير ويشهدان شهادتين عن قابلية الاعمال البشرية للعطب وعن عظمة الاعمال الالهية . فقد غدت حضارة بابل اثراً بعد عين بأجمعها : وما نكاد نرى إلا بعض قطع الاجر التي تعين حتى يومنا هذا مواضع معابدها ومواطن قصورها . وحتى هذه الشجرة المهجورة القائمة على اعلى مخروط ترابي لم تفلت من يد التدمير لبنى الانسان الا بفضل العقيدة الدينية التي خلعها الاهالى على هذه الدوحة » .

ويكتشف رحالنا في ديار بابل خرائب لعلها خرائب كيش وسيبار والتي يسميها باسم (سيدى ابراهيم) و (ابو حبة) . ويكتب ان « الموضع الاخير محوط بسور مشيد بالاجر ويعلو جانبيه برجان يتبينهما الرائي بسهولة حتى الان بفضل بقاء الانقاض الرائعة منهما : وهناك مواضع لها جدار ارتفاعه اربعة امتار » . (٧)

وهذا الاتصال بالآثار العتيقة هفا بفؤاد قنصلنا الى ان يكون آثاريا وغمره الفرح خلال رحلته بان استطاع اكتشاف موضع يرجع تاريخه الى العهد الاغريقي كما يبدو ، وهو يضم خمسة قبور واثاثا ومنقولات كاملة . أو يجد في احد هذه القبور تمثالا صغيراً لالآهة عارية فيفضى بخبر هذه اللقطة الى رئيسه . ويضيف بلباقة وكياسة وتغزل : « ان عدم وجود الحلي

---

(٧) كيش (وتسمى اطلالها اليوم بالاحيمر) ، مدينة سومرية حكمت فيها السلالات الاربع الاولى السومرية ، وتقع الى الشمال الشرقى من مدينة بابل • نقب فيها العالم الفرنسى (جينوياك) عام ١٩١٢ ، واستأنفت التنقيب فيها بعثة مشتركة امريكية ـ انكليزية خلال السنوات ١٩٢٣ـ١٩٣٣ • (س١٠)

بالمرة لدى فينوس هـذه العارية كل العارية ، ذات القسمـات الرائعة وربة العينين والبشرة العقيقية وصاحبه اقراط الاذن او القلادة الذهبية التي تزين عنقها ــ بكل ما تحمل من فتن وجواهر تجعلني استنتج ان هذا القبر هو قبر شابة ، قد قضت نحبها ولاريب قبل ان تقدم الى هذه الالآهة هــذه الزهرة التي لاتضيع الا مرة واحدة فقط » !

وهو يجمع بين الافادة والاستمتاع بالجمال فيعود من نزهتـه بعصافير يهديها الى حديقة الحيونات وبحمار وحشي يرسله الى باريس . ولكن الحمار المسكين يموت لدى وصوله الى حلب متأثراً بمتاعب السفر !

وإذا كانت النواحي المحيطة ببغـداد تعطى انطبـاعا حوالى عام ١٨٦٠ بالخصوبة فان الحالة لم تكن كذلك في بقية انحاء القطر لأن الجنوب لم يكن سوى مستنقع واسـع يصلح لأن يكون مأوى وملجأ للخارجين على القانون وللقبائل المتمردة التي كانت قلما تمارس فيه زراعة الرز .

اما عن سهول الشمال ـــ وهي بطبيعة الحال تكون خصبة اذا اسقيت وأرويت فانها كانت مهجورة لا نصيب لها من الحرث ذلك لأن الفلاحين ـــ وقد طحنتهم الضرائب طحنا ، وتوالت عليهم الغزوات من قبل البـدو ، لم يكونوا ليزرعوا إلا ما كانوا في حاجة اليه لسد ارماقهم .

ومع ذلك فان القطر بدأ يعتريه التحول في نهاية القرن . فان السلطان عبد الحميد قد كون لنفسه في واقع الامر وعن طريق وسائل مشروعة او غير مشروعة املاكا عظيمة خاصة به فرض عليها تنفيذ اعمال الري لاستصلاحها . وكانت نفقات هذه الاعمال تدفع غالباً من قبل الفلاحين المجاورين . وعلى هذا المنوال كان اكبر قسم من دخول الاقليم يذهب لتضخيم خزينته الخاصة .

وكانت نسبة سكان المدن تبدو على اقل ما تكون عليه نسبة سكان المدن .

ولم اقع على اي أثر لوصف أية شية من شيات بغداد في هـــذه الحقبة . وبوسعنـا حتى في هـذه السنين المتأخرة أن نرسم لانفسنا فكرة عما كانت عليه المدينة منذ مائة عام : فهي مدينة محصورة بين اسوار متهدمة او متداعية تقع على الجانب الايسر من نهر دجلة وتتخللها أزقة ضيقة لا يستطيع عابر سبيل ان يجتازها الا راكباً حصانا أو ممتطيا حماراً . ويحدثنـا التاريخ ان الشارع التجاري الذي يخترق المدينة القديمة كان قد شق بقنابل المدافع عام ١٩١٥ من قبل الجنرال التركي الذي كان قائداً للجيوش المرسلة لمقاتلة الانكليز والذي لم يجد الا هذه الطريقة لامرار مدفعيته ومركباته ! ❊

فكم كان عدد سكان هذه المدينة ؟

إن عدد سكان بغداد يومذاك لم يكن ليزيد على كل حال عن (١٠٠٠٠٠) نسمة . لقد وجدت في كتاب عنوانه « رحلة من الاستانة الى البصرة في عام ١٧٨١ » لشخص يدعى (سيستيني) الوصف التالي لبغداد : وعساه ما يزال ينطبق عليها بعد قرن كامل من الزمن وهو :

« ان المدينة تقع على الجانب الشرقي من نهر دجلة وتمتـد طولاً الى ميل ونصف الميل ولعل عدد ابراجها يبلغ الخمسة آلاف برج . ويحيط بها من جهة اليابسة ســـور مشيد بالاجر المفخور . اما من جهة النهر فهناك سراى الباشا وجدران المنازل كسياج له . . والمنازل منعزلة عن بعضها ولها ابواب مربعة منخفضة الى درجة انحناء الانسـان حين الدخول اليهـا . اما ابواب دور الاغنياء فواسعة . ويؤدى الباب الصغير الى ابواب اكبر والى فناء مربع فيه حديقة صغيرة تتحلق حولهـا الشـقق المطلية بالجص او العارية :

❊ يقصد الجنرال خليل باشا الذي استخدم الاسرى من القوات الانكليزية في شق الشارع الذي أطلق عليه اسمه « خليل باشا جادەسي » وبعد قيام الحكم الاهلــي في العراق أبدل ب « شارع الرشيد » (س١٠أ)

وفوقها سطوح معدة لنوم اصحابها من شهر تموز الى شهر تشرين الاول واما السراديب التي تتخذ مأوى في أيام الصيف اللاهبة فهى مقببة .

وبناية السرداب برمتها مشادة بالاجر السيء الشي ولايطلى ظاهرها بطلاء . وفي اوساط هذه القاعات التحتانية فتحات لمرور الهواء تنتهي الى سطح الدار (بادگير) وهي بمثابة مراوح للتهوية لجلب النسمات المنعشة » ...

« والمدينة ليست جميلة ، وشوارعها ضيقة مغبرة موحلة . اما السوق فتجد فيه بعض معالم النظافة . وهو واسع ويؤلف بنفسه مدينة قائمة بذاتها ، وتباع فيه البضائع على اختلاف أنواعها . أما الجوامع والخانات والحمامات فليست قليلة العدد في بغداد .

والحمامات بصورة خاصة تطلى ارضها بطلاء من الزفت بدلاً من رصفها وقد نزلنا منزل سوءفي خاننا فان الذباب والبعوض كانا متوفرين فيه . وليس من العبث ان نجد عقرباً ضخمة منقوشة على جميع اوسمة (قوماجين Comagène) الواقعة شمال شرقى سوريا .

« ومنذ طاعون عام ١٧٧٣ لم يبق في قيد الحياة اكثر من (٢٥٠٠٠) من السكان في بغداد فقد قتل هـذا الوباء ثلثي السكان وما تزال بعض الاحياء مقفرة حتى يومنا هذا ، وقد مات اسقف ديار بابل ضمن من مات في هذا الطاعون ودفن في الكنيسة دون ان توضع على راسه قبرية اما خلفه فلم يغادر باريس بعد . وقد نصحته بالتريث والبقاء في مكانه .

« ويرتدي الاغنياء من سكان بغداد الاقمشة البديعة الواردة من الهند ولكن عامة الشعب يعلوها الرث من الثياب القذرة والأسمال البالية . ولكل من افرادها حزام جلدي يمسك بهذه الحزمة اللاصقة على اطرافه . وتعلق النساء حلقات في عرانينهن (خزامات) وترتسم على سواعدهن الوشوم

المختلفة . ويعشن في عزلة تامة عن الرجال . وحتى في منازلهن لا يسمحن للاوروبيين برؤيتهن : فان المواجهة هي امتياز من امتيازات اللحية فقط . وان اخلاق هاته النسـوة ليست بمشابهة لاخلاق البابليات اللواتي حدثنـا عنهن (كانت كور) احاديث لطيفة .

« وعلى الضفة الاخرى من نهر دجلة ضاحية كبيرة تعج بالبساتين وبغياض اشجار النخيل : ولكن كل شيء هنا قاحل ولا يكاد يبهج النظر »

وعلى العكس من ذلك فانني أعلم ان الموصل في عام ١٨٧٩ كانت تعد (٤٠٠٠٠) من السكان وتؤلف مركزاً ثقافياً بالغ الحيوية . وكان قنصلنا في تلك الفترة يضعها من هذه الجهة فوق دمشق وبغداد وحلب ويقول : « بوسع القاهرة فقط ان تزعم مضاهاتها » . وإن المدينة التي كانت في القرن الثالث عشر تزهو بعدد جوامعها البالغ (٤٠٠٠) جامع وبحماماتها التي تعد ٢٠٠ حمام وبخاناتها التي يصل تعدادها الى (١٢٠) خان وبرقم مصانع حياكتها الدي يبلغ ٧٥٠٠٠ مصنع — ان هذه المدينة لم يعد لها من هذه الاشياء سوى ١٣٠ جامع و ٣٥ حمام و ٢٠ خان و ٣٥٠٠ مصنع حياكة فقط * ومع ذلك فهي آخذة بالنهوض من كبوتها شيئاً فشيئاً ابتداء من عام ١٨٨٠ . ففي عام ١٨٨٣ شرع بطبع جريدة اسبوعية فيهـا تصدر باللغتين التركية والعربية لم تكن لتحتوى تقريباً الا على الاخبار المحلية والاعلانات الرسمية .

ولم تكن المدن لتتمتع بالهدوء والطمأنينة اكثر مما تتمتع بهما الطرق والانهار . فقد كانت السرقات والقتول دائمة الحدوث فيهـا . وكان الجناة بصورة عامة لا تطالهم يد العدالة . وفي اغلب الاحيان كان معتمدونا يشكون من ذلك شكوى مريرة فقد كتب مثلاً قنصلنا في بغـداد عام ١٨٩٠ مسيو

---

* الاحصاءات التى ذكرها مبالغ فيها خاصة عدد الجوامع (س١٠)

(بونيون) يقول :

« إن طاعوناً من السرقات والاغتيالات قد تفشى هنا منذ شهرين . وفي كل ليلة تقريباً يسطو اللصوص على بعض المنازل ويجردونها من متاعها . وفي كل ليلة تقريباً تغتال قطعان من الشقاة بعض الافراد .

وقبل فترة قصيرة اجتاحت شرذمة مؤلفة من نحو عشرة لصوص بيت الطبيب الهنغاري في رابعة النهار في حين أن المنزل يقع في أكبر حي من أحياء المدينة التي تعج بالسكان . وقد ازدرى اللصوص بالأمتعة الرخيصة الثمن واستحوذوا على مجموعة من النقود الساسانية والكوفية التي تقدر قيمتها بعشرين ألفاً من الفرنكات وبالرغم من أن السراق معروفون وأن بعضهم قد أعتقلوا وقد اعترفوا وقد أعادوا بعض النقود فان السلطة القضائية تقف موقفاً يطعن القضاء والعدالة في صميمها الى درجة لا تكاد تصدق [٨] .

وأعقبت تلك الحوادث سنة واحدة تفاقم الوضع خلالها واستطار شره فكتب قنصلنا يقول :

« إن التسيب في بغداد قد بلغ الأوج . فالسرقات متصلة وأعتقد أن مائتي حادثة قتل على الأقل قد وقعت منذ ثمانية أشهر في المدينة . ولم يصدر أي حكم جدي في أي من هذه الجرائم . فان الحكام يبيعون أحكام تخليص المجرمين للمجرمين . ويذكر الناس هنا أسماء قتلة ارتكبوا جرائم القتل في رابعة النهار ولكن أطلق سراحهم بحجة عدم وجود شهود . ولا أستطيع أن أرسم لمعاليكم صورة عما وصلت اليه الحالة في هذا الاقليم منذ أن اصبح يدار من قبل الوالي الحالي . ان هذا الشخص المرتشى يبيع كل شيء لقاء المال الى درجة لا يمكن تصورها . وان الناس هنا ابتداء من الوالى وانتهاء بآخر

---

(٨) الرسالة المؤرخة في ٦ تشرين الثاني ١٨٩٠ .

فرد من أفراد الجندرمة يسرقون وينهبون وان الفوضى خير من النظام الذي نعيش في ظله » . (٩)

والحقيقة أن الوالي كان له من المشاغل التي تهمه أكثر مما يهمه السهر بنفسه على حفظ النظام في مركز اقليمه . فقد كتب القنصل يقول : « ان الوالي متغيب منذ أكثر من شهر . فقد ذهب يتحنث ويقنت ويتهجد في كربلاء و في النجف . وقد جمع علماء الدين السنة والشيعة ليناظرهم على ملأ الأشهاد . وانني لا أعتقد أنه سينجح في إحلال المصالحة بينهما . فقد فشل في هذه المحاولة من هم أقوى منه في القرون الوسطى . وان هذه المناقشات اللاهوتية على أي درجة من البراعة كانت يحتمل أن لا تكون عقباها إلاجعل هؤلاء الأخوة المتعادين بعضهم أبغض الى بعض عما كانوا عليه قبل هذه المحاولة . وأياً كانت الحالة ففي حين ينغمس الوالي في المسائل اللاهوتية في كربلاء لا يشغل أحد نفسه في العمل لصالح بغداد . فكل إنسان في بغداد في ألم وعذاب والعدالة قد ضعف ناصرها وندر من يمارسها وتكاد تكون مفقودة أكثر من أي وقت مضى . (١٠)

وكانت الاقامة في بغداد كذلك تزداد صعوبة ومشقة من جراء المناخ وانتشار الأوبئة .

وبوسعي اليوم أن أؤدي شهادتي في الموضوع . فان مناخ العراق قاس ولكنه صحي . فخلال ثلاثة أشهر إعتباراً من حزيران حتى الخامس عشر من أيلول يتأرجح الترمومتر بين الأربعين والخمسين درجة مئوية . ومن النادر أن تهبط الحرارة في الليل الى ما تحت الدرجة الخامسة والثلاثين .

---

(٩) الرسالة المؤرخة في ٢٣ اذار ١٨٩١

(١٠) الرسالة المؤرخة في ٢٠ مايس ١٨٥٣

واذا أضفنا الى هذه الحرارة — وهي كحرارة الأفران — العواصف الرملية ، وكان حدوثها في الماضي أكثر من حدوثها في أيامنا هذه من جراء قلة مساحة الأراضي التي يشملها الري أمكننا أن ندرك لماذا كان وكلاؤنا الذين لم يكن تحت تصرفهم ما تحت تصرفنا من ثلاجات وأجهزة مكيفات الهواء التي بوسعنا أن نستعملها في هذه الآونة يشكون في معظم الأحوال من المناخ . لا شك أن المنازل القديمة التي كانوا يقطنونها كانت تقيهم خيراً مما تقينا بيوتنا العصرية من شدة الحرارة : إذ كان للقدماء الجدران السميكة والشرفات المستورة المتجهة الى الشمال ، والأروقة المظللة المزدانة بفسقيات المياه والحجر المعقودة تحت الأرض لأجل القيلولة . ومع ذلك فان الاقامة الطويلة في أمثال هذا المناخ منهكة كل الانهاك للانسان الأوروبي .

ويجب ألا ننسى كذلك ان قناصلنا لم يكونوا يستطيعون المكوث طوال النهار محبوسين في محل اقامتهم الذي كان يتحتم عليهم أن يخرجوا منه وأن يستقبلوا الناس فيه لا سيما اذا وقع الاحتفال بالملك لويس فيليب في شهر مايس واذا صادف عيد نابليون في الخامس عشر من شهر آب . ففي هذا اليوم كان يتحتم على معتمدينا أن يرتدوا ملابسهم الرسمية ويمضوا الى الكنيسة حيث كانت تقام صلاة دينية ثم يتوجب عليهم بعد ذلك أن يستقبلوا الناس في بيوتهم في حمارة الظهيرة وهي زيارة أعيان البلد .

وسأعود في فصل آخر الى موضوع هذا الاحتفال السنوي ولكنني أود منذ الآن أن أشير الى الصعوبات المؤلمة التي كانت ترافق هذه الاحتفالات في الصيف اللاهب : ففي عام ١٨٥٣ مثلاً رأى نائب قنصلنا مسيو تافرنييه ضرورة أن ينقل الى علم الوزارة بسالة « رئيس الأساقفة السوري المحترم الذي — وهو قد أناف على السبعين عاماً — قام من تلقاء نفسه باجراء

الطقوس الدينية بالثياب الكهنوتية في وقت بلغت درجة حرارته السادسة والأربعين في الظل » . ويضيف الى ذلك قائلاً : « وكان غرضي إتمام هذا النهار بالاجتماع في مأدبة تجمع كل أعيان القطر . ولما كانت الحرارة الساحقة عائقاً حقيقياً في سبيل تحقيق هذه الرغبة تراءى لي أنني لن أستطيع القيام بهذا الاحتفال بصورة أفضل من انفاق مبالغ الوليمة على الكنائس وعلى الطبقات الفقيرة . فأنفقتها على هذه الجهات . (١١)

وقد عرف قناصل الجمهورية الثالثة نفس الهموم عندما يقع عيدنا الوطني في الرابع عشر من تموز .

فقد أبرق أحدهم الى سفيرنا يشكو من الوقاحة التي قابله بها والي بغداد . فقد دعي هذا الشخص الى الحضور بملابسه الرسمية في وقت الظهيرة الى دار القنصلية احتفالاً بهذه المناسبة . فكان جواب الوالي أنه قد تصبب من جسمه كفاية من العرق وهو في قميصه الرقيق . وأنه لا يأنس في نفسه الشجاعة الكافية لارتداء ملابسه الرسمية وأنه سيوفد أحد مرافقيه ليمثله وينوب منابه في حفلة الاستقبال هذه . فذهل قنصلنا وصدمته هذه الاجابة واقترح على السفارة التي وافقت على اقتراحه — هذا الحل : وهو أن يقبل عرض الوالي . ولما كان عيد جلوس السلطان سيحل بعد أيام معدودات فانه سيعلن بدوره اعتلال صحته فيرسل ترجمانه . ولكن أحد خلفاء هذا القنصل ستكون له حكمة جعل ساعة حفلات استقباله تقع في نهاية الأمسية وهو مثال سيحتذى فيما بعد .

وبديهي أن هذه الحوادث ليست سوى بعض خفائف مزعجات المهنة التي لم تؤد أبداً الى موت أحد . والأخطر من ذلك كانت الحالة الصحية

---

(١١) الرسالة المؤرخة في ١٤ تشرين الاول ١٨٤٦

في تلك الحقبة . ونحن اليوم بفضل تقدم طرق الوقاية الصحية وانتشار العلم الطبي والاستعمال الجماعي لا (دي . دي . تي) ولعقاقير أخرى ضد المكروبات استطعنا أن نشهد في الواقع إنطماس آثار الطواعين الوافدة الى العراق .
ولم تكن الحالة على هذه الشاكلة منذ مائة عام فحمى المستنقعات وهي الملاريا كانت تسود جنوب العراق في حالتها الطاعونية وذلك لوجود المستنقعات والفيضانات بكثرة في تلك الآونة . وكان وكلاؤنا يشيرون اليها في أحايين كثيرة.

فقد كتب قنصلنا العام في بغداد مثلاً في عام ١٨٥٣ يقول : « ان الحمى السنوية في البصرة قد أحدثت وفيات كثيرة . وان الأبخرة العفنة التي تتصاعد من المستنقعات الشاسعة التي نجمت عقب فيضانات النهر والتي لم تستطع السدود المنهارة أن تعوق زحفها قد قضت على طائفة كبيرة من السكان . وكل ذلك لأن الولاة الأتراك لم يلتفتوا الى ترميم السدود التي تخربت منذ بضع سنوات ، نظراً لاستهتارهم وانهماكهم في سرقاتهم وملذاتهم . ولعلنا نستطيع أن نرى بعين التصور والتخيل ميناء البصرة ومدينة البصرة وقد تناولتهما يد الخراب بعد فترة غير طويلة . هذا الميناء وهذه المدينة وكلها منافع وخيرات لا أستبعد أن نراهما في قابل الأيام القريبة وقد أصبحا قفراً يباباً . وكانا خير منتفع من تجارة الهند » .

وفي العام التالي جاء دور بغداد نفسها لتتجرع طعم الكارثة . فكتب قنصلنا العام يقول : « في هذه الآونة ذاتها اجتاحت بغداد حمى وبيلة سببتها فيضانات الفرات . فصالت وجالت وعاثت في هذه المدينة وأصبت أنا نفسي بها : وهذا البلاء ناجم من استهتار الولاة الذي لا علاج له ولاهمالهم المزمن :

فماذا كانت اجراءاتهم ؟

صيانة للمظاهر الشكلية وافقوا على اجراء العمليات العقيمة لصد هذا الوباء وذلك ليضربوا عصفورين بحجر ويغنموا مغنمين . المغنم الأول هو فرض ضرائب جديدة على السكان . والمغنم الثاني هو مطالبة الباب العالي بنفقات هائلة يزعمون أنها صرفت على هذه العمليات زوراً وبهتاناً » .

والأفظع من هذه الأوبئة هو وباء الكوليرا (الهيضة) . ففي عام ١٨٤٦ اكتسح بغداد وأهلك فريقاً من سكانها . وقد وصف هذه الكارثة البارون (فيمار) قنصلنا العام في بغداد الذي أصيب هو نفسه بهذا المرض فكتب يقول : « لم أستطع نيل شرف توجيه تقرير الى معاليكم عن طريق البريد الأخير . هذا التقرير الذي يتوجب علي أن أرسله الى مقامكم مع كل بريد راحل . فقد وقعت طريح الكوليرا قبل يومين من رحيل البريد . إذ هاجمتني هذه الكوليرا مهاجمة عنيفة لا أكاد حتى الآن أصحو من هول كابوسها بعد أن عرضت حياتي الى الخطر مدى بضعة أيام . وانني مدين بانقاذ حياتي الى مهارة وعلاجات الدكتور (فورستي) طبيب كلية (بولون) الذي كان ماراً ببغداد في هذه الأيام . . وقد بدأت الكوليرا بالتفشي والانتشار بين الأهالي الجهلاء بصورة مرعبة اعتباراً من أول يوم من أيام رمضان . فارتاعوا منها كل الارتياع نظراً لأنهم محرومون ممن يرشدهم ارشادات صحية .

وما ان شرع المرض بالظهور حتى غادر قنصل انكلترا بغداد والتجأ الى طاق كسرى الذي يبعد عنها مسيرة ست ساعات وقد اصطحب معه طبيب قنصليته وهو الطبيب النظامي الوحيد الذي استطاع أن يقدم للمرضى بعض المساعدات . وقد فرض على نفسه وعلى مرؤوسيه ومواطنيه الحجر الصحي الأربعيني ورفض رفضاً قاطعاً الاتصال بالمدينة : وما يزال هذا

الاعتزال نافذ المفعول حتى الآن . ولم يساهم هذا الابتعاد في اقلاق البلدة .

وما ان علم السكان برحيل الانكليز هذا حتى هربت طائفة اليهود بأجمعها تقريباً وتبعتها جماعة من النصارى . وحذا حذوها عدد كبير من الأعراب ففروا جميعاً من هذا الطاعون متجهين الى مختلف الاتجاهات وذلك حين اقتنعوا بطابع هذا المرض المعدي . ومن جهة أخرى كان هناك عدد كبير من الناس لا نعرف مذاهبهم رأوا هجرة سكان بغداد هذه وأملوا أن الجائحة ستتناول بالتدمير أكبر عدد ممكن من الأفراد الباقين في المدينة فجاسوا خلال البلدة وحرضوا السكان على الانضمام اليهم للقيام بعمليات النهب والسلب هذه تمهيداً لاشعال نيران ثورة . في هذه الظروف رأيت من المناقض كل المناقضة لواجباتي أن أحذو القنصل البريطاني في أن أغير شيئاً من مجرى الأمور اليومي في القنصلية العامة .

فبقى أبناء جلدتي من الفرنسيين وكذلك الأجانب المشمولين بالحماية الفرنسية معي داخل المدينة .. وبعد أقل من خمسة عشر يوماً تبين أن الكوليرا قد حصدت أرواح ٤٣١٨ نسمة من السكان من مختلف الأعمار من السكان الذين قد تناقص عددهم حتى وصل الى أقل من ٣٥٠٠٠ نسمة وذلك من جراء الهجرات نتيجة للفزع العام . أما الأوربيون فلم يخسروا إلا ضحية واحدة ألا وهي الأب المحترم (الفونس) معاون مدير الارسالية التبشيرية اللاتينية ..

ومنذ بضعة أيام وقعت اصابات متفرقة بهذا المرض هنا وهناك وأخذ الوباء هذا الشكل المتشتت . كما كانت حالته في البداية ولكنه أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً ويتراجع منحسراً عن المدينة » .

أما الوزير فقد أنحى في جوابه باللائمة على موقف الممثل البريطاني

كما هو المتوقع واستحسن قرار قنصلنا ببقائه في مقر وظيفته وهنأه (بالشفاء الميمون) من مرضه . (١٢)

وفي العام التالي ظهرت طلائع الوباء من جديد . ظهر الطاعون بادىء الأمر في البصرة ، حيث ذهب ضحيته نائب قنصلنا مسيو (م . ريمون) ثم مضى صعداً في مجرى دجلة فوصل الى بغداد حيث أصيب به مجدداً قنصلنا فيها . فكتب يقول : « لقد انتشر الوباء على طول دجلة (في الضفة الغربية) وتفشى في المستنقعات فبلغ الحلة وهي لا تبعد كثيراً عن بغداد حيث بلغ عدد الضحايا منذ خمسة عشر يوماً معدل ثماني أو عشر أنفس لكل يوم . وقد هلك من اثنى عشر الى خمسة عشر شخصاً في اليوم فى احدى الضواحي التي يبلغ تعداد سكانها ٤٠٠٠ نسمة وهي على مقربة من البصرة .

وفي بغداد بالذات وقعت بعض الوفيات : وان السكان هنا وهم يتذكرون ان هذا الوباء انتشر في السنة المنصرمة في اعياد شهر رمضان — وهي قريبة — قد انتابهم قلق عظيم . وبالرغم من تحذيرات الدكتور (دروز) الطبيب الفرنسي القائم بخدمة الحكومة العثمانية فان الحكومة المحلية لم تتخذ اى اجراء لمكافحة المرض . وان الاعتماد الذي طلبه منذ شهر لتهيئة بعض الادوية لم يوفر له حتى الان » . وعقب ذلك بايام معدودات اضاف مواطننا يقول : « ان الكوليرا الخبيثة دائمة النشاط في قتل ضحاياها حتى في بغداد ذاتها . وقد اكتفت منذ خمسة عشر يوما بمعدل وسط . فهي تقتل خمس عشرة نسمة كل يوم . وعدد المصابين يكون مضاعفا على وجه التقريب . وقد اصبت انا نفسي من جديد بهذا المرض ولكن بخطورة اقل من خطورة

(١٢) الرسالة المؤرخة في ١٤ تشرين الاول ١٨٤٦ .

السنة الماضية . وسانتقل بكل ما وسعني من سرعة وامكانية الى بستان يقع عند باب المدينة على مسافة قريبة من الوالي الذي اتخذ محلاً لاقامة بيته الصيفي » (١٣) .

ولكن الحميات والهيضة لم تكن الامراض الوحيدة التي يمكن ان يقع الانسان فريسة لها في هذه المناطق . فهناك وباء آخر يعرفه جيداً اولئك الذين قدر لهم ان يقيموا في الشرق الاوسط . وهو ولاريب اقل خطورة . ولكنه مع ذلك كريه مقيت للغاية . ذلك لانه يحمل خطر تشويهك : واعني به ما يسمونه (حبة حلب او حبة بغداد) « الاخت » .. وتسمى كذلك في القواميس الطبية : — حبة الشرق . حبة بسكرة . حبة النيل . حبة قفصة . حبة السنة . حبة الزيبان . حبة البلاد الحارة . قرحة الصحراء ، داء اللايشمانيات الجلدى . مسمار بسكرة » .

وقد عرف نائب قنصلنا في بغداد هذه البلية عام ١٨٦٣ ، وها هو يقص علينا قصتها بصورة مطولة دون ان يعفينا من ابسط التفاصيل بالغة ما بلغت هذه التفصيلات من القباحة . والاحسن ان نصغى اليه يقول :

« منذ عودتى من طوافي بديار بابل رزئت بانبثاق حبة بغداد . فقد كان من سوء حظي ان اصاب بخمس وثلاثين حبة في كل انحاء جسمي ، ويقول اطباء هذه البلدة ، يا سيادة الوزير ، انهم لم يشهدوا طوال اعمارهم طفحا بهذه الكثرة . وقد انتشر بصورة خاصة وبكثرة على المفاصل الكبيرة . لاسيما على الساعد الايسر بحيث يخشى طبيبي ان يظل متشنجاً . وهذه القروح التي ينساب من اوساطها وبدون انقطاع قيح اصفر نتن حاد تثير لدي حكات حادة متصلة اعاني من جرائها اوجاعاً هائلة ، والانكى من

---

(١٣) الرسالة المؤرخة في ٢١ تموز ١٨٤٧ .

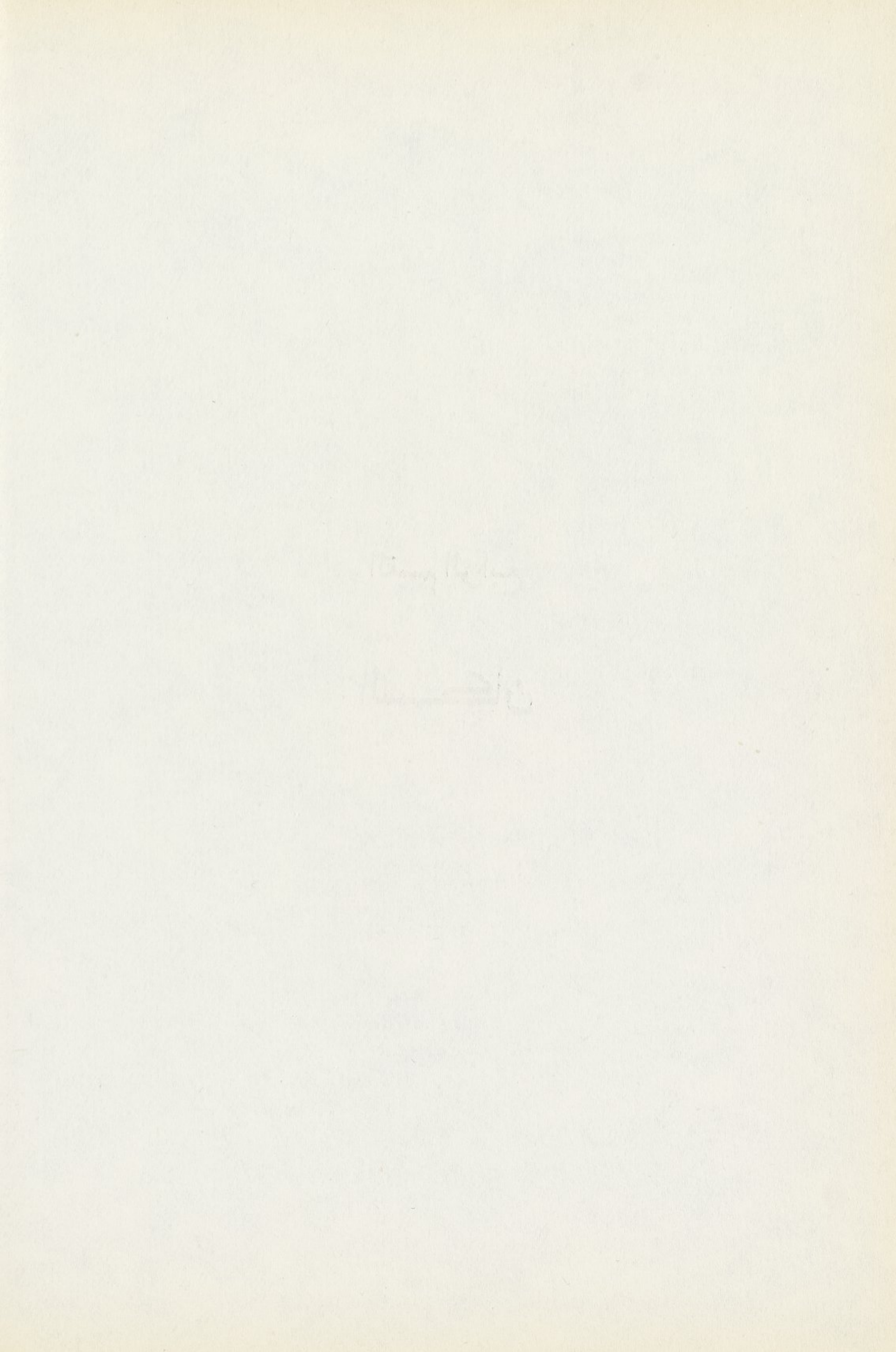
ذلك ، يا سيادة الوزير ، انني منذ ملازمتي للفراش قبل خمسين يوما لم اغمض جفني خلالها اكثر من ستين ساعة . وهذه الليالي المؤرقة تكاد تقتلني . وها انني قد انهارت قواى . ولا يوجد اي دواء لهذا المرض . وان جروحي التي سعة اصغرها كسعة نصف راحة اليد تتيبس اعتياديا بعد ثلاثة او اربعة اشهر فتصبح بشكل قشرة فظيعة تدوم هي نفسها ثلاثة اشهر قبل ان تسقط . وقد اكد لي مختلف الاطباء الذين استشرتهم بان مرضي يشارف على نهايته ، وان هذه الخراجات ستجف بعد فترة قصيرة من تلقاء نفسها . وهو كل ما اشتهيه ، يا سيادة الوزير بغية التخلص بسرعة من حالتى التعيسة التي اتخبط في اهوالها ذلك لان آلامي هائلة » .

ويبل مريضنا من مرضه . ولكن بعد بضعة اشهر تكلفه رغبته في حضور احتفالات عيد نابليون متاعب جديدة تقوده الى طلب اجازة ، فيكتب قائلا : « لقد اصبت في الايام الاولى من شهر آب بحمى متقطعة هيأتني لان اكون فريسة لهجماتها الاوجاع العظيمة التي عانيتها في بداية السنة . وأيا كانت الحالة ، يا سيادة الوزير فانني في الخامس عشر من آب اردت ان اواجهها بعزم وثبات . فذهبت الى الكنيسة الخورانية حيث حضرت كما هو المعتاد (مرتديا ملابسي الرسمية) الطقوس الدينية وتسبيحة الشكر لله التي جرى ترتيلها بمناسبة عيد جلالة الامبراطور . وفي تلك الاصبوحة استقبلت زيارة الحاكم العام والهيئة القنصلية والهيئة الكهنوتية وكل السلطات المدنية والعسكرية في المدينة وذلك بالتتالى . وبعد انتهاء حفلة الاستقبال هذه التي دامت اربع ساعات حسوما في درجة حرارة مئوية تبلغ الثانية والخمسين في الظل وفي الشمال — كذا — اضطررت الى ملازمة الفراش تحت وطأة حمى لاهبة زادها بلية على بلية الالتهاب الذي اصيبت به كبدى » .

ويبدو ان الوزير قد اوجعته هذه الحالة التي اصبح عليها هذا المسكين . لان قنصلنا لم يعد يظهر في بغداد . فنؤمل له ان يكون قد استطاع الحصول على صحة جيدة تحت طقوس ارحم به واشفق عليه . ونسجل هنا بمداد الاعجاب شجاعة هؤلاء الرجال الذين خاطروا بارواحهم بل ضحوها في بعض الاحيان خدمة لاوطانهم في ظروف محفوفة بالمتاعب والمخاطر .

القسم الرابع

السكان



لقد ارتفع عدد السكان في العراق في القرن التاسع عشر الى نحو مليونين من الأنفس . وقد حاول معتمدونا في بعض الأحيان أن يحصوا السكان عن طريق احصاء عدد افراد كل قبيلة ، ولكنهم لم يوفقوا إلا الى احصاء عدد الخيم . او بالاحرى لم يتوصلوا إلا الى احصاء عدد الرجال القادرين على حمل السلاح .

وهذا العدد قد قدر تقديراً اعتباطيا بعيداً كل البعد عن الحقيقة والواقع . وكان الاعراب يقاومون كل احصاء ويتمردون عليه . تارة خوفا من جامعي الضرائب . وطورا خشية من المكافين بتجنيدهم . وعلاوة على ذلك فان العادات الاسلامية تناهض وتحرم كل تدخل في شؤون الحريم .

واليكم بهذا الخصوص ما كتبه قنصلنا في الموصل « لقد سولت لاحد ولاة الموصل نفسه ان يضرب بهذه التقاليد عرض الحائط فيفرض على جميع السكان عملية احصاء النفوس وذلك في عام ١٨٩٢ . ولكنه ذاق طعم هذه التجربة الحمقاء وكان طعما مشبعاً بالمرارة . يقول القنصل : « حين اراد هذا الوالي تسجيل اسم كل انثى من السكان في سجل احصاء النفوس قامت عليه القيامة . . فان المسلمين في مدينة الموصل الذين يغارون على النساء غيرة منقطعة النظير قد تصل الى حد الشراسة قاوموا هذه العملية . فاقفلت الحوانيت وتوجهت منهم جموع كبيرة الى الثكنات حيث يقيم الوالى . فأسرع هذا الاخرق الى تهدئتهم وذلك بتنازله نهائياً عن الاجراء موضوع

الهياج .. ولم تدع السلطات المحلية هذا الظرف يمضي دون استغلاله والاستفادة منه بجعل الباب العالى في الاستانة ينزع ثقته من واليه في الموصل على امل التخلص من موظف متزمت صارم بغيض جعلهم يرتجفون ويخشون شره . وكان غرضهم من الابراق الى الباب العالى مخبرين بتفاصيل هذا الحادث هو ان يوسوسوا لهذا الباب الحساس فيحملونه على الاعتقاد بان ثورة عارمة قد طار شرارها في الموصل . ففعلت هذه الاكذوبة مفعولها لدى الباب العالى بحيث ان حكومته ابرقت الى هذا الوالى بان السلطان لايريد الدخول الى حرمه الامبراطوري قبل ان يطمئن كل الاطمئنان على حقيقة الوضع » .

وكان هؤلاء السكان — كما هم عليه اليوم — خليطا عجيباً من الاجناس . فبينهم اكثرية من العرب سواء اكانت من المتحضرين او من البداة . كما ان بينهم اقلية ذات شأن من الاكراد .

اما العرب المتحضرون فان القناصل قد تحدثوا عنهم قليلا . فهم يصفونهم بكونهم تعساء قد طحنتهم الضرائب . وتداهمهم بدون انقطاع غزوات جيرانهم سكان الفلوات الذين يعقدون معهم في بعض الاحايين مواثيق وعهوداً ليطمئنوا الى حمايتهم من قبلهم . فقد كتب مسيو سيوفي معتمدنا في الموصل يقول — مشيراً على سبيل المثال الى عام ١٨٧٩ يوم عقد حلف بين قبيلة بدوية وبين جيرانها المتحضرين : « ان قبيلة عنزة التي سكنت في كل الحقب صحراء سوريا هي في الاغلب الأعم قبيلة بدوية . وحين يريد ابناء هذه القبيلة القيام بغزوة في بلاد ما بين النهرين فان ابناء عشائر الدليم العراقية يكونون ادلاءهم ومرشديهم لدى عبورهم لنهر الفرات . وليس ذلك فحسب بل ان افراد هذه العشائر العراقية يقودون جموع عشائر عنزة الى الآثار

العديدة التي ترشد الى مواضع قطعان الماشية المبعثرة في السهول الواسعة لبلاد ما بين النهرين . فيقع عليها ابناء عنزة ويمعنون في سلبها ونهبها .

وقد جرت العادة ان يكافىء هؤلاء السلابون من فتيان عنزة ادلاءهم المخلصين مكافأة حسنة تساوق اخلاصهم وتفانيهم في خدمتهم وذلك باعطائهم حصة عينية مما يسرقون وينهبون . فاذا تعقب آثار العنزيين وطاردهم بعض الاعداء ، أو اذا خافوا من وجود تعقب ومطاردة فانهم احيانا يطيرون على خيولهم للالتحاق بقفارهم . ولكن عندما تكون الغنائم والاسلاب بالغة الاهمية بحيث تعوقهم عن عبور النهر ثانية واجراء عملية الانسحاب بالصورة التي يتطلبها الموقف فانهم يتركون جزءاً من هذه الغنائم والاسلاب بين ايدي تلك العشيرة العراقية المحالفة لتحتفظ بها لحليفتها السورية . (١)

ولكن قلما كان يقع الوفاق بين البدو والحضر ، كما هي الحالة في هذه الفترة . ففي معظم الاحيان كان الفلاحون الفقراء المساكين يعانون الاهوال من جيرانهم عفاريت الصحراء . لاسيما حين يلجأ هؤلاء الشياطين الى زعمهم المشهور وهو ما يسمونه « شريعة الدم » هذه الشريعة التي عرفها التعريف التالى قنصلنا في الموصل عام ١٨٥٢ ، اذ كتب يقول « يزعم البدو ان حقهم في الاستيلاء على اموال الاخرين حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وانهم في المعارك التي يشنونها على المعتدى عليهم اذا قاومهم هؤلاء المساكين فنجم عن هذه المقاومة وقوع قتيل او قتلى من بين صفوف المهاجمين فانهم يشهرون حينئذ ما يسمونه بـ (شريعة الدم) كسلاح جديد في وجوه خصومهم المعتدى عليهم والمدافعين عن انفسهم واموالهم . وعلى القافلة التي قاومت : وعلى القرية التي نافحت عن حماها . ان تتحملا نتيجة

---

(١) الرسالة المؤرخة في ١٠ آذار ١٨٧٩ .

هذه الخطيئة الكبرى ! . . ان على المقاومين ان يتدبروا امرهم منذ هـذه اللحظة وان يكونوا على حذر وعلى قدم الاستعداد وذلك لان محاولات للانتقام والثأر محتمل وقوعها في اية لحظة من لحظات الايام المقبلة » .

واستعانة بهذا العرف العجيب كان هؤلاء اللصوص من البدو يشلون كل مقاومة من جانب سكان القرى التعساء . هذه القرى الواقعة في السهول التي فضلت ان تخضع لمظالمهم على ان تخوض معهم معارك لا نهاية لها » .

واننا اذا كنا نعرف النزر اليسير عن حياة هؤلاء الفلاحين البائسين فاننا من الجهـة الاخرى نملك وصفاً تصويريا رائعاً عن اخلاق البدو . والفضل في ذلك يرجع الى نائب قنصلنا في الموصل مسيو سيوفي الذي قام في عام ١٨٨٩ برحلة خلال الصحراء اثر عودته مع زوجته من فرنسا وذلك بعد اجازة قضاها هناك .

وقد اتخذ طريقه عبر دمشق وتدمر وشرع يقص قصة رحلته على وزير الخارجية بكل ما تتضمنه القصة من تفاصيل كثيرة . فقد تناول بالوصف مثلاً تنقلات البدو فقال : « لقد صادفنا في طريقنا فريقاً من احدى العشائر آخذاً سبيله باتجاه الموصل سعياً وراء المراعي . وكان هؤلاء البدو يجرون معهم عدداً كبيراً من المواشي والقطعان التي تتقدمها أو تقفوها رعاتها وكانت النساء في حالة ركوب . فبعضهن قد امتطين غوارب الابل . وبعضهن قد علون ظهور الحمير . أما المطفلات من النساء فكن يحملن أطفالهن على سواعدهن وعلى ظهورهن أو على رقابهن وأكتافهن . وبعضهن مرتميات على الأحمال . وكان عدد كبير منهن يمشين على أقدامهن متابعات للركب وهن يحملن على سواعدهن الجديان أو الحملان المولودة حديثاً . هذه المواليد التي لم تكن في حالة من القوة تسمح لها بمتابعة أمهاتها .

أما الرجال فكانوا معتلين صهوات جيادهم ، وكان الجميع في فرح ومرح بالغين . وكان هذا الركب المتنقل يتألف من ٨٠ شخصاً .

. . كان مسافرونا في أغلب الأحيان ينزلون ضيوفاً على البدو . وهذه الحالة قد اتحفتنا بقصص شائقة رائعة ، سواء ما يخص السكنى أو ما يتعلق بالغذاء : واليكم مثلاً ما كتبه مسيو سيوفي واصفاً نزول القوم وتخييمهم . قال : « كان الأعراب منهمكين في نصب خيمنا . فرأينا تمضية للوقت وتخلصاً من مرارة الانتظار أن ندخل الى خيمة الشيخ فدخلناها وبادرنا مستقبلاً مرحباً أحسن استقبال وأجمل ترحيب .

واشتعلت النار في وسط الخيمة لأجل تهيئة القهوة . هذه الخيمة التي ملأها الدخان الى درجة أنها أكرهتنا اكراهاً على آن نغادرها أنا وزوجتي . أما الأعراب فلم يبرحوا جالسين في أمكنتهم بالنظر لتعودهم على هذه الحياة الداخنة . وبعد مضي ربع ساعة من الزمن نادى المنادي داعياً إيانا لاحتساء القهوة التي كانت آنئذ قد أنضجت . . كانت هناك أباريق قهوة (دلال) مصفوفة حول النار الموجودة في حفرة مستديرة تنخفض عن سطح أرض الخيمة . كانت المغلاة الكبرى التي تتسع للترين مخصصة للماء الساخن . أما المغلاة الثانية التي تتسع لنحو لتر واحد فكانت تستعمل لاعداد القهوة . وأما المغلاة الثالثة التي كانت أصغر حجماً فانها تتلقى الجزء الصافي من السائل الموجود في المغلاة الثانية وهو الذي يستعمل للشرب .

وكانت الخيمة منقسمة الى شقتين : الشقة الأولى حيث تجري فيها أعمال الضيافة وهي مخصصة للرجال . أما الشقة الثانية فمحتجزة للنساء . ولكل من هؤلاء الأناث عملها الخاص . فبعض النساء حاملات المعاول كن ينتزعن الأشواك التي يتخذن منها وقوداً . وبعضهن يطحن الحنطة أو الشعير

بمطاحن تدار بالأذرع (الرحي) . وهناك نسوة يخبزن الخبز . وهناك أخريات يقمن بالطبخ والنفخ . وهنالك غيرهن يعدن من بعيد وهن يحملن على ظهورهن قرباً مملوءة بالماء أو انهن يحلبن المواشي ويضعن ألبانها في أوعية كبيرة مصنوعة من الخشب أو من النحاس بغية استخراج الزبدة منها أصبوحة الغد .

وكانت هذه الأعمال الشاقة مفروضة على النساء في حين أن الرجال كانوا متخذين مجالسهم وهم يتناولون قهوتهم ويدخنون في غلايينهم » .

وبالرغم من مشاغلهن المرهقة فان هؤلاء النسوة أنفسهن قد شعرن بوجود امرأة أوروبية قربهن فانضممن الى بعضهن في جبهة واحدة ليوجهن اليها كل أنواع الأسئلة التي معظمها تطفلي لا يراعي التكتم الواجب ولا يرعى حرمة للشؤون النسائية التي تحرج المرأة . هذا اذا آمنا بما يقوله مسيو سيوفي في حديثه التالي : (بعد أن تناولت القهوة خرجت لمراقبة عملية اقامة مخيم لنا فرأيت زوجتي مسترسلة في حديث مع بضع نسوة بدويات كن قريبات من خيمتنا الكبيرة التي أقيمت هناك .

وقد لاحظت معالم الجذل والاغتباط على تلك الوجوه . وأشارت إلي زوجتي بأن أدنو منها . وبغية عدم بث الذعر في صفوف هذا الجمع النسائي درت دورة قصيرة فدخلت الى الخيمة من الجانب المقابل حيث أستطيع أن أسمع ما يقال دون ان يحس بوجودي أحد .

إن أعراب الصحراء وخصوصاً النساء هم على درجة من البساطة والتشوف والتطلع والفضول لا أستطيع تسميتها إلا بكونها صبيانية . لأن هؤلاء الأعراب رجالاً ونساء يوجهون أحياناً أسئلة تبعث على الدهشة من جهة ذكر ما لا يحسن ذكره وكشف ما لا يجب كشفه من الأشياء التي

ينبغي التكتم فيها . واليكم نماذج من بعض الأسئلة التي صافحت سمعي والتي وجهتها النسوة البدويات الى زوجتي : هل لك أخوة ؟ هل هم متزوجون ؟ هل يسكنون جميعاً في بيت واحد ؟ كم يبلغ صداق الفتاة لديكم ؟ (لدى هؤلاء النسوة كان يبلغ صداق البنت بصورة عامة ٣٠٠٠ فرنك) هل لك منافسات غريمات ؟ لماذا تزوجت رجلاً عجوزاً قد جلل الشيب رأسه ؟ . .

ولم يكن بطبيعة الحال هذا السؤال الأخير ليقع لدي موقعاً حسناً أو لأستقبله بالفرح وأنا زوج تلك المرأة التي يوجه اليها هذا السؤال : لماذا تزوجت رجلاً عجوزاً قد جلل الشيب رأسه ؟

ولكن الأسئلة بصورة عامة كانت مسلية لي ولزوجتي حيث كانت موضوع تندرنا في بقية تلك الأمسية حتى غلبنا سلطان الكرى .

وكان أشد ما ضايق زوجتي ونغص عليها حياتها في هـذه الربوع هو وجبات الأكل الثقيلة التي رزئت بها وهي ما هي عليه من صحة بالغة الركاكة . فقد دعيت وزوجتي الى مأدبة عشاء أقامها على شرفنا أحد رؤساء قرية مسيحية : « كانت المائدة عبارة عن لوحة كبيرة من الخشب مستديرة الشكل يبلغ ارتفاعها عشرين سنتيمتراً . ووضعت صينية نحاسية كبيرة ذات عرى وقد طفحت بالحنطة المجروشة (البرغل) الذي يعلوه قطع كثيرة من اللحم . ولضخامة الصينية كان يحملها رجلان . . ووضعت هـذه الصينية في منتصف المنضدة الخشبية . وطرحت أوعية أخرى وصحون مختلفة تحتوي على ألوان من الأطعمة . وهذه الأواني كلها أحاطت بالاناء الاكبر الأول احاطة السوار بالمعصم وهو الاناء الذي غرزت فيه ملاعق خشبية . .

وما كدنا نتحلق حول المائدة حتى جاء رجل يحمل قدراً مملوءة بالزبدة الذائبة (السمن) التي غرف منها بملعقة كبيرة (مغرفة) غرفة كبيرة أيضاً

ورش هذا المائع الدسم على البرغل . وهذا العمل الأخير وحده كان كافياً لأن يسد شهيتي وشهية زوجتي الى الطعام فشبعنا قبل أن نبلع حبة واحدة . ولكن ما العمل ؟

لقد تجنبنا كل التجنب المواضع الغارقة بافراط في ذوب الزبدة . ولكن اراقة السمن على هذه الصورة كانت بالنسبة لرب البيت وللآخرين مظهراً من مظاهر الكرم والأريحية بل مظاهرة لابداء الاهتمام بآداب الضيافة وتقاليدها .

كنا أحد عشر شخصاً حول المائدة . وكانت القاعة تضج بكثرة الناس الذين كانوا ينتظرون دورهم . وما أن فرغنا من تناول حصتنا من الطعام حتى حل محلنا آخرون إلى أن طعم القوم جميعهم . . وعلى وجه التأكيد كان هناك مائة شخص ساهموا في هذا الاحتفال الدسم . أما مضيفنا فلم يشأ أن يجالسنا على المائدة بل ظل واقفا على قدميه طوال الوقت ، ليقوم على خدمتنا ذلك لأن واجب رب الدار لدى العرب هو خدمة ضيوفه بنفسه .

أما العذاب تحت خيمة البدو فقد كان أدهى وأمر : « فقد جلب هؤلاء طستين نحاسيين يبلغ قطر كل واحد منهما سبعين سنتيمتراً وارتفاع كل منهما يصل الى عشرة سنتيمترات : فوضع الطست الأول أمامنا على الأرض ووضع الطست الثاني أمام المدعوين الآخرين . وكان هذان الوعاءان مملوءين بقطع من الخبز المشبعة الغارقة في المرق ، وقد علتها قطع كبيرة من لحم الضأن .

ولم تكن هناك ملاعق بالمرة . فجميع الحاضرين كانوا يستعملون أصابعهم بدل الملاعق إلا أنا وزوجتي حيث استعملنا ملاعقنا وأدواتنا الخاصة . وكان الشيخ قد صمم على أن يقوم بشرف خدمتنا بنفسه . فأخذ قطع اللحم

الكبيرة ومزقها بيديه أيضاً إرباً إرباً ووضعها أمام زوجتي وأمامي . ولم يكن يخالج هذا المسكين أي شك أنه بعمله هذا الذي يحسبه تكريماً وتقديراً لنا قد أثار اشمئزازنا وتقززنا ومنعنا من تناول الطعام .

فتظاهرت زوجتي بالمرض واكتفت بقليل من الشواء الذي هيأه لها خادمنا . أما أنا فقد شاطرت زوجتي طعامها . ولكنني في الوقت نفسه جاهدت لتجنب اللحم الخارج من بين أصابع الشيخ الكريم واشغلت نفسي بما يشبه الحساء الذي كان راسباً في الأسفل ، وذلك بغية الابتعاد عن جرح عواطف مضيفينا لو تبينوا أننا لا نمس طعامهم .

وكان مسك الختام والطامة الكبرى تناول الشيخ الهمام رأس الخروف وسحقه بين يديه الحديديتين . . سحقه بيديه واستخرج منه المخ وتناول قليلاً من الملح ونثره فوقه . وبعد أن خبط كل هذا بأصابعه ولا ريب أخذ كمية من هذا الخبيص وقدمه الى زوجتي ونفحني أنا الآخر بكمية ثانية منه باعتباره أنفس قطعة من قطع هذه الوجبة . .

وسقينا ماء بقعبين كبيرين من الخشب . وكان القعبان يدوران على الأفواه كلها من فم الى فم . وقد لاحظت كذلك ان استعمال الملاقط (الماشات) أيضاً مجهول لدى هؤلاء القوم . ذلك لأني شاهدتهم يتناولون النار بأصابعهم ليضعوها في غلايينهم » .

ولابد ان حاسة الشم لدى الاوربيين لايقل اشمئزازها وتقززها عن حاسة الذوق لديهم . فاذا تقبلنا بالتصديق ما يرويه لنا مسيو سيوفي النابه فاننا نكون قد تعلمنا في الواقع ان : « الاعراب رجالا ونساء يغسلون شعورهم ببول البعير . لانهم يزعمون انه يقوى الشعر ويطيله ويمنع الحشرات كالقمل والقراد وغيرها من ان تعشش فيه » (٢)

---

(٢) الرسالة المؤرخة في ٧ مايس ١٨٩٠ .

إن هـذه العشائر المتحركة التي لاتستقر على حال من القلق لم تكن لتكتفي فوق كل هذا بسوم الفلاحين التعساء كل خسف وهوان . فقد كتب تاستو قنصلنـا العـام في بغداد عام ١٨٥٧ يقول : « ان الحزازات القديمة تجعل هذه القبائل في تناحر وصراع لانهاية لهما . وهذه الخصومات تظل الادارة العثمانية تؤجج نارها بين هؤلاء الناس بتعمد ودهاء فتجعل حلقاتها متصلة لاتنقطع . . هذه الادارة الداهية الماكرة البارعة في فن التفريق لاجل السيادة (فرق تسد) .

« ان معاليكم يعلم ان القبـائل البدوية الكبيرة ترى نفسها المالكة الحقيقيـة لهـذا الجزء من آسيا الصغرى وتعتبر المتحضرين من رعاياها . وحتى البلدان التي هي عواصم ولاة الحكومة التركيـة تعتبرها تابعة لها عليها ان تدفع الجزية اليها . والواقع ان الادارة العثمانية وهي ما هي عليه من الضعف ترى نفسها مرغمة على شراء مظهر الامن مقابل اعانات تدفع بصورة منتظمة الى رؤساء هذه القبائل الكبرى . وان التجارة لتفضل تضحية النفقات الباهظة على نهب قوافلها . هـذه النفقات التي تدفع للترضية والتي اصبحت عرفا معمولاً به دون ان ينتظمها نظـام . وان العشائر التي تتجول في اغنى اقسام آسيا الصغرى واكثرها سكانا ، لتتمتع بدخول هي في الحقيقة على اهمية بالغة . في حين ان العشائر التي تخيم في الفيافي النائية لاتستفيد من هـــذه المغانم المباركة الا في فترات نادرة متباعدة ونتيجة لضلال بعض القوافل في متاهات الصحراء .

ومن هذه الحالة نشأت غيرة القبائل المحرومة من القبائل المحظوظة ونقمتها السـوداء عليهـا . فاذا اضفنـا الى هذه القسمة الضيزى ، الأحقاد والعداوات المتوارثة ، التي تنتقل من الاب الى ولده من جراء بعض المعتقدات

التي تجاهد الدبلوماسية التركية في تسميم افكار حملتها وادامة هذه المناحرات ، أمكننا بسهولة ان نعرف لماذا تظل هذه القبائل تصطرع فيما بينها وتعيش في حالة دائمة من الاقتتال ، يسفك فيها العربي دم اخيه العربي (٣)

ولعل اغرب المظاهر القتالية كان ما يسمى بـ « المناخ » . وتفاصيل قصة المناخ نقلها الينا مواطننا الذي وصفها فاجاد وصفها . . قال : « عندما تتلاقى قبيلتان متعاديتان تكاد قوة كل منهما تعادل قوة الاخرى ولا تستطيع اي من القبيلتين تجنب الاصطدام بالقبيلة الثانية ، سواء كان ذلك عن طريق المصادفة والاتفاق او عن قصد سابق لتصفية المنازعات بمعركة حاسمة او نتيجة نزاع حول التمتع بموضع من المواضع ، فان الطرفين يشتبكان في صراع على طريقة « المناخ » او الحرب بصورة لا رحمة فيها ولا هوادة ولا ادخار فظاعة .

وتجرى المعركة على الارض الحرة التي تفصل بين مخيمات الفريقين المتناحرين . وتظل هذه الحرب الطحون مشتعلة الأوار خلال بضعة ايام وأحيانا تدوم عدة اسابيع . ويبدى المتحاربون ضروبا من البسالة والمهارة مع كثير من الصمود والثبات . . وكيف لا ونتيجة هذه المعركة يتوقف عليها مصير عوائلهم ؟ . فهي عوائل سعيدة اذا كانت نتيجة المعركة هي الانتصار . وهي تعيسة اذا منيت العشيرة بالخذلان . ولهذا تشهد النساء سوح هذه المعارك من بعيد فينشدن الأماديح بحق الرجال الشجعان ويقذفن بالشتائم والاهانات وجوه الخوارين والجبناء من الذكور . كما يمددن يد الرحمة والمعونة الى المصابين والجرحى . وتقف في كل جانب وسط هذا الهرج والمرج فتاة يافعة . تقف هذه الكاعب الحسناء ، وقد اختيرت من بين

---

(٣) الرسالة المؤرخة في ٩ كانون الاول ١٨٥٧ .

اجمل نواهد لعشيرة وهي تحمل انفس ما تحمله النساء من حلي وكأنها في يوم عيد وقد تجلببت بجلباب احمر صارخ الحمرة .

في حلبة النضال هذه يقف بعير مزدان بكل انواع الزينة وقد ارتفع على سنامه هودج كله لطائف وزخارف تخلب الالباب وتخطف الابصار . وفوق كل هذه الطرائف تنتصب الشابة الرائعة هاتفة مصفقة لاعمال هؤلاء . باعثة الشجاعة والاقدام في نفوس أولئك . وهي بمثابة هدف يستهدفه الاعداء ونقطة للتكاتف والتآزر تستأثر باهتمام المدافعين عن حمى هذه الحسناء .

اما اسر هذه الشابة الفتانة فمعناه انتصار اعدائها ووصمة عار في جبين كل فرد من افراد عشيرتها . لانها تصبح عريسة لمن ينجح في الاستحواذ عليها . وفي حالة انهيار احدى القبيلتين وعجزها عن الوقوف بوجوه خصومها وعدم استطاعتها مواصلة القتال فانها تعترف بانخذالها وتخضع لقانون الفريق الاقوى ، أو أنها تلوذ بالفرار تاركة لعدوها ما لا تستطيع حمله من كل شيء » .

وقد ينشب القتال احيانا بين افراد العشيرة نفسها وتسود روح الثأر والأنتقام بينهم فيفني بعضهم بعضا كما يحدثنا عن ذلك معتمدنا في الموصل فيقول عام ١٨٨٧ : « لقد وقعت جريمة اغتيال قبل اربعة اشهر في كركوك . وكان القاتل والمقتول ينتميان الى اكبر عائلتين من العوائل الاسلامية في هذا البلد . فالاول ينتسب الى عائلة ينحدر اصلها عن رسول الله محمد (صلعم) والثاني اقرباؤه شيوخ اقوياء يهابهم سكان ذلك الاقليم ، وبغية اخذ ثأر القتيل عزم اقرباؤه على مهاجمة اقرباء القاتل . وتكتل ذوو القاتل وذوو القتيل في جبهتين ، كل جبهة تريد سفك دماء الجبهة الاخرى . وتوقع الناس اندلاع نيران معركة شنيعة بلغت انباؤها اسماع السلطات فاضطرت الى الالتجاء للقوة

لاعادة الأمن الى نصابه . . وكان رئيس اسرة القتيل ممن عرفتهم هنا . وقد طلب مني بوساطة مطران كركوك الكلداني ان اشمله واسرته بالحماية الفرنسية . فنصحت هـذا الشخص بالتزام جانب الهدوء واحترام السلطة واعداً اياه بمساعدته في حدود الامكان » (٤)

وها اننا سنرى ان هذه الاخلاق العنيفة لم تكن من نصيب الناس البسطاء فحسب بل ان علية موظفي الدولة كانت تقوم باعمال وحشية سنتحدث عنها ونضرب لها امثلة ايضاحية خلال قصتنا هـذه . واليكم على سبيل المثال قصة من هذه القصص التي يرويها لنا عام ١٨٩٢ قنصلنا في بغداد مسيو پونيون : « ان الماريشال العجوز نصرت باشا ــ وهو المرافق القديم لجلالة السلطان والمبعد الى بغداد منذ خمس سنوات بعد ان حمل رتبة المفتش العام الفخرية ــ ان هذا الماريشال العجوز كان على وشك ان يغدو هدفا للاغتيال الذي كاد يحرم اوروبا من عميد ماريشالاتها ! .

إن نصرت باشا ــ الذي يحسب نفسه مسؤولا امام الله عن اعوجاجات البشر ــ قد شرع قبل نحو عام فقط بانتزاع ما يمتلكه نقيب الأشراف فجرده من املاكه الفسيحة التي كان يمتلكها هو واسرته . وتقع هـذه الممتلكات في ضواحي بغداد . وهي التي يقول عنها القائلون من خصومه أنه قد حاز عليها بفضل اعمال الغش والتدليس والنصب والاحتيال المصحوبة باحابيل الغدر والعنف والاكراه التي كان يحسن الجمع بينها صاحبنا المفضال ! .

بغية الوصول الى غرضه بادر هذا الباشا الى شراء هـذه الاراضي من مالكها الشرعي الاصلي المسكين ــ وكان قد اغتصبها في الأيام الغابرة ذلك

---

(٤) الرسالة المؤرخة في ١٨ آذار ١٨٨٧ .

الشريف . وشرع الماريشال في انشاء مزارع نموذجية فيها واهداها الى جلالة السلطان . فنجم عن هذه البادرة اقامة دعوى . دعوى (هوميروسية) شهد الناس خلالها رؤساء محاكم ينتزعون من مقاعدهم وقضاة يحكمون تحت غائلة الكرباج (السوط) وموظفين من مختلف الرتب والدرجات يهددون من قبل المجلس الحربي و . . الخ .

ولدى سماع الماريشال بأن السكرتير الاول للوالي قد اغراه الاصفر الرنان فقبل الرشوة واخذ يمارس ضغطا على المحاكم ـــ لدى سماع الماريشال العجوز لهذه الاخبار لم يشأ أن يتريث فينتظر اختتام جلسات المحاكم بل أحاط نفسه بثلة من الجنود المكلفين بحراسته وانطلق كالسهم فوضع يده على الاراضي موضوع النزاع . ولكن في لحظة ترجله عن حصانه اطلق رجل افغاني من خدام صاحب النفوذ النار على نصرت باشا فصافحت هذه الطلقة جسد الباشا مصافحة خفيفة وجرحت رجلاً من اتباعه (٥)

وبالرغم من سنيه الثمانين هجم الباشا على المعتدى عليه وكاد ان يخنقه لولا نجدة الافغانيين الآخرين له ، اذ هرعوا الى مساعدته . فاختلط الحابل بالنابل وساد الصخب والضجيج في هـذا المعمعان الشامل وتبادل الاطراف الضربات واللكمات الشديدة بغزارة بحيث بات كل مشـــترك في المعركة ضارباً ومضروباً في نفس الوقت » . ان امثال هؤلاء الرجال كان من الصعوبة ان ننتظر منهم احتراماً وحرمة للجنس اللطيف في زمن كان ينظر فيه الى المرأة نظرة واطئة .

واستناداً الى نظرة هذه الذهنية السائدة للمرأة نرى قنصلنا في بغداد حين يروى في عام ١٨٩٤ خبر وفاة الامير ولي عهد مسقط ، شهيد غرام

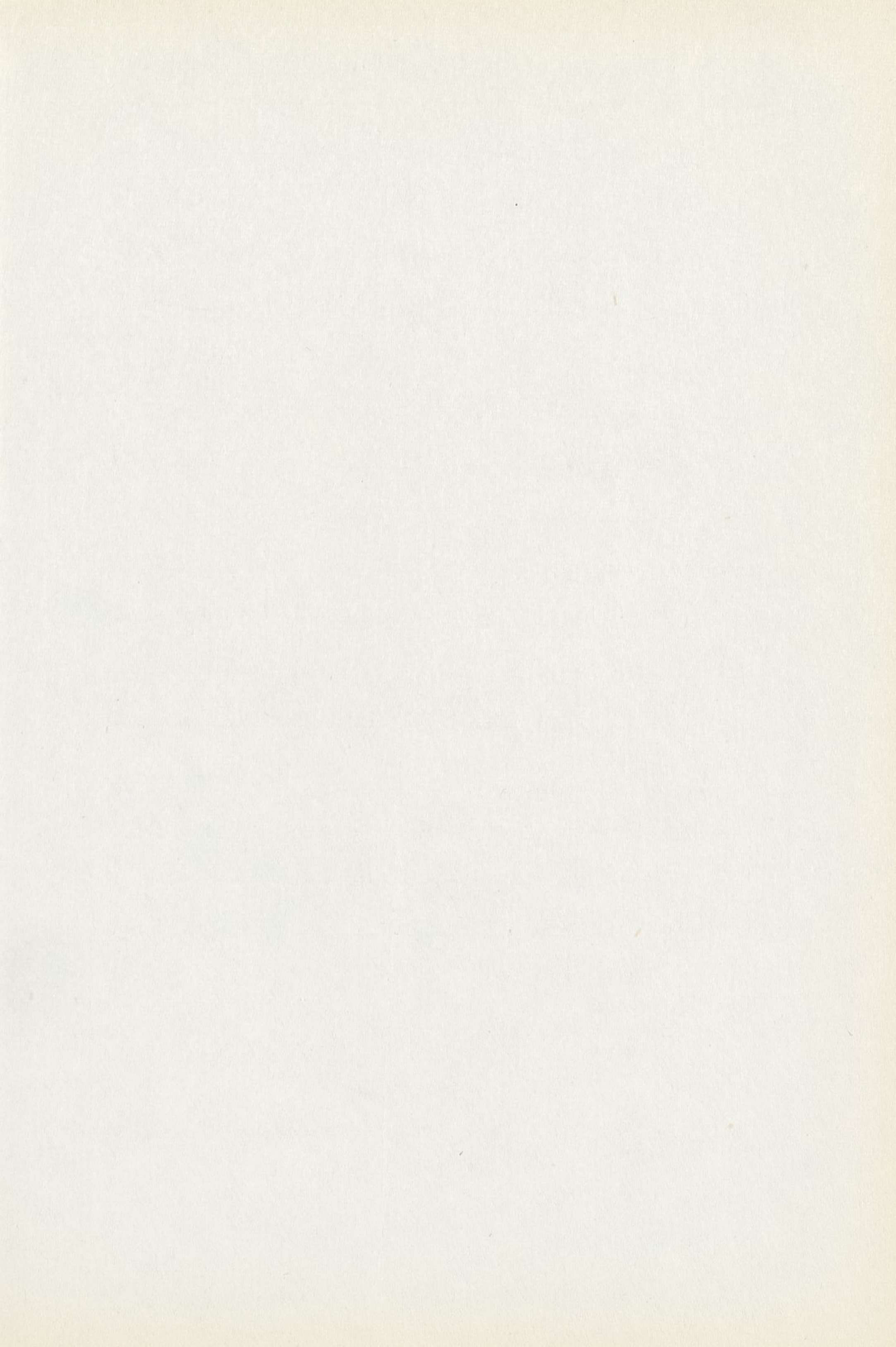
---

(٥) الرسالة المؤرخة في ٥ آب ١٨٩٢ .

بأحدى بنات حواء — اذ نسب بعضهم هذه الوفاة الى لواعج الامير المتيم — يضيف هذا القنصل قائلاً : « ان هذه الرواية لانصيب لها من الصحة والواقع . لان كل من يعرف اخلاق النساء المسلمات يعلم ان الرجل العربي المغتاظ من حريمه لايتردد عند الاقتضاء عن قتل جميع نسائه . اما ان يقتل الرجل نفسه من اجل النساء او من أجل احدى النساء فانه امر لايخطر له على بال البتة » .

ولكن الرجال كما رأيناهم لايتاخرون مع ذلك عن استخدام النساء لاثارة حمية المحاربين وحماسهم . بل انهم يستعملوهن في بعض الاحيان النادرة سفيرات الى جهة عليا من الجهات . وهذا ما حدث في عام ١٨٥٢ فان احد شيوخ العشائر الذي ثار ولكنه مني بالفشل والاندحار تجاه القوات المرسلة لقتاله وقمع تمرده قد ارسل — كما كتب ذلك قنصلنا في بغداد مسيو تافرنييه احدى نسائه (وكان له تسع نسوة) لتفاوض قائد الحملة التأديبية فاستقبلها الجنرال استقبالا فيه كل مظاهر التقدير والاحترام وانزلها في حريم الباشا » .

فهل يعني هذا ان الزوج قد اعتمد على مفاتن زوجته اكثر من اعتماده على مواهبه الدبلوماسية بغية الفوز بالنجاح في مهمته هذه ؟ ان مواطننا لايحدثنا عن هذا الموضوع ولكننا نسمح لانفسنا باعتناق هذا الرأي .



القسم الخامس

الادارة



في القرن التاسع عشر كان العراق مقسما الى ثلاث ولايات هي الموصل وبغداد والبصرة ، وعلى راس كل ولاية من هذه الولايات وال يجرى تعيينه وعزله من قبل السلطان . وكان يعتبر هذا الوالي بمثابة نائب الملك لانه كان يتمتع بسلطة مطلقة . فله قيادة القوات المسلحة . وله فرض الضرائب وله تطبيق الانظمة والقوانين . واقامة العدالة . وعلى عاتقه تقع اشاعة النظام واستتباب الأمن . وعلى كاهله يرتكز عبء تنفيـــذ الاشغال العامة وادارة الاعمال الحكومية ويرتبط بسلطته مرؤوسوه . وهكذا نرى بهذا التعداد للمهمات اهمية سلطاته وخطورة الدور الذي اسند اليه القيام به . فاذا كان شهماً غيوراً متوقد الحماسة شاعراً بمسؤولياته بارعاً في تصريف الشؤون كان لأقليمه أن يعيش في سلام ووئام واطمئنان . واذا كان على العكس من ذلك شخصاً جشعاً طماعاً طموحاً متعصباً ، أو بالاحرى اذا كان خائر العزيمة متردداً متحرجاً ضعيفاً ، فان السكان حينئـذ يقعون تحت نير التصرفات الكيفية والاعمال التعسفية . فيئن الشـعب تحت وطأة الضرائب ويرزح ويتألم تحت غائلة غزوات القبائل البدوية وغاراتها ، تلك القبائل المطمئنة من نتيجة اعمالها الوحشية لعدم ضرب يد العدالة لها بالعقوبات الصارمة . ومن أمن العقوبة اساء الادب . ولذلك كانت مهمة قناصلنا لتوفير الامن للمشمولين بحمايتنا وفرض احترام امتيازاتهم والدفاع عن مصالحهم مهمة شاقة مرهقة .

ولسوء الحظ كان الولاة الأخيار من الكائنات النادرة : فقد كان العراق

في هذه الحقبة يتمتع بسمعة سيئة لا يحسد عليها لدى البـاب العالي في الآستانة : فهو في نظره منطقة نائيـة فقيرة موبوءة . وهو مسرح للقلاقل والاضطرابات المتواصلة . وكان المرشحون للمناصب الادارية من ضآلة العدد بمكان فلم يكن السلطان ليرسل الى هذه الاصقاع في اغلب الاحوال سوى الموظفين الفاشلين او المغضوب عليهم والضالين . ولما كانت الحالة على هـذه الشاكلة فان هؤلاء الولاة كانوا يجدون انفسهم مرغمين على الفوز برضا ولي نعمتهم وسيدهم السلطان، عن طريق شراء الحظوة في اعين حاشيته بافدح الاثمان . وكانوا يلجأون الى نفس الاساليب اذا شكا محكوموهم من مظالمهم بتوجيه استغاثات الى الباب العالى طالبين عزل المتغطرسين الغاشمين عن مناصبهم . فقد كتب مثلاً قنصلنا في بغداد البارون دى (فيمار) عام ١٨٤٦ بهذا الصدد يقول : يسافر غداً الى الاستانة احد انجال الوالي . وهو يحمل في جعبته مبالغ ضخمة من النقود مخصصة لغرض كسب الانصار لجناب والده الذي يخشى على ما يبـدو من تدقيق تصرفاته القبيحة وسلوكه الشائن من كثب ، بعد ان رأت الحكومة العثمانية رأي العين افاعيله المخزية » .

وعلاوة على ذلك فقد كان على الوالي قبل ان يباشر وظيفته ان يتعهد بدفع مبلغ معين لخزينة السلطان في كل عام ، ذلك المبلغ الذي كان يمثل ضرائب ولايته . فاذا اخل بتنفيذ شروط هذا العقد فانه يظل مواجهاً خطر العزل والتسكع مذموماً مدحوراً . ولكنه من الجهـة الاخرى اذا تعجل في تنفيذ بنود العقد اكثر مما يجب فان المقامات العليا لدى الباب العالى لاتتردد في لفت نظره وقرص اذنه الى ان خزينته ، كما هو ظاهر ، تنعم في بحبوحة وسراوة حال ، فتفرض عليه هـذه المقامات مبالغ اضافية جديدة يجب ان يؤديها لهذا الباب . . وهكذا يرتفع رقم الابتزاز .

فكانت البراعة الفائقة اذن في ان يتريث الوالى في تسديد المبالغ المفروضة عليه ما وسعته امكانيات التريث . وان يشترى في الوقت نفسه ضمائر وذمم افراد حاشية السلطان . وكان هذا كله يكلف ثمنا فاحشاً . ولما كان الموظفون لايتقاضون رواتبهم في اوقاتها المعينة وبصورة منتظمة فان كل واحد من هؤلاء كان يبذل كل ما في وسعه من جهود لابتزاز اكبر المبالغ الممكنة من دافعي الضرائب وممن شملتهم الجباية . وفي عين الوقت ارسال اقل مبلغ ممكن من النقود الى خزانة الولاية .

وبالاضافة الى ذلك فان الولاة كانوا قليلى الاهتمام بجباية الضرائب بانفسهم . لان هذه الجباية كانت مهمة قد تتطلب في معظم الحالات ارسال حملات عسكرية حقيقية لمواجهة مقاومة افراد العشائر وامتناعهم عن الدفع . ولذلك فان هؤلاء الولاة كانوا يمنحون باللزمة جباية اموال ضرائب الدخول الرئيسية كضريبة الاعناق ورسوم الكمارك والمكوس . اذ يمنح التزام جباية هذه الاموال الى موظفين صغار سرعان ما يثرون على حساب جماهير الشعب . ولذلك فان مراسلات قناصلنا زاخرة بالشكاوى المؤلمة من مخازي هؤلاء الولاة العتاة المحليين واتهامهم باعمال تندى لها الجباه . وقد كتب احدهم وهو قنصلنا في الموصل واعنى به مسيو بوتا عام ١٨٤٥ يقول : « ان الوالى الذي اتحدث لكم عنه معروف في كافة اصقاع الامبراطورية المترامية الاطراف بانه غول من الغيلان . ومنذ ان وطئت قدماه هذه البقاع هنا برر كل التبرير شهرته السيئة التي يتمتع بها من سوء الاعمال : وانني ساقتصر على القول لمعاليكم بأن هذا الاقليم قد سلم يداً بيد الى لص شقي قاطع طرق حقيقي في شخص هذا الوالي الذي لايتورع عن اقتراف كل الاثام . إذ لا قدسية لشيء في نظره . فلا حرمة لديه لحياة واموال وشرف العوائل والأسر . .

وقد تألمت كل التألم من كل ما جرى فعله هنا ... تألمت من مشهد المظالم المرتكبة كما تألمت من وقاحات الباشا الشخصية ومن قحة وقلة حياء افراد حاشيته الأراذل .

وقد وجب علي ان اشدد من رغبتي في عدم تشويش وارباك سياسة حكومة الملك بمعارك في غير اوانها لاجل ان اتحمل بصبر ورباطة جاش كل هذه الاعمال المقيتة التي تبعث على التقزز والاشمئزاز . وانني بوصفي معتمداً بسيطاً يجب علي واوثر كذلك ان اتوجه الى سفارتنا في الاستانة لتبذل كل جهودها لاقرار العدالة هنا في نصابها ، وتثبيت قواعد حقوق الانسانية » . وكانت عقبى هـذه المساعي عزل الوالي موضوع البحث من منصبه بعد فترة قصيرة . وفي معرض التحدث عن خلف هذا الوالي يلاحظ قنصلنا « قلة احتمال ان نجد في الخلف الجديد رجلاً من درجة وحشية ولؤم وخسة السلف الطالح (١) ».

وساقص في الصفحات التالية قصة بعض المنازعات والمشادات التي وقعت لممثلينا ودام بعضها بضع سنوات احياناً مع بعص موظفي هؤلاء الولاة . ولكنني ساقصر نفسي في هذه اللحظة على كشف الستار عن بعض الحالات النموذجية من قضايا الاختلاس والاستهتار الادارية التي تنطق بلسان افصح وابلغ من كل ما عرف من السنة الفصحاء والبلغاء معتمداً في ذلك على رسائل ممثلينا .

واليكم بادىء الأمر نموذجا من نماذج قضايا الاختلاس . وقد روى لنا تفاصيل الحادث نائب قنصلنا في الموصل عام ١٨٧٩ الا وهو مسيو « بيريسييه » . قال : « قبل ردح من الزمن عين لعقرة قائمقام شاب على درجة

---

(١) الرسالة المؤرخة في ٧ اذار ١٨٤٥ .

ولكنه كان كذلك على درجة لا بأس بها من الهوج والطيش . ولم يكد يمضي على ادارته لهذه البليدة اربعة اشهر حتى انهالت الشكاوى ضده من كل حدب وصوب . فلقد اتهمه المتهمون بالاختلاس . بل اتهموه كذلك بانه في حالة من حالات الهياج والنزق قد مزق ، ان لم يكن قد قطع بعضة من اسنانه ، اذن احد الموظفين لديه . فاستدعي هذا الموظف الى الموصل ليقدم الحساب ويجيب عن تصرفه . فتشجع الاهالى المساكين وتجرأوا فزحفوا في جموع حاشدة ظنا منهم ان هذا الموظف قد عزل من منصبه الى الابد وطالبوا بانزال العقاب في حقه واعادة الاموال التي سلبهم اياها اليهم . فارسل الوالي الى عقرة احد اعضاء مجلس ادارته مزوداً بأمر القيام بالتحقيق الدقيق في كل هذه الاتهامات . ولما كان هذا الرجل معروفاً بانه لايملك وسائل اخرى للعيش سوى اموال الاختلاس — وهذا ما لاينكره هو نفسه — فقد قدم لدى عودته تقريراً الى انظار الوالي يؤكد فيه تأكيداً مطلقاً براءة ونزاهة واستقامة المتهم الذي اشترى هذه الشهادة الفاجرة الكاذبة بمبلغ قدره سبعمائة فرنك . فاعيد المتهم الى وظيفته وتقلد من جديد سلطاته وأرغم الفلاحون ارغاماً وبأسرع من لمح البصر على تقبل تسوية سرية فرضها عليهم خصمهم واصدقاؤه ، تلك التسوية التى قضت عليهم بالتنازل عن كافة مطاليبهم لقــاء دفع القائممقام اليهم ثلث مبالغ مدعياتهم » (٢)

اما الاستهتار الاداري فلم يكن لتقل درجته عن هذا الدرك . لاسيما في الحقل القضائى ، وذلك اذا بنينا حكمنا على القصة التالية التي حدثت في عام ١٨٧٦ والتي روى تفاصيلها لنا ممثلنا في بغداد مسيو ديستري . فقال :

« لقد تلقى والي الحلة الامر من القسطنطينية بتنفيذ قرار الحكم بالاعدام

(٢) الرسالة المؤرخة في ١ تموز ١٨٧٩ .

الصادر ضد مجرم يدعى (عبد الكريم) الذي حكمت عليه المحكمة المحلية في بعقوبة بالموت شنقاً . فالتبس الامر على مدير الشرطة المكلف باخراج المحكوم عليه من سجنه وتسليمه الى جلاديه توهما منه في الاسماء ، اذ قد ظن ان القضية تخص شخصاً اسمه (عبد) وهو مجرم آخر موقوف بناء على ارتكابه جريمة سرقة .

ولكن رغم احتجاج هذا المجرم الاخير وقوله بعدم امكان صدور حكم من هذه الدرجة بحقه فانه قد اقتيد الى محل التعذيب وربط في ختام العملية بالمشنقة . وفي هذه الاثناء بلغت اخبار الحادثة اسماع الوالي فارسل على الفور امره بايقاف التنفيذ . فاسرع الجلادون بحل رباط عبد واستطاع هذا المسكين كما قيل ان يعاد الى الحياة بفضل كثرة العناية والاهتمام . فقد انزلقت العقدة الحبلية الملتفة حول رقبته عنها بعد ان كادت تخنقه ولامست ذقنه . . واذ ظن السراى بادىء الامر ان عبداً قد مات فانه قطعاً لتيار التاويلات المحزنة المرتقبة اشاع ان هذا المحتجز هو كذلك سفاك اثيم وانه قد حكم عليه فعلا بعقوبة الاعدام وذلك قبل لحظة تنفيذ عقوبة الاعدام فيه ببضع ساعات او على الاكثر ببضعة ايام . ولكن الفطرة الشعبية السليمة قد اعترضت على هذا الزعم فردت عليه وهي مصيبة في ردها بان هذا العذر يبعث على الرحمة والاشفاق بالسلطة وان هذه الفطرة تقول باننا حتى لوسلمنا ، مدى لحظة واحدة ، بحقيقة هذه الواقعة فيجب ان نعترف حينئذ بان الصدفة وحدها ستكون هي وحدها المكلفة لدى ذهول السلطات المحلية باظهار هذا التمييز بين الخطأ والصواب . بالغاً ما بلغ من الضآلة هذا التمييز » [٣]

وكان الاستهتار يمتزج في احايين كثيرة بالاختلاس نكاية بالطبقات

---

(٣) الرسالة المؤرخة في ٢١ شباط ١٨٧٦ .

الفقيرة التي يوقعان بها افدح الاضرار : وذلك ما حدث بصورة واضحة في عام ۱۸۸۰ عنـــدما اجتاحت موجة القحط شمال العراق بأسره . والخير لنا ان نرهف اسماعنا الى صوت قنصلنا في الموصل مسيو سيوفي ليقص علينا قصة هذه البلوى : « لقد تحول القحط الى مجاعة حقيقية اخذت وطأتها تشتد يوما بعد يوم . فكانت اعداد كبيرة من سكان الارياف تترك في كافة الايام قراها مولية وجوهها شطر مدينتنا بحثاً عن الرغيف بعد ان طوح بها الجوع وضاقت بها ديارها . وقد استحال المئات من سكان هذه المناطق الذين ينتمون الى الطبقة الكادحة الى فقراء متسولين يئنون تحت وطأة البؤس ويتضورون من الجوع ويشكون من قلة العمل . وكان لهجوم هـذا الجيش العرمرم من سكان الريف ومن الشغيلة المعوزين وكلهم جائعون ، اثره في زيادة عدد الجائعين الذى لا ينضب له معين . اذ انه في ظرف شهر واحد ضاعف عدد فقرائنا ثلاثة اضعاف . فاضطر بعضهم تحت لهيب الجوع الى اكل لحوم جثث الحيوانات . وقد اكد لي احد الضباط بحضور الوالي ان خمسة اشخاص كانوا يموتون من الجوع في كل يوم في مدينة الموصل . . ولم تكن الحنطة وحدها تباع بسعر فاحش بل ان كافة المواد الغذائية قد ارتفعت اسعارها ارتفاعاً رهيباً . فاستفاد المحتكرون استفادة كافرة من هذه الفرصة . فاثروا ما وسعهم الاثراء على حساب الفقراء التعساء . وكانت كل كمية من الحنطة تصل الى السوق تنتهب من قبل المسلمين الجائعين رغم قيام السلطات المحلية بحراستها بواسطة قواتها المسلحة .

وحالة انتهاب الحنطة هذه جعلت من الاستحالة بمكان على المسيحيين ان يشتروا منها بالنظر لانهم اضعف من المسلمين . وقد تحدثت مع الوالي عن هذه الحالة . وتم الاتفاق بيننا على ارسال جزء من هذه الحنطة الى الرؤساء

الروحانيين لهذه الطوائف الذين سيقومون بعمليات بيع الحنطة في بيوتهم الى رعاياهم كلما احتاجوا اليهـــا وكلما تيسرت . ولاذ بعض متعهدي أرزاق الجيش بالفرار لانهم افلسوا من جراء غلاء الاسعار . ولانهم من جهة اخرى لم يعودوا يجدون الكميات اللازمة من هـــذه الأقوات التي هم مكلفون بتوفيرها للقوات المسلحة . . وكانت الفاقة في كركوك أشد من الفاقة في الموصل . فقد كتب مطران هـذه المدينة الكلداني الى بطرياركه يقول ان ثلاثين شخصاً يموتون في كركوك كل يوم . وعاثت عصابات اللصوص وقطاع الطرق في الارياف . فهم يهاجمون القرى ويستولون على كل ما يجدونه دون ان تتدخل السلطة فتقدم اي نجدة للضحايا المساكين . وقد اكد لي بعضهم ان قرابة اربعين قرية قد هجرها سكانها . وزاد عدد المحتكرين فاصبحوا يؤلفون جمهرة ظالمة . . فبعد ان جمعوا منذ بداية السنة كميات كبيرة من الحنطة والشعير فانهم اخذوا يستعملون وسائل جهنمية خفية تؤدي الى رفع الاسعار . وقد شجعهم على ذلك وضعهم الخاص وضعف همة الولـــا الذي يسر لهم طرق الافلات من العقاب على تصرفاتهم الاجرامية . فهم يزعمون نفاد الحنطة لديهم ولكنهم في الوقت نفسه يبيعون حبوبهم بصورة سرية بسعر يبلغ عشرين مرة او خمسة وعشرين مرة اكثر من سعر التكليف . وقد اسخطت حالة هـذه الامور جماهير الشعب . فان رئيس البلدية الذي ضاعف ثرواته اربعة اضعاف وذلك بتضحيته مواطنيه قد اهين اكثر من مرة في الشارع بل هدد بالموت في رابعة النهار . واصبح الاهالي لايتحفظون في ابداء تذمرهم لاتجاه السلطة ولاتجاه الجامعة الاسلامية نفسهـا فقد كفرهم الجوع . فنحن نسمع لعناتهم للحكومة العثمانية نفسهـا التي يهتف المسلمون انفسهم بسقوطها . وهم يتمنون حكم دولة مسيحية . وقبل

عدة ايام قالت لي امرأة بصوت عال وقد وقفت على باب سراي الحكومة ذاته حيث احتشد جمع غفير من الناس : (بارك الله فيك فانك خير من المسلمين مادمت تحنو على الفقراء) (٤)

ولهذا فلا ينبغي لنا ان نعجب اذا وجدنا المعنويات العامة قد سفت اسفافا عظيماً امام هذه النماذج من الحوادث ، واليكم ما يقوله بهذا الصدد في عام ١٨٩٥ مسيو پونيون قنصلنا في بغداد واصفا الحالة « ان اعمال النصب والاحتيال هي بالاجمال الصناعة الوطنية للعراق . وقد تسربت الى المسيحيين واليهود . ولا اعتقد ان في بغداد كثيرين من التجار البارزين الذين لايستحقون ان يكونوا من نزلاء السجون لو كانت العدالة العثمانية عدالة صحيحة فهذا جزاؤهم العادل . وان كلمة اللصوصية بالنسبة للرجل المسيحي من اهل البلاد لاتنطبق الا على اعمال قطاع الطرق المسلحة . وكل فرد يوفق في الحصول على اي مبلغ كان لايعتبر في نظر هؤلاء قد ارتكب (جريمة سرقة) سواء كانت الوسائل التي التجأ اليها من اعمال النصب والاحتيال ام كانت من اعمال الغش والتدليس لان الناس لا يقولون عنه قد (سرق) وانما يقولون قد (اكل) .

واذا كانت اللصوصية ممنوعة فان الاكل ليس مشروعا فحسب بل انه فوق ذلك عمل يشرف صاحبه . وانني على اعتقاد جازم بعدم وجود فرد لايشتهي ان يدخل حتى في خدمة شركة اجنبية على امل استطاعته (ان يأكل) أي أن يسرق » (٥)

ولكن من حسن الصدف ان الحكام لم يكونوا دائماً متعصبين جشعين . فبعضهم قد خلفوا في البلاد ذكرى الاداريين المستقيمين النزيهين والبارعين

---

(٤) الرسالة المؤرخة في ٢٣ شباط ١٨٨٠ .
(٥) الرسالة المؤرخة في ٦ كانون الاول ١٨٩٥ .

أيضاً . وفي هذه الحالة كان ممثلونا هم الاوائل في الاشادة بهؤلاء الاطياب . واليكم على سبيل الاستشهاد رشيد باشا الذي عين في بغداد عام ١٨٥٣ فمنذ* وصوله الى هذه الديار اخذ يدفع رواتب العساكر عن السنتين الفائتتين . كما شرع في اطلاق سراح المسجونين تعسفاً واعتباطاً . وكذلك أشاع الأمن والطمأنينة في ربوع البلاد وعلى الاخص هدد وتوعد الخونة والمتلاعبين . فقد كتب قنصلنا يقول : « لقد بلغ كافة الاداريين المسؤولين عن الاموال العامة ان حساباتهم ستدقق منذ هذا اليوم من قبله هو ، وان اكتشاف أي تلاعب او غش ستكون عاقبته عقاب الجاني بعدد من المقارع مساو لعدد قروش المبالغ المسروقة ، ودون أي اعتبار لمركز الموظف او رتبته » . وبفضل هذه الاجراءات الحازمة استوفيت الضرائب بيسر وسهولة وتدفقت الاموال الى خزائن الولاية وانتعشت التجارة وازدهرت . ولكن لسوء الحظ مات هذا الموظف النموذجي فجأة في عام ١٨٥٧ ولم يكن لخلفه « أي سراوة في الخلق يطمأن اليها ولا أي كلمة يصح الاعتماد عليها مع تعجل في الاحكام المبتسرة يجعله يتبنى دون تثبت او اعمال روية اي خطة مغرية . ثم يركبه التهور لدى اهون عقبة او عائق واحياناً لدى أي خاطرة تخطر في باله فتؤدي به هذه الحالة الى تنفيذ خطة اخرى دون الالتفات الى خطة الامس . هذا بالاضافة الى ضعف في الارادة يحمله على اصدار الامر بعمل شيء في هذه اللحظة ولكنه لا يكلف نفسه « بمراقبة تنفيذ هذا الامر » . ولهذا أصبحت حالة الولاية في تدهور سريع مستمر لم تكن كذلك في ايام رشيد باشا .

(*) ويعرف بـ (كوزلكلي محمد رشيد باشا) تولى بغداد من ١٨٥١-١٨٥٦ وخلفه بعد وفاته الوالي سردار أكرم عمر باشا من سنة ١٨٥٧-١٨٥٩ .

(س.أ)

وحينما كان يتفاقم الوضع وتبلغ الفوضى اوجها كان الباب العالي يرسل احياناً مفتشاً له صلاحيات واسعة على عدة ولايات . ومهمته مراقبة اعمال الموظفين ومن ضمنهم الولاة ووضع حد لسوء تصرفاتهم . وهذه هي الحالة في عام ١٨٩٢ لدى تعيين من يدعى عمر باشا والياً على اقاليم الموصل وبغداد والبصرة الثلاثة * إذ اظهر بادىء بدء قنصلنا في الموصل سيوفي بعض التشاؤم يوم علم بالخبر . فكتب يقول : « ان هذه المهمة صعبة شاقة بقدر ما هي مؤلمة موجعة ، نظراً لأن المظالم والتعسفات قد بلغت من الكثرة والتفاقم منذ اعوام في كافة فروع الادارة المدنية منها والعسكرية بحيث اننا لانجد اي فرع من الفروع ناجياً من الاصابة ببلاياها » .

ولكن مواطننا تتملكه الدهشة لدى رؤيته تصرفات عمر باشا فيفضي الينا بعجبه قائلاً : « الان وقد ابصرته منهمكا في اعماله استطيع ان ادلى بشهادة ناضجة منصفة عنه فاقول ان له مزاياه كما له عيوبه . ولكن قلما توجد مزاياه لدى الموظفين الاتراك فهو مثال على الاستقامة . وان عدالته في اغلب اعماله تساوى صلابته ونشاطه . . لقد طبق بعض العقوبات القمعية الزجرية التي ترقى الى النظام القديم والتي يستحق المؤاخذة عليها . لان القوانين الحالية لم تعد تسمح بتطبيقها كامثال عقوبة الجلد وعقوبة اخرى تنحصر في الطواف بالمجرم في شوارع المدينة ، يتقدمه مناد (دلال) مكلف باعلام الجمهور بجرم الرجل المطاف به . وقد طيف على هذه الشاكلة بقاض كانت له شهرة واسعة بصورة خاصة ببراعته في اساليب بيع العدالة . فطبقت على رأسه الطريقة التي كانت تطبق في زمان الخلفاء . اذ عرض في شوارع المدينة

(*) لم يول على بغداد فى هذا التاريخ وال باسم عمر باشا وكذلك في الموصل . ففي بغداد تولى حاج حسن رفيق باشا (١٨٩١-١٨٩٦) وفي الموصل عزيز باشا (١٨٩١-١٨٩٣) .
(س١٠)

محمولا على ظهر حمار ووجهه الى الخلف الى جهة ذنب الحمار » .

ولكن هذه العقوبات التي اكل الدهر عليها وشرب منذ عهد بعيد قد فعلت مفعولها فأرهبت الاشرار ذوى النوايا السيئة ومنعت وقوع الكثير من حوادث الشر . . وتجاه هذه الاعمال المختلفة اصيب جميع السكان بحيرة وذهول وذلك لانهم لم يتعودوا على شدة مطلقة من هذا النوع جديدة كل الجديدة على قاطني هذه البلاد . فوقع الاشرار والجناة تحت تأثير الشعور بالجبروت والرهبوت . اما شرفاء الناس وصلحاؤهم فقد غمرهم الشعور بالسعادة برؤية هذا القطر وقد تخلص من العديد من صغار الطغاة واخذ يعيش في ظل نظام قوامه انصاف الناس وطمأنة نفوسهم . اما انا ياسيادة الوزير فانى اعلن والفرح يهزني انني لم ار بين مئات الموظفين العثمانيين الذين عرفتهم منذ انخراطى في سلك هذه الوظيفة قبل اثنين واربعين عاما موظفاً تضاهي نزاهته واستقامته نزاهة هذا الرجل واستقامته . وهذا الرجل هو عسكري اكثر من كونه رجلاً اداريا . فتراه يتعجل بل يلجأ الى العنف في حل القضايا . ولكن اذا تركنا جانبا هذه الظاهرة ، فبوسعنا القول ان له مزايا عالية : فهو صارم تجاه المجرمين وهو في الوقت نفسه على استعداد تام لقبول توبة التائبين وندم النادمين . وهو عطوف على الفقراء رحيم بهم . وهو أب مناصر للمظلومين . . وهـذا الرجل يعمل ليلاً ونهاراً حتى لقد اضرت بصحته مشاغله الكثيرة فوقع مريضاً . وقد دعوته للاستجمام في منزلى الريفي . وطوال الخمسة الايام التي قضاها في الريف معنا لم يكف عن العمل . ولكنه على الأقل كان ينام في الليل . وهذا النوم جعله يتماثل للشفاء [٦]

ولكن لسوء الحظ دارت هذه التجربة دورة سيئة : فقد ذاق عمر باشا

---

(٦) الرسالة المؤرخة في ٢٦ آب ١٨٩٢ .

طعم الفشل المرير لدى محاولته فرض عملية احصاء النفوس في الموصل (راجع القسم الرابع) ولم يستطع ان يغتفر لسكان هذه المدينة موقفهم المشين فشرع يتصرف تصرف الطغاة واخذ اهالي الموصل بالشدة والعنف. ووصلت انباء هذه الاعمال الى اذان الباب العالى فأمر باجراء تحقيق كانت عقباه عزل عمر باشا من منصبه ولم يكن قد مضى على تعيينه غير سنتين.

وبعد هذا العزل بمدة طالت او قصرت أودعت مهمة مماثلة لمهمة عمر باشا الى عهدة الماريشال العجوز نصرت باشا الذي يصوره لنا فيحسن تصويره قنصلنا في بغداد فيقول ما يلى: « لقد تربى مع السلطان عبد المجيد. وان لم يكن محبوبا فهو على الاقل محترم من قبل السلطان الحالى الذي يعتبره خادما قديماً لاسرته ولذلك اولاه كل رعايته واهتمامه وانعاماته. وهو شريف كاشرف ما يكون الانسان الشريف. ويحمل بين جنبيه نوايا طيبة ويحولها الى اعمال جليلة. ولكنه خلق لنفسه اعداء في كل مكان حل فيه وذلك بسبب صراحته الجارحة وحميته اللاهبة في مقارعة الاعمال التعسفية واستغلال النفوذ. وكذلك من جراء مزاجه الحاد والجروح التي تحدثها شقشقات لسانه العنيفة. وبعد عدة مواقف من نزواته التي لانهاية لها في بعض الولايات لم يعد الوزراء يعرفون ما يجب ان يتخذوه من أوضاع تجاه هذه الشخصية التي كانت تسمى الاشياء باسمائها ولا ترعى لشيء حرمة او احتراما اذ انها لم تتورع حتى عن كشف مساوىء الوزراء انفسهم. لذلك فقد ارسل الى بغداد حاملاً لقب مفتش. وها هو في بغداد منذ بضع سنوات يقضي اوقاته في البرهنة على ان كل الشؤون الادارية تجرى بصورة معكوسة وتقف وقوفا مقلوباً راسها الى الاسفل ورجلاها الى الاعلى. كما انه ينهمك في بعض الاحيان بارسال بعض البرقيات الى السلطان نفسه الذي يقال عنه انه يبتسم لهذه البرقيات

ولا يقيم اى وزن لآراء هذا الماريشال » ، (٧)

وحين نقرأ السطور التي كان يخطها قنصلنا في بغداد مسيو پونيون عام ١٨٩٤ بعد تجربة طويلة له في تركيا فاننا ندرك ادراكا افضل حقيقة الوضع في العرق انذاك . قال قنصلنا . « ان والينا الجديد لا هو متعلم ولا هو ذكي : انه اداري فاشل لايستحق درجة الصفر في الادارة . ولكنه هشوش بشوش في وجوه الاجانب ويعمل كل ما في وسعه لارضاء الناس كافة . ولم ينقطع القناصل ابداً عن كيل المديح والثناء له . وعذرهم وعذري في ذلك ان الاساليب المحزنة التي كانت تصرف بموجبها الشؤون في عهد سلفه الطالح قد حملتنا حملاً على الاعتقاد بأن الولاة الجهلاء في بعض الاحيان هم افضل الولاة » .

وكانت التبدلات دائمة الحدوث في صفوف كبار الموظفين الذين كان مصيرهم معلقاً اما بالحظوة لدى رئيسهم المطلق واما بالدسائس التي كانت تحاك ضدهم من قبل زملائهم الموظفين الكبار لدى بلاط السلطان . وفي مطلع هذا القرن كانت تصاحب هذه الدسائس احياناً بعض الحوادث الدامية . . ويقص علينا نائب قنصلنا في البصرة مسيو فونتانيه عام ١٨٣٦ كيف تم وضع حد لنوع من انواع الدكتاتورية . . تلك الدكتاتورية التي كان يمارسها حينئذ على رؤوس اهل بغداد وال يدعى داود باشا الكرجى الاصل * « لم يكن سارقا اقل مما كان عليه محمد علي ** في ميدان السرقات

---

(٧) الرسالة المؤرخة في ٥ حزيران ١٨٩٤ .

(*) داود باشا الكرجي ١٨١٦-١٨٣١ اخر ولاة المماليك ببغداد ، وقد سولت له نفسه الانفصال عن الدولة العثمانية والاستقلال ببغداد فوجه اليه السلطان محمود حملة قوية بقيادة والى حلب علي رضا باشا اللاز ، والذي انهى حكم المماليك بجمعهم في قلعة بغداد والايعاز بقتلهم جميعا . فاعاد بغداد والعراق الى حظيرة الدولة العثمانية ، دامت ولاية علي باشا اللاز لبغداد ١٨٣١-١٨٤٢ . (س٠١)

(**) يقصد محمد علي باشا الذى استقل بحكم مصر ١٨٠٥-١٨٤٨ وتولى الحكم بعده اولاده وذراريه حتى قيام ثورة ٢٣ يوليه عام ١٩٥٢ . (س٠١)

ولاطاغية اقل مما كان عليه محمد علي ايضاً في حلبة الطغيان وقد حذا حذو محمد علي وحاكاه محاكاة فريدة فاحتكر لنفسه كل الاشياء وجرد جميع تجار ولايته من اموالهم واغنى بعض خدامه . ولكنه الى جانب هذا كان مؤدباً كأمثل ما يكون الرجل المهذب مع الاوروبيين . وكان يعامل المقيم البريطاني ونيافة مطران بابل معاملة ممتازة خاصة (وهذا المطران كان حينئذ كما هو معلوم مكلفاً بالدفاع عن مصالحنا) . فارسل الباب العالى ضده علي باشا . وهو باشا حلب . ولم يلبث هذا الباب ان نشر بعض الفرامين التي تجعل الناس — الذين يجهلون احوال هذا القطر — يتصورون ان الباب العالى قد يقوم ببعض الاعمال العامة احياناً في سبيل الصالح العام . وقد كتب الانتصار لراية علي باشا الذى ارسل داود باشا الى القسطنطينية حيث شمله عظمة السلطان بعفوه فقلده رداء العفو الابيض . اما بغداد التي خربتها مساوىء داود باشا فقد اجتاح نصفها الفيضان . واما الجيش الذي خفقت اعلام واليه المظفرة فقد حمل الى اهالى بغداد الطاعون .

وحين دخول علي باشا الى هذه المدينة لم يقلد قط اصدقاء وخدام داود باشا اردية العفو البيضاء : بل قطع رؤوسهم جميعاً . وكانوا يعدون مائتين او ثلثمائة من الجيورجيين الذين نجا منهم اثنان فقط فهربا بجلديهما الى فارس . وقد نجم عن بيع نسائهم واولادهم مبلغ ضخم جسيم . ويجب ان نقول اكراماً لوجه العدالة ما قيل عن داود باشا اثناء خروجه من بغداد من انه عهد بانصاره الى خلفه واشار عليه بصورة ودية بان يقطع رقابهم . وهذا مافعله علي باشا فقد قطع رقابهم ولم يتورع حتى عن قطع رأس نجل داود باشا نفسه البالغ من العمر عشرين عاماً .

وعلي باشا مرتكب هذه المآسي ليس اشد ضراوة من أي تركي آخر :

اذ يقال عنه انه جواد كريم سمح الخلق على طريقة ابناء جلدته الاتراك . فهو يتصرف تصرف الرجل الوديع مع الناس . وهو مهذب تجاه الاجانب ولم يكن بدعاً في الولاة . فهو على العموم حاكم لايشتكى منه جور ولا يحمد له عدل » .

وبعد هذه الفترة بخمسين عاماً لانت الاخلاق وهبت عليها نسمات اللطافة واصبح السخط على احد والاستياء منه لايؤديان دائماً الى تنفيذ احكام الاعدام . ولكن مقدرات الموظفين لم تعد اقل تعرضاً للعواصف والزوابع . وكان الولاة لايفتأون عن مراقبة المناورات التي تحاك ضدهم في القسطنطينية مراقبة دقيقة ، وكانوا يتفادون شر هذه الدسائس عن طريق تقديم الهدايا التي تكسب لهم اصدقاء لدى حاشية السلطان .

هذا وليس بوسع ادارة قد اعتورها الضعف ونخرها الفساد ان تأنس في نفسها السلطة الرادعة لجموح السكان . ولكن هذه السلطة النخرة كانت تمارس بمهارة فن « فرق تسد » . واليكم ما يقصه بهذا الخصوص قنصلنا العام في بغداد خلال عام ١٨٤١ مسيو دى فيمار . قال : « ان سياسة الباشا تنحصر في تأريث نيران العداوات الطبيعية بين جموع العشائر الكبيرة الذين هم فوق ذلك لايتوقفون عن شن الغارات على العشائر الصغيرة . والباشا هذا لايسلط زبانيته على هذه العشيرة ويذيقها طعم العذاب الا ويغدق نعمه على العشائر الاخرى في الوقت نفسه . حتى حذت العشائر حذوه في سلوكها مع بعضها . . ولهذا ساءت الحالة في هذا القطر واصبحت تبعث على الحزن والأسف . ولما كان الامن مفقوداً فان الاراضي تظل مهجورة . اما افراد القوات النظامية فلم تدفع لهم رواتبهم منذ ثلاثة عشر شهراً . ولهذا يظهرون بين حين واخر بمظهر التذمر فيقومون بتمردات وعصيانات

صغيرة . أما الاعراب المحدقون بتخوم القطر فلا تكبح جماحهم الا ببعض الخدع الطفيفة التي تنطلي على ذقونهم وإلا باتباع اساليب تفريق الصفوف وتفتيت الكتل التي يحسن الباشا اللعب على حبالها بمهارة فيضرب العشائر بعضها ببعض ، ومع ذلك فانه لم يكن ليصل الى تحقيق مآربه الوضيعة لولا مساعدة الخصي العجوز له (كذا) المسمى (ملا علي) والذي هو في الحقيقة والواقع سيد المدينة .

وملا علي هذا الذي كان قاسياً كل القسوة في شبابه وفي كهولته مثله مثل كافة الافراد من شاكلته يبدو الآن على خلق يتسم بشيء من الاعتدال والهوادة . وهو بذاته لم يكن ليحسب له حساب ولكنه بتزوجه من احدى بنات شيخ من الشيوخ يجله ويحترمه الاعراب لانه من اشرف الاسر الاصيلة قد اكتسب بهذه الوسيلة نفوذاً يمارسه على بعض العشائر المجاورة لبغداد .

وبمعاونة هذه العشائر اصبح يهاجم ، في احايين كثيرة ، العشائر الاخرى فيكتب له النجاح ويخمد فورة هؤلاء المساكين بوسائل اجرامية فظيعة لايتورع عن استعمالها . ومنذ ان وضع نفسه في خدمة الحكومة المحلية قبل بضع سنوات فانه يقيم على ابواب بغداد قوة من الخيالة اللانظامية التي يعتمد عليها دون انقطاع في شن الغارات في الصحراء لفرض الاتاوات على عشائرها او لقمع أي تمرد او عصيان ضد السلطات المحلية يحدث في تلك الربوع . (٨)

وقد ظلت هذه الاجراءات حتى بعد خمس سنوات من هذه الفترة هي هي . ولكن اضيف اليها شيء جديد هو الاختلاس فازداد الطين بلة .

---

(٨) الرسالة المؤرخة في ٦ اب ١٨٤١

واليكم ما كتبه قنصلنا بهذا الشأن . قال « ان سياسة الباشا ليست هي ضرب العشائر بعضها ببعض فحسب ولكن بخلق منافس دائمي لكل شيخ من الشيوخ ومن بين اعضاء اسرة الشيخ نفسها . وفي ايام حكم اسلاف الوالي الحالى كانت لهذا الاسلوب غاية سياسية او ادارية . وكان لهذا الاسلوب كما يكون لكل اسلوب معقول قواعده وحدوده . أما اليوم فليس للوالي الحالي من غرض الا اكراه الشيوخ وارغامهم ، لاعلى زيادة مبالغ الاتاوات التي يؤدونها الى السيد الكبير فحسب ، ولكن اجبارهم على اضافة مبالغ هائلة اخرى بصورة سرية فوق المبالغ المفروضة عليهم من قبل تدفع الى الوالي والى عائلته . ولاجل حملهم قسرا على تنفيذ هذه الطلبات فان الولاة كانوا يقومون باتصالات يومية مع اشخاص من اقرباء الشيوخ يطمحون الى قيادة العشيرة وترأسها : وتبذل الجهود السرية او العلنية لصالح هؤلاء الطامحين فور عرض مشروع زيادة هذه الرسوم الاخيرة وذلك لاحتمال احلال المتطلعين الى الرئاسة محل الشيخ الذي يمارس اعمال الرئاسة فعلاً ، فينجم عن هذه الحالة الحرجة نتيجتان على درجة كبيرة من الخطورة . النتيجة الاولى هي ان اقل تردد يبديه هذا الشيخ في ارضاء الطلبات الشخصية للباشا او لآله تجعل المنافس الذي تسانده الحكومة المحلية يخول بان يضع نفسه على رأس ما يشاء من الفرسان الذين بوسعه جمعهم وان يعيث سلباً ونهباً في اراضي العشيرة . وهو تخويل يستعمله هذا الطامع في المشيخة لاختطاف قطعان المواشي ولتجريد القوافل من اموالها في اي بقعة يستطيع النفوذ اليها ، وكل ذلك في سبيل توفير الوسائل التي تمكنه من الاستحواذ على الرئاسة المرتقبة والسيطرة على مؤيديه بارشائهم بالاموال . اما النتيجة الثانية فهي ان العشائر العربية التي لايمحى من ذاكرة ابنائها اي تقليد من

تقاليدها التاريخية — لانهم قد اعتادوا على ان يحكموا من قبل رجال على درجة رفيعة من حسن الخلق — يفقدون كل حرمة واعتبار للحكومة المحلية » . (٩)

وهكذا نشهد أي وسائل خسيسة كان يلجأ اليها الولاة في سبيل ابقاء العشائر تحت طاعة السلطان . كما نرى الآثار المحزنة على هذه الدرجة من الانحطاط والاسفاف . ولكن ينبغي علينا ان نعترف بأن جشعهم قد حرمهم من وسائل اخرى العمل . ذلك لان جنودهم اللذين كانوا لا يتقاضون رواتبهم إلا بشق الانفس وخلال مدد متباعدة لم يكونوا ليظهروا أي اندفاع في قمع الثورات ، وكان حظهم في الحقيقة حظاً تعيساً بائسا . واليكم ماكتبه بهذا الشأن مسيو سيوفى معتمدنا في الموصل في عام ١٨٨٠ فصور الحالة اروع تصوير . قال : « لقد اراد نائب ضابط كان قد انهى مدة الخدمة العسكرية منذ شهرين تقريباً ان يعود الى احضان أهله وحيطان بيته . ولكن لم يكن لديه المال اللازم لانفاقه على رحلته الى مسقط رأسه . ومع ذلك فقد كانت الخزينة مدينة له برواتب اربعين شهراً . وهي الأشهر التي لم يستطع الحصول على مبالغها . ولم يفلح في حمل السلطة على دفع مرتب شهر واحد فقط له الا بعد توسلات كثيرة ، فاستبد به الهياج وتملكه اليأس وتحطم قلبه ومضى فى طريقه الى اسرته مثقلاً بكل هذه الاحاسيس المؤلمة . وكانت سفرة مشحونة بالتعاسة والشقاء نظراً لضآلة موارد السفر . وبينما كان يعاني ما يعاني من اوجاع علم في احد الايام بأن عصابة من الشقاة الاكراد قد خيمت في تلك الاطراف . فتوجه الى الجهة التي احتلتها العصابة وبادر صوب رئيس الشقاة عارضاً عليه الحالة المزرية التي وضعته فيها الحكومة

---

(٩) الرسالة المؤرخة في ٢٩ نيسان ١٨٤٦ .

المحلية التي نهض باعباء خدمتها فترة طويلة من الزمن . ورجاه بأن يمد يد المعونة اليه . فسأله رئيس العصابة عن المبالغ التي ربحها من خدمته للأتراك . فأجاب نائب الضابط قائلاً : « تقاضيت منهـــا مبلغاً قدره كذا كل شهر واربعة امتار من قماش في كل سنة اكسو به جسدي » . فحسب حساب ما يستحقه نائب الضابط من رواتب حسابا دقيقاً ودفعت رواتب الاربعين شهراً الى هذا المحارب القديم . أما عن القماش فان رئيس الشقاة صرح للنائب الضابط بأنه لا يملك متراً يستعمله في ذرع القماش ولكنه سيستعمل الرمح بدل المتر . . ولا شك ان النائب الضابط الملتمس قد ربح من اتخاذ هذا المقياس الطولى الجديد نظراً لانه على الاقل قد ضاعف اربع مرات كمية القماش المطلوب » . (١٠)

وها اننا ندرك من قراءة هذه القصة ان المهنة العسكرية لم تكن ذات جاذبية عظيمة لنفوس الشبان اليافعين الذين كانوا يجاهدون بكل ما لديهم من طاقة للافلات من شباكها . وقد سن قانون فرض الخدمة الاجبارية عام ١٨٨٨ ولكنه لم يشمل البدو فازداد فرح الاطباء وضباط التجنيد الذين كانوا يبيعون بأسعار فاحشة قرارات الاعفاء من الجندرمة . وبالاضافة الى ذلك فقد كان لفرض التجنيد الاجباري نتائج غير متوقعة يروي لنا اخبارها قنصلنا في بغداد مسيو پونيون فيقول : « إن تطبيق القـانون الجديد قد أحدث حتى في بغداد نفسها تأثيراً قوياً في اوساط اللصوص وقطاع الطرق . فان اعراب بلاد ما بين النهرين يتزوجون بصورة عامه في سن مبكرة جداً وان جميع الذين يدعون الى الخدمة العسكرية يكونون قد اصبحوا ارباب عوائل ، ولما كانت تغذيتهم سيئة بالاضافة الى انهم لا يتقاضون بصورة عامة أي مرتب كان

---

(١٠) الرسالة المؤرخة في ١٦ تموز ١٨٨٠ .

فهم عاجزون عن اعالة عوائلهم . لهذا كانوا يهربون اثناء الليل من الثكنات العسكرية ليهاجموا ويسلبوا السابلة . وكل اعمال القتل التي وقعت في هذه الايام الاخيرة كان معظم مرتكبيها من بين هؤلاء المجندن لخدمة العلم . اما السلطة فلم تواجه هذه الظاهرة بأي اجراء حازم اهمالاً منها أو لعجزها عن العمل : فاتصلت حلقات الجرائم فاصبح من الخطر الخروج الى الطرق بعد غروب الشمس دون ان يكون المرأ مسلحاً ولو كانت هذه الطرق من اكثر المسالك التي يجتازها سكان المدينة ذهاباً وايابا (١١)

ولم يكن الضباط ليعاملوا معاملة أفضل . فكانوا في احايين كثيرة يدفعون من جيوبهم رواتب جنودهم تجنباً للقلاقل الخطيرة التي قد يثيرها تأخر دفع الرواتب لهم . ولكنهم لم يكونوا ليلدغوا من جحر مرتين . فان قنصلنا في بغداد يفسر لنا على سبيل المثال احدى وقائع عام ١٨٨٨ حين وجدت السلطات نفسها واقعة في مأزق حرج اذ توجب عليها قمع عصيان انطلقت شرارته قرب كركوك . فيكتب القنصل ما يلي : « كان المفروض ان تعهد قيادة الحملة الى محمد باشا . ولكن محمد باشا الذي وجد نفسه مرغماً اثناء حملة العام الماضي على تسليف الدولة ثمانمائة ليرة ذهبية لنفقات عساكر هذه الحملة لم يستطع حتى هذه اللحظة استيفاء المبالغ التي صرفها . فأعلن انه مريض وافهم من حوله انه لن يبل من مرضه الا بعد ان يسترجع نقوده . ولما كانت خزائن الولاية خالية خلواً تاماً ولم تكن السلطة العليا معتادة على تسديد ديونها فان محمد علي قد واصل مرضه . وكانت هذه الواقعة بالاضافة الى صعوبة توفير المال اللازم السبب في تأخير رحيل القوات المسلحة لتأدية واجبها » .

---

(١١) الرسالة المؤرخة في ٢٩ شباط ١٨٦٨ .

وعلاوة على ذلك فان الحملات التي كانت ترسل لقمع ثورات العشائر البدوية لم تكن تعود بأي جدوى : اما علة هذا الاخفاق فهى كامنة في ثنايا رسالة واردة من قنصلنا في الموصل عام ١٨٥٤ الا وهو مسيو پلاس[١٢] حين يحدثنا عن غارة شنها الاعراب البداة على ارباض هذه المدينة فيقول : « في اثناء هذه الحوادث فقط استطعت ان أقدر قيمة القوات العثمانية ضد عدو ليس له من قوة ومن حول وطول الا بعض الخفة والنشاط . ففي حين كانت المسألة هي مسألة ارسال بعض الفرسان لمداهمة هؤلاء الاعراب — وهم منهمكون بأعمال السلب والنهب والغنائم وقد اشغلتهم هذه عن كل ما سواها — فان القوات العثمانية قد اضاعت وقتاً ثميناً فى اعمال الاستعداد والتهيؤ للحملة . اذ قد ضيعت في هذه الاعمال يومين كاملين . وعندما تحركت هذه القوات كان يتبعها من بغال الحمل حاملة حقائب الامتعة والاقوات أكثر مما لديها من الجياد المركوبة . وذلك لان الباشوات يلزمهم في كل مكان وحتى في اوقات الحروب من مواكب الخدم والحشم وأجهزتهم ومن البسط والسجاجيد ومن السرر والمنامات ومن الاغطية الشيء الكثير . وكذلك الحالة هي هي لدى الضباط . وحتى الجنود تلزمهم أشياء كثيرة دون احتساب الغلايين والاجهزة الخاصة بطبخ القهوة . لذلك كله اضاعت هذه الحملة الثقيلة منذ البداية كل اثار الاعراب الذين كانوا قد ابعدوا عن الحملة مسافة تقدر بمسيرة يومين . وبدلا من ارسال قوة استطلاعية في كل الاتجاهات لمعرفة أي اتجاه سلكه هؤلاء النهابون فافلتوا من نيران الحملة فان العساكر قد تقدموا كيفما اتفق في دروب الصحراء مقتفين خطى القوافل . فتوقفت الحملة عن المسير بعد يومين من الزحف . وداهم المطر هذه القوة فتوقفت

---

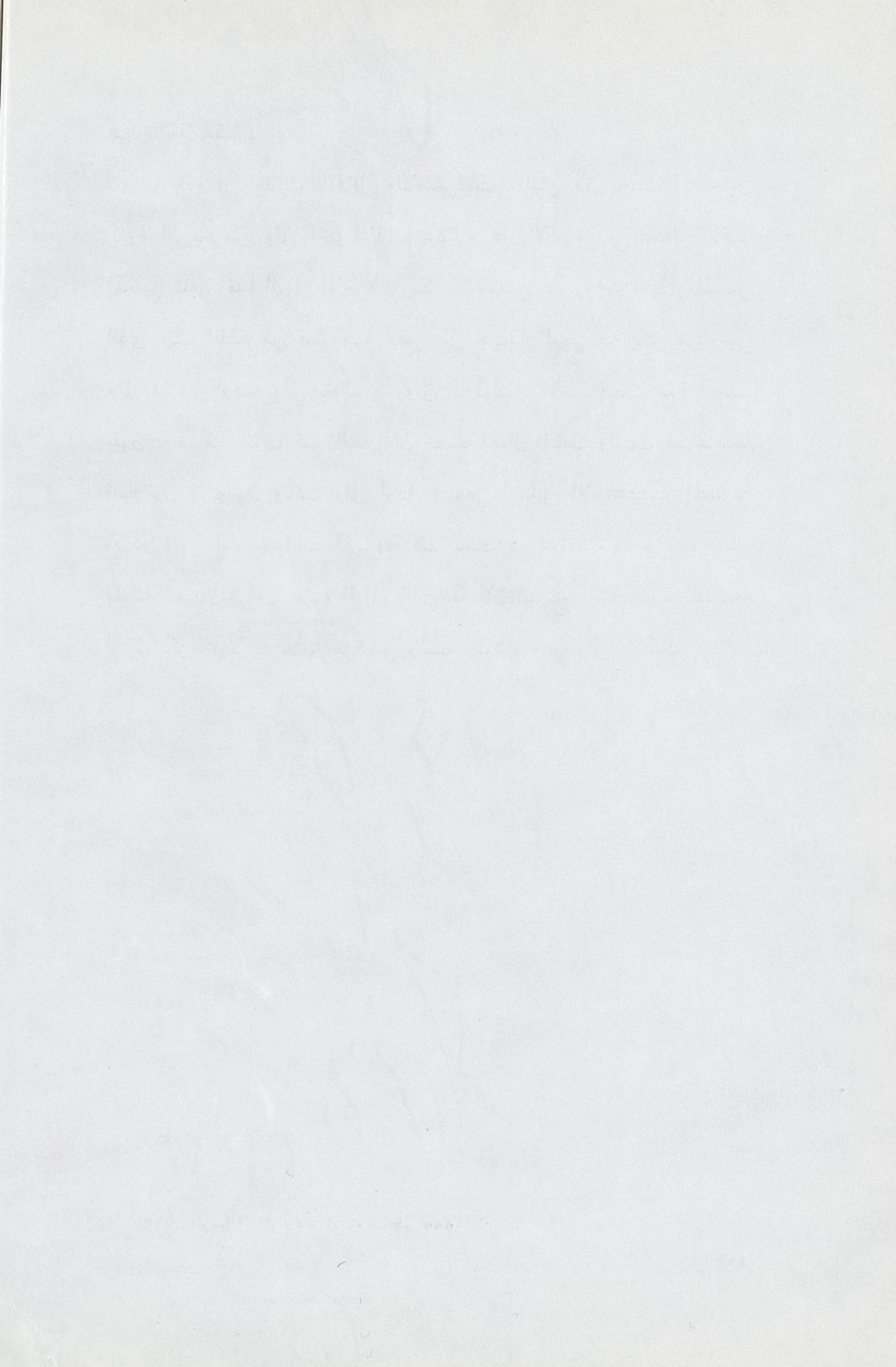
(١٢) راجع هامش ٤ـب ص(١١) من هذا الكتاب . (س١٠)

عن متابعة تعقيباتها » (١٣)

وزيادة في احداث القلاقل والاضطرابات والفتن كان يحدث في احايين كثيرة ان يحرض والي احد الاقاليم عشائره على الاغارة على عشائر الاقليم المجاور لغيرة هذا الوالي الاخر . وهذا ما وقع في عام ١٨٥٤ لوالي الموصل الذي نهب اقليمه من قبل بدو دفعوا الى هذا العمل بتحريض من زميلي والي الموصل وهما والي بغداد ، ووالي كركوك . فكتب قنصلنا بهذا الصدد يقول : « لقد علمت علم اليقين ان حصيلة اعمال السلب والنهب قد تقاسمها السلابون والنهابون ونائب والي اربيل (وهي اربيلس الاسكندر المقدوني الاكبر) . . اما الحيوانات المسروقة فقد بيعت على ملأ الاشهاد في سوق هذه المدينة تحت اشراف نائب الوالي الذي ما كان ليسمح بامثال هذه الفضيحة لو لم يكن مخولاً بارتكابها من قبل رئيسه المباشر وهو والي كركوك » .

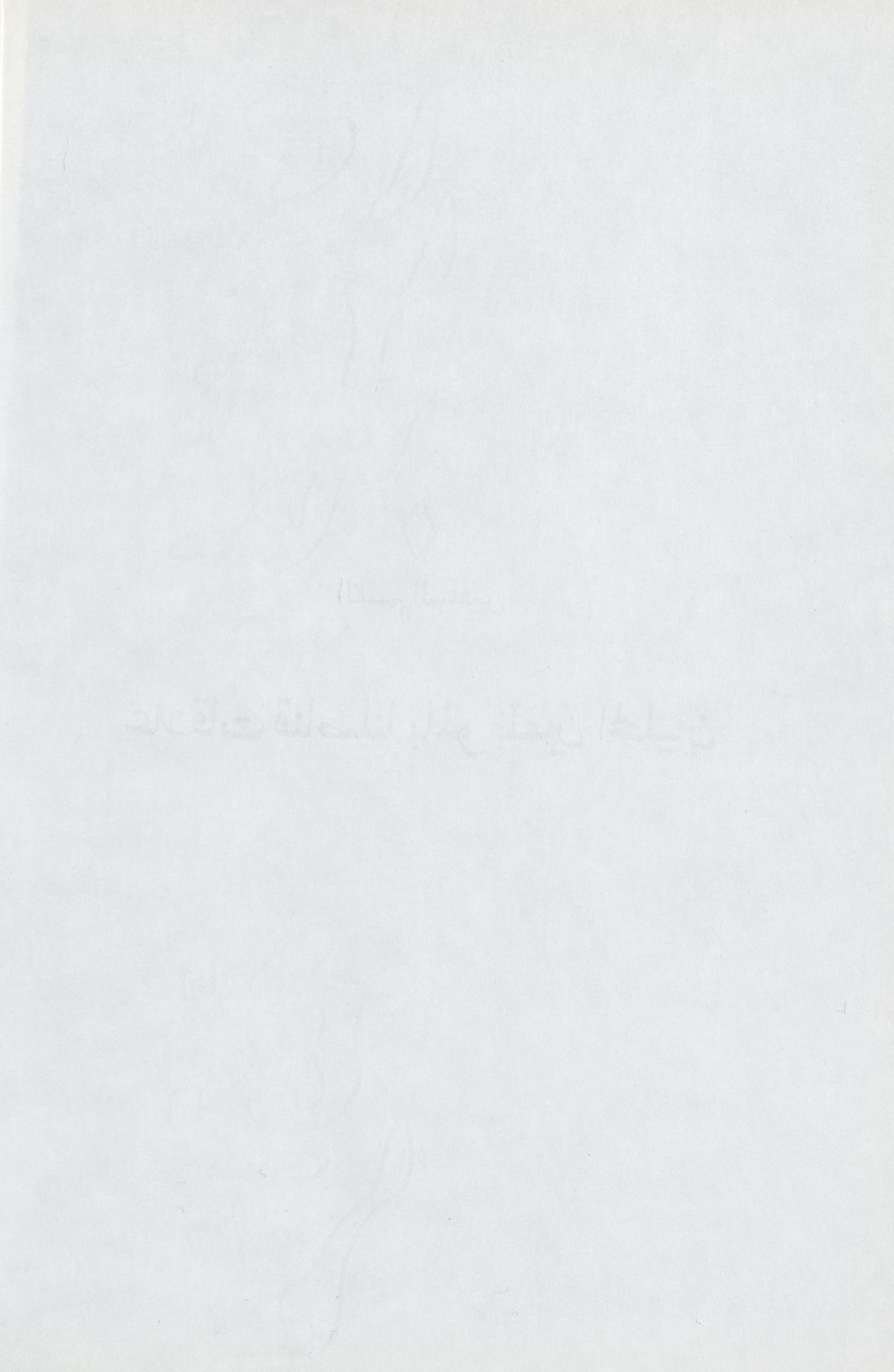
---

(١٣) الرسالة المؤرخة في ٦ شباط ١٨٨٨ .



القسم السادس

علاقات قناصلنا بالموظفين المحليين



من السهولة بمكان ان نتصور مهمة قناصلنا التي كانت في بعض الاحيان غارقة في الصعوبات من جراء التعامل مع موظفين متعصبين تباع ضمائرهم في اسواق النخاسة . او هم بابسط عبارة غير اكفاء بل عاجزون عن اداء مهماتهم اداءاً صحيحاً سليماً . وزاد الامور تعقيداً على تعقيد ان نظام الامتيازات الذي كانت بنوده نافذة المفعول في تلك الحقبة كان يعترف لهم بنوع من انواع حق الاشراف على الادارة بالاضافة الى حماية رعايا السلطان الكاثوليك . وهذا الضرب من ضروب الوصاية الذي كان يمارس احيانا بصورة تعوزها الحنكة والكياسة كان يغيظ عدداً كبيراً من المسلمين . اما حاشية السلطان نفسه فلم تكن لتتقبله الا مرغمة وعلى مضض . ولهذا نرى قناصلنا يتوجهون بشكاواهم التي لا ينقطع سيلها الى السفارة الفرنسية في القسطنطينية مستندين في دعاواهم هذه الى القانون . في حين ان هذه الادعاءات تبدو لنا احيانا مجانبة للتعقل مغالية مبالغة بالنسبة للحوادث التي تدفعها الى هذه الشكاوي . اما السفارة فيبدو انها كانت قليلة الاهتمام باستعمال الثقة التي تتمتع بها والنفوذ الذي تملكه لمواجهة الباب العالي بشأن مشاجرات ومشادات تقع على مسافات بعيدة منها مع اشخاص لا تؤهلهم رتبهم للعناية بمشاكلهم كثيراً .

ولهذا كله كانت هذه الشكاوى في معظم الاحيان تافهة لا معنى لها في نظر السفارة الفرنسية في القسطنطينية . ولكن السفارة لا تقف عند هذا الحد فهي تؤنب القنصل وتهنئه في الوقت نفسه على عدم اغفاله المطالبة بتطبيق

اتفاقية الامتيازات وما تمنحه من حقوق للفرنسيين والمشمولين بحماية الفرنسيين وتشير عليه كذلك بالتجمل بالصبر والتحلي بالاعتدال .

ولكن حين تتفاقم القضية او يطول امرها (فبعض القضايا تدوم بضع سنوات) فان السفارة تتوجه الى وزارة الخارجية التي تتطلب حينئذ توضيحات من جانب القنصل موضوع المشكلة فيجيب هذا جوابا يرضيه او لا يرضيه ويقنع الوزير او لا يقنعه .

وكان منشأ هذه المنازعات بين الولاة والقناصل هو المشادات التي تقع في اغلب الاحوال حول حقوق التقدم والصدارة . وقد ذكرت قبل هذا تحسسات بعض معتمدينا المفرطة . تلك التحسسات التي لا يسعني إلا الاعتراف بمشروعيتها والتي يلعب فيها (ماء الوجه) أخطر الادوار .

ولهذا السبب بالذات تمنع قنصلنا العام في بغداد عام ١٨٤٠ وهو مسيو دى فيمار مدى اربع سنوات عن اقامة علاقات رسمية مع الوالي لان هذا الوالي لدى وصوله الى بغداد كان قد زار اول من زار المقيم البريطاني وهو في وظيفته اقدم من زميله الفرنسي في منصبه . في حين ان القنصل الفرنسي كان يزعم ان اتفاقية الامتيازات تخوله الشياخة والرئاسة ، فلم تدعم السفارة موقفه الا بليونة ورخاوة . ومع ذلك استطاعت حمل الباب العالي على توجيه رسالة طافحة بالتبويخات والتقريعات الى الوالي الذي لم يقم لهذه الرسالة اي وزن .

فراجع القنصل العام وزارة الخارجية الفرنسية . فاشارت عليه كما هي عادتها بالتسامح والتصالح . واستطاع قنصلنا العام ان يكتب اخيراً الى رئيسه بلهجة المنتصر الرسالة التالية : « لقد تعمقت كل التعمق في الآراء التي شرفني معاليكم فشرحها اجمل شرح . فلم انقطع منذ وصول توجيهاتكم الي

عن بذل كل جهودي لاستئناف العلاقات الحسنة مع الباشا دون نسيان التمسك بمراعاة كرامة المسؤوليات التي اتقلدها . هذه العلاقات التي طعنها الباشا في الصميم من جراء خرقه لحقوق التقدم والصدارة واعتدائه على حقوق المرتبة العليا والقدم . تلك الحقوق التي داس عليها الباشا بقدميه منذ ان وطئتا تراب بغداد . وإنني مغتبط كل الاغتباط بحمل هذه البشرى الى معاليكم . وهي ان الباشا بعد مفاوضات طويلة خيرني بين قيامه بزيارة رسمية للقنصلية العامة بصفة رتق ما انفتق وبين رسالة اعتذار فوافقت مؤيداً من قبل سفيرنا على الاقتراح الاخير » . (١)

ولكن هذا الوفاق اللطيف بين الرجلين لم يدم إلا قليلاً . فقد شكا الباشا الى السلطان تصرفات القنصل العام السيئة تجاهه . فرفعت السفارة الشكوى الى وزير الخارجية الذي انفعل بدوره من هذه الحالة . فكتب في عام ١٨٤٥ الى القنصل العام يقول : « سأتأسف كل التأسف لو صحت الوقائع التي نسبت اليك . لانك بتصرفاتك هذه ستكون قد تخطيت حدود صلاحياتك وتجاوزت طورك . ولا يسعني إلا ان ادعوك الى سلوك جادة الصواب في المستقبل ... وانني سأكون اول من يعنفك على التفريط باعتبارات تتعلق بحقوقك او بكرامة الوظيفة التي تشغلها . ولكنني من الجهة الاخرى اراني مرغماً على ايصائك بأن تتجنب بكل حذر واحتراس كل ما من شأنه ان يعقد ويكدر علاقاتك مع السلطة الرئيسية في الاقليم الذي تقيم فيه دون ضرورة ملحة » . (٢)

فأجاب قنصلنا العام عن هذا الاتهام بالرسالة الطنانة التالية : « ارجو من معاليكم ان تسمحوا لي قبل كل شيء بشكركم شكراً مشفوعاً بالاكبار

---

(١) ألرسالة ألموءرخة في ١٠ تموز ١٨٤٤ .
(٢) ألرسالة ألموءرخة في ١٥ تشرين الاول ١٨٤٥ .

والاحترام على تفضلكم بالسماح لي بالاجابة على التهم الموجهـة الي : وانني مغتبط يا سيادة الوزير ، بأن أرى في مقدوري أن اضع بين يدي تقديركم السامي وقائع سبق لي عرضها على انظـار سيادة سفير الملك في القسطنطينية ولكنني كنت قدرت عدم وجوب تكدير صفاء مزاج معاليكم بها . في حين ان شعور الاحترام العميق الذي اكنه لاوقات معاليكم قد اعاقني عن عرض كل المتاعب ، التي اعانيها منذ ثلاث سنوات ، على انظاركم ... وكل هذه المتاعب اكابدها في سبيل رعاية مصالحنا والحفاظ على اعتبارنا في هذا القطر ضد غوائل والي بغداد الحالي . وان احساسي بواجباتي قد اضطرني على العكس من ذلك الى ان ادلي بكل ما في القضية من تفصيلات ودقائق الى ممثل جلالته في القسطنطينية . . . فحسبي اذن يا سيادة الوزير ، اطاعة للاوامر التي اصدرتموها الي وتبديداً مؤملاً للشكوك التي تساوركم نحوي من جراء الشكاوى الملفقة التي دبرها والي بغداد وعساها لا سمح الله ان تكون قد فعلت مفعولها في ذهن معاليكم عن قاعدة السلوك التي اختططتها لنفسي في ادارة قنصليتي العامة — حسبي يا صاحب المعالي ، ان اضع تحت انظاركم مراسلاتي مع السيد سفير الملك في القسطنطينية التي تتضمن مختلف الوقائع » . (٣)

وقد اضاف مواطننا الى برقيته عدداً من رسـائله الموجهة الى سفارتنـا التي اختار من بينها هذه الرسالة التالية وهي تثبت ان المصالحة التي وقعت في السنة السابقة لم تغير في الواقع شيئاً من حالة الاشياء السالفة . واليكم هذه الرسالة : « في اليوم الثالث من شهر تشرين الاول المصادف لليوم الاول من عيد الفطر المبارك تلقى الباشـا زيارة قنصـل انكلترا التقليدية

---

(٣) الرسالة المؤرخة في ٨ شباط ١٨٤٦ .

المعهودة في مثل هذه المناسبة . وقد حدثت الزيارة فور افتتاح السراي نتيجة تواطوء مسبق بين الاثنين . وهـذا الاجراء الذي وقع باتفـاق الاثنين منذ الليلة السابقة جعل من المتعذر عليّ ممارسـة حق استقبالى في هذه الزيارة بوصفي عميد السلك القنصلي في بغداد قبل استقبال السيد قنصل انكلترا الذي كما يبدو لا يريد من الآن فصاعداً الاعتراف بحق القدم الذي نص عليه مؤتمر (فينا) ، كما ان الباشا لم يعترف بحقوق التقدم والصدارة التي منحتنا اياها اتفاقية الامتيازات . ولهذا اقتصرت على ارسال مستشار القنصلية العامة ليقوم بمراسيم تهنئة الباشا » (٤) .

ومن هنا نشأ هيجان الوالي الذي اثار تظلمات جديدة عزا اسبابها الى ممثلنا الذي اجابه بلهجة حازمة حادة قائلاً : « لا صحة بالمرة لما تزعمونه رفعتكم من القول حول هـذا الموضوع من ان علم القنصلية لا يرتفع لدى مرور (قايغ) ★ زورق عزتكم الذي ترفرف عليه الراية العثمانية وهو يتهادى في نهر دجلة امام دار القنصليـة الفرنسية . لانني على الدوام كنت بنفسي آمر برفع العلم امامي لافوق القنصلية الفرنسية فحسب وانما كذلك فوق (قايغى) زورقي نفسه . وهناك مائتـا رجل بوسعهم الادلاء بشهاداتهم لتأييد مدعاى هذا . واخيراً فان مقامكم لم يستطع الكتابة بصورة جدية رغم انه سجل ذلك في رسالته من ان المستشار وهو الضابط الاول في هذه القنصلية العامة بعد القنصل العام ليس هو في مرتبـة تؤهله للقيـام بمراسيم تهنئة ولايتكم . وذلك لانه ان لم يكن اهلاً لتهنئة سدتكم فماذا علي ان افترض تفسيراً لمقاصد جنابكم بهذا الشأن في ارسالكم شرطياً ليس له حق الجلوس امام رؤسائه الاعلين ؟ انى ليؤسفني كل الاسف ان اراني مضطراً الى فضح

---

(٤) الرسالة المؤرخة في ١٥ تشرين الاول ١٨٤٥ .

(★) قايغ كلمة تركية بمعنى زورق . وقد استخدمها المؤلف في كتاباته .

(س٠أ)

جملة من الادعاءات غير الصحيحة التي وردت كلها في رسالة واحدة من رسائل حضرتكم وان اقول ان هذه الاخطاء التي من السهولة بمكان على معاليكم تجنبها قد تركت لدي القليل من الامل في رؤية تصرفات تصدر من جانب معاليكم منسجمة والمشاعر التي تقوى الروابط بين حكومتينا الساميتين (كذا) ولا يسعني الا اعلام سفارة الملك عن قلة الاستعداد التي يظهرها معاليكم في معاملة القنصلية العامة للملك معاملة تليق باستحقاقها » .

ومن قراءة هذه الرسالة نستطيع ان نفهم لماذا بدت مشادات الزيارات والرايات تافهة كل التافهة امام مسيو (گيزو) الذي كان يدير حينئذ سياستنا الخارجية — فلم يشأ ان يجر على نفسه صعوبات في القسطنطينية في سبيل تهدئة مشاعر ممثلنا في بغداد . وعلى ذلك فقد تفاقمت المشاكل الى ان بلغت في عام ١٨٤٦ ذروتها حين اقتحم جنود مدججون بالسلاح دار القنصلية الفرنسية ورفض الوالي معاقبتهم فاستحق مواجهته بالرسالة التالية : (مادمتم معاليكم تصرون على رفض تأدية التعويضات المشروعة التي طلبتها منكم الي ، وبناء على تشجيعكم جنودكم هكذا على خرق حرمة محل اقامة القنصل العام وفي الوقت نفسه ردكم طلبي باعطائي الفرامين وقوات الحراسة الضرورية للخروج من هذه الولاية (الباشلق) حيث لم تعد داراً آمنة لمعتمدي جلالة ملك الفرنسيس ، لذلك لم يعد بوسعي إلا التوجه الى الحكومة العثمانية صاحبة ارفع مقام في الدنيا بهذا الخصوص طالباً التعويضات اللازمة عن هذه الاهانات الفاحشة . وبانتظار تلبية طلباتي ارى وجودي من جراء تصرفات معاليكم غير قادر على القيام باداء المهمات المنوطة بي من قبل جلالة ملك الفرنسيين ولهذا سيكون نشاطي مقصوراً قدر الامكان على رعاية مصالح ابناء جلدتي . ولكن يجب علي ان اعلن لمعاليكم بانني منذ الآن ساقطع كل علاقة بمعاليكم

او بموظفيكم سوى العلاقات الضرورية لحفظ مصالحنا »

وقد قص قنصلنا قصة هـذه التصرفات على السفارة واعتذر عنها بهذه العبارات : « سيكون من دواعي بهجتي واغتباطي لو استطعت اقناع معاليكم بانني حاولت كل المحاولات السرية والعلنية لتبديل نزعات التشاحن والتهاتر الكامنة في نفس الوالي وفي نفوس اولاده . واذا كان اي طريق آخر سوى طريق الحزم المتواصل لم يعد مفتوحاً للدفاع عن حقوقنا التي كانت تهاجم في كل يوم بجرأة لايمكن تفسيرها الا بأمل اسناد رفيع في القسطنطينية فانني اكون قد اتبعت هذا الطريق بغبطة وتعجل . وانني اتجاسر فأؤمل من معاليكم تأييدي في موقفي هـذا . وانكم لوراجعتم السنين الثلاث الاخيرة لتذكرتم معاليكم كم كانت اعمال المقاومة مصحوبة بالصبر الذي املته علي كرامة الاسم الفرنسي » (٥)

ولكن الوالي هـذه المرة كان قد تعدى طوره فاوغل في الاساءة ولم تستطع السفارة الآن ان تتجاهل الصفعة التي صفع بها ممثلها ، فتدخلت بشدة وحزم لدى الباب العالي وارغم هذا البـاب ارغاما على توجيه توبيخ صارم الى الوالي . ذلك لان تصرفاته قد قلبت الامور راساً على عقب . وانتظر قنصلنا عدة اسابيع قبل ان يزف هذا الحل السعيد الى باريس . هذا الحل الذي غمر قلبه بالبهجة والحبور فكتب حينئذ يقول : « لقد كان من دواعي اغتباطي ان ارى والي بغـداد يتخلى عن محاولاته في حمل حكومة الملك والحكومة العثمانية على قبول الاتهامات التي بمعونتها كان يبحث عن وسيلة لتبرير الاعمال السيئة العنيدة التي قام بها تجاه ممثلينا الفرنسيين في دمشق . فعقد العزم على سلوك طريق اكثر نظامية واكثر ملاءمة للعلاقات القائمة بين

---

(٥) الرسالة المؤرخة في ١٧ كانون الثاني ١٨٤٦ .

الدولتين . ومع ذلك وبالرغم من ارتياحي الشديد من انتصاري على سخافاته المتأصلة في نفسه بعد صراع طويل أليم ، ومع حرصي على المبادرة التي تناسب كرامة ممثل الملك الفرنسي في مجاراة التصرفات المرضية التي عبر لي عنها الوالي فانني قد تعمدت التريث قليلاً خشية عودة الوالي الى عادته القديمة وخوفا من حدوث عقبات لها تأثيرات معاكسة فاجلت تبشير معاليكم بالتبدل الذي طرأ على علاقتنا . اما اليوم بعد ان حصلت تقاربات متواصلة خلال ثلاثة اشهر وتوطدت علاقاتنا وتحسنت يوماً بعد يوم فاصبح في مقدوري ان أؤدي الى الوالي عدة خدمات يبدو انه يعترف بجميلها فانني من الوثوق بالنفس في درجة تسمح لي ان اعلم معاليكم بأن علاقاتي معه الآن هي على احسن ما يرام . وهكذا يحق لي ان اهنىء نفسي على هذه النتيجة التي اقتضت ثلاث سنوات من المشاق المضنية ولاشك ولكنها مع ذلك توجت بصيانة كرامة حكومة الملك صيانة تامة تبعث على الفخر والاعتزاز والتي كان من ثمراتها جعل احد كبار الموظفين العثمانيين يتحسس بتحسسات مختلفة تجاه المصالح الفرنسية التي كان من ألد اعدائها » (٦) .

والواقع ان الوالي قد اعترف بحق التقدم والصدارة لقنصلنا واقام حفلة استقبال على شرفه لختم مصالحتهما بها . ومنذ اقامة هذه الحفلة لم يقع اي شقاق بين الرجلين طوال ايام السنتين اللتين قضياها معاً في بغداد . وقد دلل ممثلنا اخيراً على صواب رأيه في عناده واصراره على وجود سوء نية لدى خصمه . ومهما بدت فكرة العزة القومية مضحكة لاذهان المواطنين الاوربيين فاننا لانستطيع ان نحول دون الاعجاب بالشعور الذي كان يخالج حينئذ معتمدينا بوصفهم مواطني دولة عظمى . كما لايسعنا الا تقدير المتاعب

---

(٦) الرسالة المؤرخة في ٢٤ تشرين الاول ١٨٤٦ .

التي كانوا يتجشمونها في فرض احترام هذه الدولة حتى في اهون الامور .

ولكن لم يكن الجميع يخرجون راضين مطمئنين من منازعاتهم مع السلطات المحلية . فان احد قناصلنا قد ذاق مرارة هذه التجربة بعد بضع سنوات . فما ان وصل هذا القنصل لى بغداد في عام ١٨٦٦ حتى دخل في مشادات سرعة مع الوالي الذي رفض ان يؤدي له مراسيم الحفاوة التي كان يؤديها لزميله البريطانى . وقد اخبر هذا القنصل وزير الخارجية بانه لن يتحمل هذه الاهانة برضا وطواعية . فكتب اليه يقول : « كنت رجوت السفارة ان تتفضل فتعمل على اصدار الاوامر المشددة الى بغداد بالكف عن القيام بمثل هذه الاعمال التي نقابل بها وذلك باقصى سرعة مستطاعة . وبانتظار هذه الاوامر ارى نفسي مرغما مع الاسف الشديد ان ابادل الوالي وقاحة بوقاحة وصفاقة بصفاقة » . فقلق الوزير بعض القلق تجاه هذا التهور ودعا القنصل الى « استعمال الحزم عند الاقتضاء تجاه الوالي على شريطة التمسك باحترام الاعتبارات والمواضعات المرعية قدر المستطاع فان هذه هي الحنكة بعينها » .

وقد فعل هذا التنبيه فعله في نفس قنصلنا فلاذ بالهدوء والسكينة بضعة اشهر . ولكن في شهر مايس من عام ١٨٦٨ حدثت له مشاحنة مشهودة مع قاضي المسلمين كانت عقباها طلب الوالي العثماني استدعاءه . فطلب الوزير من القنصل بعض الايضاحات فقص عليه قصة المشهد كما يلي : « لقد قمت يوم عيد ميلاد جلالة السلطان بزيارة رسمية للوالي مرتدياً الحلة الرسمية كما تقضي بذلك العادة (موقع الرسالة هو الذي يؤكد هذا) . . ولدى خروجي من داره عرجت على دار قائد القوات العسكرية . فاستقبلني الجنرال لدى باب الصالون استقبالاً في غاية اللطافة والحلاوة كما هو المعتاد . ، ولدى

دلوفى الى هذه الغرفة وقع نظري على القاضي وقد جلس القرفصاء بوقاحة
وقلة حياء وتجاهل وجودى ولم يتزحزح من مكانه فينهض لتحيتي لدى دخولى
كما فعل الآخرون . فدنوت منه بخطى قصيرة دون ان يجتاحنى الغضب وبهدوء
تام . وبعد ان حدجته بنظراتي ببرودة مدى لحظة التقت خلالها عيناي بعينيه
امسكت بلحيته برقة ولطف واستجوبته بهذه الكلمات : « عجباً . أما يرى هذا
الرجل قنصل الامبراطور نابليون ؟ » . فظهر العجب والدهشة على وجه القاضي .
ولكنه ظل جالساً على مقعده . حينئذ اضفت هـذه الكلمات وانا باق على
هدوئي ، ولكنني لم المس لحيته هذه المرة : « ان هذا الرجل يتبجح بانه لم
ينهض لتحية رجل مسيحي . . على رسله . . ولكن بو-عه بعد الان ان
يقول ان رجلاً مسيحياً هز لحيته عندما كان قاضياً لبغداد . فامتعض الجنرال
كل الامتعاض من سلوك القاضي وتوسل الي ان اجلس . فصمدت امام
توسلاته . لان القاضي لم يبد عليه انه يريد التنازل عن موقفه فينهض احتراما
لي ولا ان يغادر القاعة . لذلك امتطيت جوادي من فوري عائداً مع ضباطى
الى دار القنصلية » . وعلى سبيل الاعتذار عما عسى ان يحمله تصرفه هـذا
من اهانة كتب قنصلنا هذه السطور الاستفزازية : « ان هذا الشخص منذ
وصوله الى بغداد يتباهى على ملأ الاشهاد بانه لم ولن ينهض ابداً من مقعده
تحية لرجل مسيحي بالغاً ما بلغت درجة هـذا الرجل المسيحي من الرفعة
والوجاهة . ولذلك فقد تعمد الوقاحة التى مثلها امامي مع سبق الاصرار ،
لان هذا ما علمناه علم اليقين منذ عهد قريب . وقد اراد ان يرى الجمهور
رأي العين تعلقه بحبل الدين الحنيف فدبر توقيت هذه المقابلة معي على ان
تقع في يوم من ايام الاحتفالات . ليظهر في ظرف رسمي احتقاره للمسيحيين
حتى ولو كان ذلك تجاه البزة الرسمية التي تحمل رسم الامبراطور منقوشاً

(هكذا كانت تدعى نقشة اللجيون دونير) وقد جاء هـذا المتعصب يحمل بين جنبيه هذه النية البلهاء منتظراً قدومي الى صالون قائد القوات العسكرية حيث لم اكن اتوقع ان اصادفه قط » (٧)

ولكن يبدو ان الفضيحة كانت اعظم واخطر مما رواها القنصل ، ذلك لان بعض الشهود اكدوا ان قنصلنا لم يمس لحية القاضي مساً لطيفاً رقيقاً وانما امسك بمعصميه بشدة وعنف ليرغمه هكذا على النهوض . فقطع الوالي كل علاقاته معه واستدعته باريس . ولعل هـذه الحادثة تبرر تفكير سكرتير والي آخر كان قد قال عن سيده بانه : « في نظر الديوان احسـن باشا من باشوات الامبراطورية ، ذلك لانه كان احد اولئك الذين تتهاطل ضد تصرفاتهم الشكاوى والاحتجاجات كتهاطل الامطار من قبل القناصل الاجانب » .

ولكن لحسن الحظ لم يكن الولاة جميعهم يستحقون ثناء كهذا من جانب رؤسائهم : فان مسيو تافرنييه الذي ارسـل الى بغداد في عام ١٨٥٠ من قبل الجمهورية الثانية بعد شغور وظيفة القنصلية مدة دامت قرابة ثلاث سنوات فوجىء على العكس من ذلك مفاجأة حلوة الطعم بالاستقبال الرائع الذي قوبل به ولم يكن متوقعاً له . فكتب يقول : « لقد استقبلت من قبل السلطات اجمل استقبال وادعاه للثنـاء والامتنان . اما العواطف التي ابداها كافة طبقات السكان تجاه فرنسا فكانت اجمل واروع . فقد ارسل الاتراك انفسهم واليهود والايرانيون رؤساءهم للاعراب عن سرورهم بمقدمى السعيد مؤكدين لي الشعور بالغبطة الذي غمر سكان المدينة بوصول ممثل فرنسا اليها . وقد تحتم عليّ ملازمة الدار خلال ثلاثة ايام متتالية لاستقبال هذه الزيارات الكثيرة . ويقيني ان سكان هذه البلاد قد شرعوا يدركون اننا لا نؤمل لهذه

---

(٧) الرسالة المؤرخة في ١٠ ايلول ١٨٦٨ .

الاصغاء سوى راحة السكان ورفاهية القطر ولا شيء مما وراء ذلك . ولا استطيع ان اعبر بصورة اخرى عن هذه الظاهرة العفوية لأهالي بغداد تجاهنا . ولن اتوانى عن بذل كل ما في طوقي لاكون عند حسن ظن مشاعرهم الودودة . وقد نسيت ان أخبرك ياسيادة الوزير بأن الوالي قد هيأ لي نفس المسكن الذي كان قد وضعه تحت تصرف المندوب الروسي الذي حل هذه البلاد لحل مشكلة تعيين حدود الممتلكات التركية الايرانية . وهو مسكن لم ينل رضاي ولكن تأدباً من جهة ، وسياسة من جهة أخرى ، رأيت ان الواجب يقضي علي ان امضي إليه واقضي فيه ولو ساعة واحدة . ولم اشأ ان ادع المفترضين يفترضون بانني استغللت عرض الوالي هذا لأظل خلال بعض الوقت عبئاً على عاتق الحكومة . ومن جهة اخرى حرصت على ان يعلم سكان المدينة اهتمام السلطات البالغ باستقبالي . وقد غالى الوالي في المجاملة واللطافة والاريحية حتى لقد ارسل الي جياده الخاصة لذهابي الى قصر الولاية يوم تقديم فرماني . وقد رد علي زيارتي هذه بعد اربعة أيام فزارني بشخصه مصحوباً بالقائد العسكري » .

وبعد ذلك بسنوات ثلاث اثار وصول وال جديد بصورة مجددة قضية الزيارات البروتوكولية للممثلين الاجانب . ولكن هذه المرة وجد كل شيء مبسطاً لان معتمدنا لم يكن يحمل الا عنوان نائب قنصل في حين ان زميله البريطاني كان قنصلاً . ولكن في هذا الظرف اظهر الوالي كل ما هو عليه من لطف ورقة هزا اعطاف مواطننا فكتب يقول : « ان الوالي الجديد قد جاء بشخصه لزيارتي وقد هرع القنصل الانكليزي إليه بزيارة رسمية في يوم وصوله وفي لحظة دخول الوالي الى قصره . وقد قصرت نفسى على ارسال ترجماني لتهنئته وتقديم خدمات القنصلية إليه واعلانه بعزمي على زيارته فور

استجمامه من متاعب السفر . واظن انه من غير المناسب ان تتم هـذه الزيارة الرسمية قبل ان يكون الباشا قد استنار فكره بعد قراءة فرماناته والقيام بالشكليات الاخرى المعتادة لدى تسلم الولاة مهام مناصبهم . ولهذا خففت الى زيارته بعد وصوله بثلاثة ايام .. اما رد زيارات ممثلي الدول الاجنبية فبوسع الباشا ان يتبع نظام تواريخ الزيارات التي تلقاها منهم ، ومعنى ذلك ان يبدأ الباشا بزيارة القنصل الانكليزي قبل كل احد ثم يجيء لزيارة قنصلية فرنسا بعد هذا التاريخ بستة او ثمانية او عشرة ايام ، ولكنه لم يسلك هـذه الطريقة اذ زار القنصل الفرنسي والقنصل الايراني في يوم واحد . ولكن لما كان عليه ان يمر بالقنصلية الفرنسية اثناء ذهابه لزيارة القنصلية الانكليزية وان باب قنصلية فرنسا يؤدي الى السوق فانه حجباً لنفسه عن اعين الجماهير اثناء عودته قرر زيارة القنصلية الانكليزية راكباً متن دجلة ، ولدى خروجه من القنصلية الانكليزية يعرج علي » .

ما اشد عنعنات المجاملات الشرقية وما اكثر اعوجاجاتها وتعقيداتها ![8]

وكان بعض وكلائنا يتصرفون بعيدين عما يتطلبه الشرف في تصرفات امثالهم ولكنهم يقيمون افضل العلاقات الممكنة مع الموظفين المحليين . واليكم ما يقوله مسيو (بوفيه) نائب قنصلنا في الموصل الذي يفتخر عام ١٨٥٤ بالنتائج التي احرزها عن طريق هـذا الاسلوب الذي قال عنه ان سلفه قد تجنب سلوكه . يقول هـذا القنصل المكيافيلي : « لقد وضعت فور حط رحالي في هـذا القطر نظاما تحت قدمي (كذا) قوامه اثارة المشاحنات واللجوء الى الحيل والمخادعات والظهور بمظهر العجرفة والغطرسة في الوقت نفسه . وقد نجحت في هذه الطريقة . فانا الرجل البارع صاحب الادراك

---

(٨) الرسالة المؤرخة في ٢٠ نيسان ١٨٥١ .

السليم والذوق الرفيع . وقد دعت الى سيادة الوفاق بين القنصلية والسلطة المحلية وتوفقت الى اقامتها .

ان ما يريده قنصل فرنسا (وهو لايريد الاّ الاعمال الصالحة الممكنة المعتدلة) قد وافقت عليه السلطة المحلية دون مماطلة . وفي اللحظة التي املي فيها هذه السطور لو احتجت الى تعبئة مائة فارس وجعلهم يزحفون الى نهاية تخوم الاقليم لكانوا على قدم لاستعداد خلال ساعة . وهذا الامر معروف في كل مكان . كما يعرف الناس هنا بأنني قبـــل وقوعي مريضاً امتطيت جوادي ذات مرة لكف الاعتداءات الواقعة على المسيحيين القرويين وتعويضهم جزاء انتهاك حرماتهم ، بحيث ان الامور اخذت تجرى من تلقاء نفسها وان كلمتي مسموعة حتى حين تصدر من فراش الضنى والسقام » .

وكان لابد من تقديم بعض الهدايا الصغيرة النافعة كل النفع في سبيل ديمومة صداقات ثمينة كهذه الصداقات ففي عام ١٨٤١ توسل قنصلنا العام في بغداد الى باريس بارسال هدية الى الوالي تتضمن « سيفا وصورة لصاحب الجلالة مرصعة بقطع من الماس وصندوقاً من الاسلحة النارية البديعة »[٩] لست ادري كيف استقبل الوزير هذا الطلب ولكنني افترض انه كان استقبالاً سلبياً ذلك لان قنصلنا لو حصل على مراده لما تأخر عن تصوير تفاصيل مراسيم تقديم الهدية » .

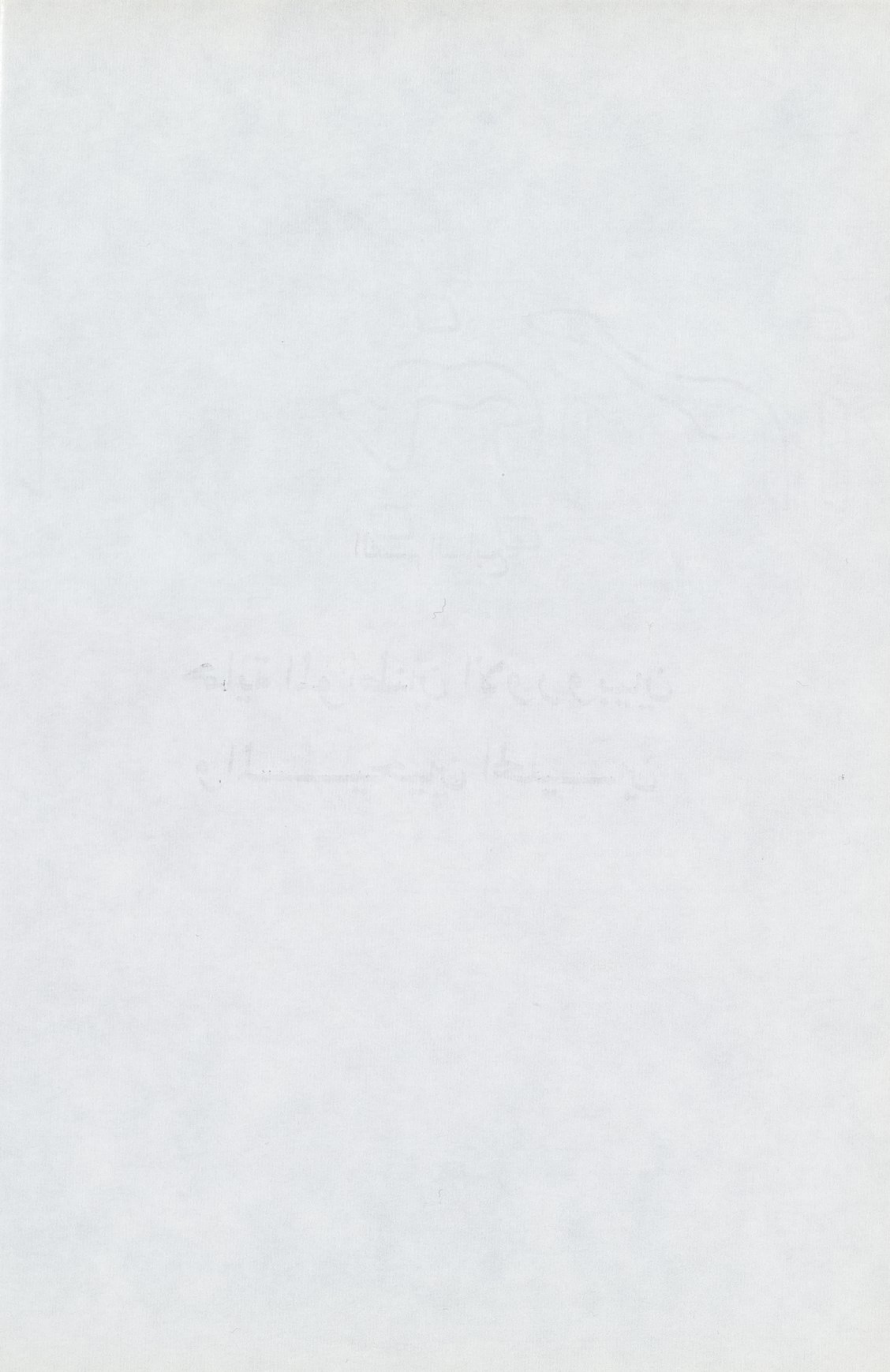
---

(٩) كان والي بغداد يومذاك علي رضا باشا اللاز . أما قنصل فرنسا العام فكان البارون دى فيمار .

(س١٠)

القسم السابع

حماية المواطنين الاوروبيين والمسيحيين المحليين



لقد سبق ان اشرنا الى ان المهمة الاساسية لممثلينا في العراق كانت تنحصر من جهة في حماية مواطنينا الذين من المناسب ان نضيف اليهم رعايا الاقطار الاوروبية الذين ليس لهم هيئة قنصلية في بغداد والذين عهدوا الينا برعاية مصالحهم . ومن الجهة الاخرى في حماية رعايا الباب العالي المسيحيين . وساعود في فصل قريب للتحدث عن علاقات قناصلنا بمواطنيهم وقصاراي ان اعرض هنا للوسائل التي كان يتوسل بها معتمدونا في سبيل فرض احترام حقوق اولئك المشمولين بحمايتنا .

على اننا يجب ان نعترف بان اجراءاتهم تبدو لنا في هذه الايام مذلة مهينة لكرامة السلطات المحلية ، ولاشك ان هذه الاجراءات كان لها ما يبررها من المخاطر المتنوعة الكثيرة التي كان يتعرض لها المسيحيون في دار الاسلام والتي تصور لنا نموذجاً منها قصة القلاقل والاضطرابات التي وقعت في عام ١٨٤٤ في الموصل . ولكننا ونحن نقرأ القصص التالية لا يسعنا الا ادراك الاستماتة التي كانت تعتلج في نفوس كافة حكومات الامبراطورية العثمانية وسلطاتها في سبيل التخلص من هذه الوصاية (وصاية اتفاقية الامتيازات) .

واليكم بعض الامثلة على امثال هذه الحوادث :

الحادثة الاولى وقعت في بغداد عام ١٨٤٢ وملخصها ان . « اوروبيين هما السيد (أ) والسيد (ف) كانا قد سمحا لزوجتيهما ولاختي زوجتيهما بأن يتجولن في احدى الليالى في الاسواق التي تتألق انوارها وتعج بالرائحين والغادين كما هي العادة في شهر رمضان وكان يرافق هاته النسوة احد

ابنائهن وخادم مسيحي من ابناء البلاد . ولدى خروجهن من احد الاسواق ضرب عليهن طوق من قبل خدام الباشا واخذن مسوقات الى مدير الشرطة . وبلغ الخبر اسماع السيد (ف) فهرع من فوره ووصل الى مدير الشرطة بشق الانفس . فقدم اليه هذا المدير اعتذاراته وتوسل إليه وطلب منه عدم اذاعة القضية ، مدعياً ان النسوة كن مبرقعات ببراقع النساء التركيات ولذلك فقد اشتبه في امرهن فحسبن نساء مسلمات في رفقة رجل مسيحي ولذلك القى القبض عليهن بلادة وبلاهة . ولكن السيد (ف) اعلن إليه انه لابد له من اعلام قنصل فرنسا العام بهذه الواقعة لانه حاميه . وقرن القول بالفعل فجرى في الحال الى دار القنصلية الفرنسية العامة . وكان الوقت يدلف الى نصف الليل . فارسلت من فورى ترجماني الى دار اقامة الباشا طالباً منه ان تأخذ العدالة مجراها حول هذا الموضوع ، وبعد عدة اعتراضات من قبل الباشا قابلها المترجم بالتفنيد ارسل الي مدير الشرطة لأقرر انا بنفسي عقوبته . لقد جاء الى القنصلية يجر وراءه اتباعه وطلب مني الصفح والمغفرة ، فأنلته ما اراد بعد اخذ موافقة السيد (ف) ونيل رضاه . وبالرغم من ذلك ولما كانت الاهانة قد انصبت على جباه اناس اوروبيين فقد طلبت ان يقيد الافراد الذين اعتقلوا السيدات بالأغلال وعلى ملأ الاشهاد ، تماما كما اهين المواطنون الاوروبيون على ملأ الاشهاد والبادىء أظلم . ولم أكتف بذلك بل طلبت ان يقبعوا في احدى الزنزانات . وفي صباح اليوم التالى ضرب هؤلاء ضرباً مبرحاً امام مديرية الشرطة بحضور الترجمان » . واختتم القنصل رسالته سائلاً وزير الخارجية الا يلومه ويعاتبه على عفوه عن مدير الشرطة الذي لم يكن موقفه في هذه القضية ليستحق اى لوم او مؤاخذة .

وهنالك مثال آخر يقع تاريخه في عام ١٨٥٢ : « لقد اهين مواطن يدعى (ر) اثناء اجتيازه احد الاسواق من قبل حانوتي تركي . وقد وقعت المشادة نتيجة لعبارة مشوبة بشيء من الحدة فاه بها السيد (ر) وهو يجبب بها تركيا آخر . فأخذ الحانوتي على عاتقه مهمة الدفاع عن ابن جلدته التركي لاخر ووضع يده على السيد (ر) قائلاً له : لا يجوز اهانة احد ابناء محمد على هذه الشاكلة » . فارسلت الى الباشا اطلب إليه ان يزج في السجن هـذا الحانوتي التركي موضوع المشادة : وهذا ما حدث في رابعة النهار وفي معمعان السـوق . وتشفع بعض وجوه البلد لدى السيد (ر) لصالح السجين الذي ابدى استعداده للقيام بكل ضروب الاعتذارات . فرجاني السيد (ر) ان اخلى سبيل الحانوتي التركي . فأرسلت من قبلي الى الباشا رسولاً يشكره على الاهتمام الذي احاط به طلبي في توقيف الرجل . واضفت الى ذلك ان هذا الطلب لم تمله علي روح الحقد وانما الرغبة فقط في جعـل الحانوتي عبرة لمن اعتبر فلا يعود احد لاهانة مواطن اوروبي دون ان يناله العقاب . ومادامت الامثولة قد حصلت بفضل رفعة الباشا فانني قد رجوته ان يتفضل فيأمر باطلاق سراح الرجل المسلم . ولكن الباشا تلطف اكثر مما توقعت اذ ارسل هـذا الرجل الى القنصلية حيث شكرني امام موظفي القنصلية وبحضور اولئك المشمولين بحمايتنا وامام السيد (ر) نفسه واعداً اياى بابداء كل الاحترامات في قابل الايام للمواطنين الافرنج . فهل بوسع هـذا الوعد المنتزع بهذه الاساليب ان يكون وعداً صادقاً ؟ (١)

واننا حين نقرأ امثال هذه القصص يخيل الينا اننا عبر اضغاث احلام في حقبة قد يتعرض فيهـا المواطنـن الاوروبيون الى اسوأ مما يتعرض له

(١) ألرسالة ألموءرخة في ٢٠ تشرين ألاول ١٨٤٢ .

الدبلوماسيون طبعاً في هذه الاصقاع . فقد لايهانون على ملأ الاشهاد فحسب وانما قد يكونون عرضة لان يزج بهم في السجون وان يمثلوا امام المحاكم دون امكانية الحصول على تعويض لما لحقهم من خسائر واهانات ثم لايرد اليهم اعتبارهم !

اما الحماية القنصلية فقد امتدت بطبيعة الحال حتى شملت كافة موظفي ومستخدمي القنصلية ومن ضمنهم الخدم . ففي عام ١٨٤٢ شكى قنصلنا في بغداد اوجع الشكوى من ارغامه على انتظار عشرين يوما في سبيل معاقبة احد الرعايا الاتراك (وكان هـذا التركي احد تجار البلد الاثرياء) وقد صفع خادم معاون القنصل . فكتب يقول : « لقد اقتيد الجاني امس الى القنصلية ووضع تحت تصرفي . وبعد ان وجهت اليه تقريعات عنيفة قبلت اعتذاراته القائمة على الجهل الذي ادى به الى صفع خادم احد موظفي القنصلية » . وينبغي لنا ان نقول اذا اخذنا بنظر التصديق ما يرويه مواطننا ان الوالي في تلك الفترة قد نجم من احط الطبقات الاجتماعية فلم يكن ليحسن القراءة او الكتابة ولم يكن ليخضع الى اي قاعدة او نظام ولم يكن ليحترم اي شيء وليست له طاقة عظيمة محفوفة بالاناة والروية ذلك لانه وحش كاسر بقدر ما هو ابله وبليد . فتعرضت القنصلية في عهده الى الوقوف مواقف محزنة وساءت احوالها وتدهور نشاطها » .

اما مساعي ممثلينا لصالح المسيحيين فقد كان غرضها اما فتح الطريق امامهم للتخلص من تعسفات الموظفين المحليين وتصرفاتهم الكيفية واما لفرض احترام الحقوق التي اعترفت لهم بها القوانين العثمانية . تلك القوانين التي شد ما كانت تتجاهلها السلطات في هذه الاقاليم النائية !

وعلاوة على ذلك فان قناصلنا كان يتحتم عليهم في احايين كثيرة وجوب

التدخل لاعادة نســاء الى عوائلهن أو لارجاع صبايا مسيحيات الى ذويهن عقب اختطافهن من قبل بعض الجنود او من قبل بعض العصابيين الشقاة . ويقص علينا نائب قنصلنا في بغداد عام ١٨٤٠ احدى هـذه القصص المؤلمة ويهنيء نفسه على النجاح الذي احرزه في هـــذا المجال فيقول : « ارجو السماح لي باخبار معاليكم بان الحماية التي انعمت بها فرنسا على الكاثوليك والتي اشعر بزهو وخيلاء من جراء كوني اداة هـذه الحماية في بغداد — ارجو السماح لي باخباركم بأن هذه الحماية قد توجت بنجاح جديد باهر لامثيل له في هذه البلاد . . نجاح در على بلادنا وعلى عاهلنا المعظم وعلى كل ما يحمل الاسم الفرنسي بركة السماء التي دعا لنا بها الشعب المسيحي قاطبة دون استثناء . وهـذا النجاح هو تحرير امرأة من العبودية كانت قد اختطفت منذ نحو خمس سنوات من احضان زوجها ومن حمى اسرتها وهي التي قد وجدت في حريم الباشا منذ ثلاث سنوات انصرمن ولم يكن بمقدور احد ان يجرأ على رفع صوته لصالح هذه المسكينة » .

ولكن انتصار معتمدنا ظل يعتوره النقص . ذلك لان المرأة كان لها بنت سجينة هي ايضاً ولم يستطع صاحبنا الفوز بتحريرها . اما خلفه « فبعد مفاوضات صعبة ولكن بصورة سرية وهو احتراس ضروري كل الضروري تجاه التعصب العثماني قد توفق الى استلالها ليلاً من حريم الباشا وتسليمها الى والدها . ويضيف هـذا المفاوض السعيد قائلاً : « ان عودتهما الى مواطنيهما المسيحيين سيكون ظرفا مؤاتياً لظهور النفوذ الفرنسي بمظهر المنتصر . وقد جاء رئيس الاساقفة السرياني (٢) ورجال كهنوته لتهنئتي

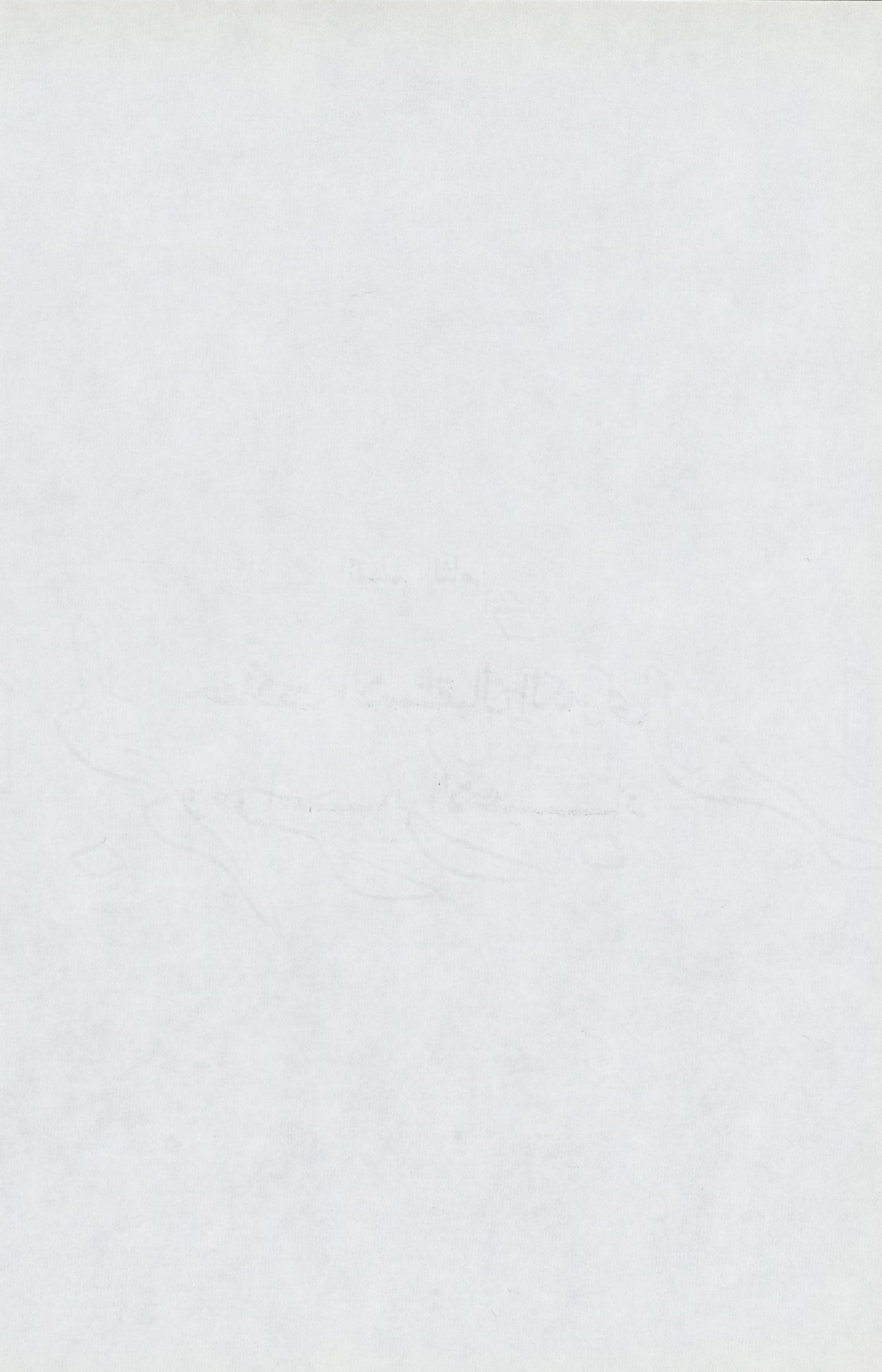
---

(٢) ألرسالة ألمؤرخة في ١٥ حزيرأن ١٨٥٢ .

على هذه النتيجة السعيدة التي تكللت بهـا مساعي . فاجبتهم بوجوب توجيـه هذه التهاني الى جلالته والى اياديه البيضاء . فارجو من معاليكم وضع هذه هذه التهنئات على قدمي الملك » .

القسم الثامن

حفلات الاستقبال الكبرى ومراسيم الاعياد



في القرن التاسع عشر ، كما في ايامنا هذه ، كانت حفلة الاستقبال الكبرى السنوية لقنصلنا تقع في يوم العيد الوطني . ولكن واقع اننا منذ عام ١٨١٥ لم يكن لنا في بغداد تمثيل رسمي قد عطل هذه العادة وجعلها نسيا منسيا لكن البارون دى فيمار الذي عين قنصلاً عاماً في سنة ١٨٤١ ، قد بادر الى استئناف الاحتفال بهذا العيد الوطني منذ السنة التالية لتعيينه واعلن عزمه الى وزيره بهذه العبارات : « ان عيد ملك الفرنسيين لم يحتفل به ابداً في بغداد ، حتى ولو باقامة بعض الصلوات . وقد صادف يوم امس العيد السنوي الاول لهذه المناسبة اعتباراً من وصولي الى بغداد . فهرعت الى الى الكنسية اللاتينية مصحوباً بموظفي القنصلية وبالمواطنين الفرنسيين وبجميع تجار هذا القطر البارزين . فاخترق هذا الموكب حى بغداد التركي بأكمله وتجمع السكان لدى مرورنا ولم يظهروا اي استياء او تذمر من هذا المشهد الجديد الذي لم تقع عليه انظارهم من قبل . وبعد اجراء مراسيم القداس تلقيت زيارة رئيس الاساقفة السرياني ورجال الكهنوت اللاتينيين والكلدانيين والارمن والكاثوليك وكبار الموظفين الأتراك ومبعوث ايران . وفي امسية اليوم نفسه حضر الى دار القنصلية العامة رئيس الآساقفة السرياني ورؤساء رجال الدين لمختلف الطوائف والملل والنحل وارباب العوائل الرئيسية البالغة مائتي عائلة . فبلغ تعداد هؤلاء جميعاً اكثر من الف نسمة . وقد اضيئت دائرة القنصلية العامة اضاءة رائعة زادتها بهجة ونشوة انغام الافواج العسكرية التركية التي صدحت بالسمفونيات شطراً كبيراً من الليل . وكانت حروف اسم الملك تتألق انوارها . وقد وضعت في قمة هرم مضيء فكانت ترى من الصحراء فجذبت السكان اليها فازدحموا على شواطيء دجلة » . (١)

---

(١) ألرسالة ألموءرخة في ٢ مايس ١٨٤٢ .

ومنذ تلك الفترة ظلت تتكرر هـذه الاحتفالات في كل عام وظل معتمدونا يحبرون التقارير الطويلة في وصفها وصفاً ميناً متشابه التعابير متماثل التهاويل في كل عام . ولكن في بعض الاحيان كانت تقع بعض الحوادث التي تكدر صفو هـذه الاحتفالات لاسيما الحادثة التي حدثت عام ١٨٤٤ والتي ينقل الينا اخبارها البارون دى فيمار فيكتب قائلاً : « ان مصيبة عكرت رونق هذا النهار الجميل . اذ لدى اطلاق المدافع الأخيرة تحية لجلالة الملك من على ظهر زورق بخاري يعود لشركة البلاد الهندية انفجر حشو المدفع قبل اوانه فطارت معه يد المدفعي الذي ضغط القطعة . وتناثر بعض ذراعه كما جرح راسه واحترقت عيناه بالبارود [٢] . وقد اجريت له عملية بتر في الحال ونؤمل انقاذ حاسة بصره . . وفي اصبوحة اليوم التالي قصدت ظهر الباخرة قبل ان اتبين وقع هـذه الحادثة لدى جلالتكم ولدى حكومتكم وما ستوحيه الى الطرفين محكماً عقلي في هـذا الموقف الذي املى علي ضرورة ابداء الأهتمام اللازم بالجندي الشاب المشوه واظهار الاسف على وقوع هذا الحادث فحصلت من القنصل البريطاني العام ومن قائد السفينة على السماح بتقديم بعض الهدايا الى الجريح بانتظار استطاعة اعلام حكومة الملك . وهكذا وايا كان الاجراء الذي سيتفضل جلالته فيأمر باتخاذه ، وسواء اراد معاليكم اعتبار هـذه النفقات نفقات موقتة أو نفقات نهائية ، بوصفها اشياء اقتضتها الاحتفالات بعيد جلالته ، فهي تبقى على نفقات المعتمدين او بوصفها نفقات مستحقة للدفع وهي الهدايا التي اعتقدت ضرورة تقديمها ، فانني قد راعيت باحترام عميق كافة الحقوق التي يعود النظر في

---

(٢) ألرسالة ألمؤرخة في ٦ مايس ١٨٤٤ .

ممارستها الى جلالته والى حكومته على وجه التخصيص » . (٣)

وبعد مرور شهرين على هـذا التقرير ابدى الوزير موافقته على الشكل التالي : « لقد تألم جلالته اوجع الألم على الكارثة التي حلت بالمدفعي الذي تشوه هذا التشوه المفجع وانني اؤيد كل التأييد واستحسن كل الاستحسان الدافع الذي حملكم على تقديم هدية قدرها خمسمائة وخمسة وعشرون فرنكا الى هذا العسـكري واخولكم مضاعفة هـذا المبلغ . على ان تدرجوا كل هذه المبالغ في باب نفقات الخدمة المتعلقة بكم وترسلوا الي في الوقت نفسه ورقة مخالصة تتخذ كمستند لتبرير هذا الصرف » . (٤)

وكانت الحوادث السعيدة او التعيسة التي تقع للاسرة الملكية تدعو كذلك الى اقامة الاحتفالات الدينية . فان موت دوق اورليان مثلاً قد اقتضى اقامة الصلوات الجنائزية . واغتنم البارون دى فيمار هذه الفرصة ليعلن ولاءه في اسلوب فخم طـان رنان كان مقبولاً ومرغوباً فى تلك الفترة فكتب يقول : « ان الكارثة الشنيعة التي اغرقت الملك بل الاسرة الملكية بل وفرنسا بقضها وقضيضها في خضم الالم لم تحدث شجى اهول منه وقعاً وعمقاً في هذا الجزء النائي من عربستان* . فما ان بلغت اسماعي هذه المصيبة الفادحة ، التي لا سبيل الى علاجها ، حتى جمعت المواطنين الفرنسيين ورؤساء واعيان المسيحيين في هذه البلاد لأعلن لهم هـذا الخطب الجسيم . فادرك الجميع آلام الملك واحزان اسرته واوجاع الامة باسرها وشاطركم الاسى والشجى كافة المشمولين بحمايتكم من المسيحيين في الشرق .

---

(٣) الرسالة المؤرخة في ٢ أيلول ١٨٤٢ .

(٤) ألرسالة المؤرخة في ١٦ مايس ١٨٤٦ .

(*) المقصود هنا البلاد العربية وليس منطقة عربستان فى جنوبى ايران

(س١٠)

لقد رأيت عيون هؤلاء تفيض بالدموع الفرنسية كل الفرنسـية وتهطل على الخدود (كذا) كلما امعنت في اظهار تفاصيل الصفات العالية الرائعة القويمة للامير الذي نكبنا بفقدانه والذي جعلتهم يعلمون بأي اعمال مجيدة وبأي اخطار خاضها وبأي تصرف نبيـل حاز مولاي دوق اورليان وهو ما يزال في ريعان شبابه على تعلق الامة بشخصه وعلى ثقة الجيش وعلى تقدير دول اوروبا . ومنذ هذا الصباح نكس العلم الفرنسي الى نصف الصاري معلنا للمدينة العثمانية المصيبة التي قصمت ظهورنا . وفي الوقت نفسه اقيمت صلاة جنائزية كبرى اشتركت في تأديتها جماعات الاكليروس للطوائف الأربع اللاتينية والسريانية والارمنية والكلدانية بحضـور رئيس الاساقفة السرياني وقنصل فرنسا العام وموظفي القنصلية والمواطنين الفرنسيين وكانوا جميعاً يرتدون ثياب الحداد . فغصت الكنيسة اللاتينية بجميع مسيحيي هذا القطر . وكان ختام هذا الاحتفال الأليم صلاة عامة خاشعة أرتفعت خلالها الدعوات الحارة الى الله طالبة اليه اطالة حياة جلالته التي تضاعفت قيمتها بوقوع هذه الخسارة الفادحة » .

وفي عام ١٨٤٦ حدثت محاولة لاغتيال حياة الملك لويس فيليب من قبل شخص يدعى (فيكى) (أ) فاقيمت بهذه المناسبة صلاة الحمد والشكران موجهة الى الله سبحانه وتعالى على المنة التي منها على الفرنسيين بانقاذ حياة مليكهم . فكتب البارون دى فيمار احد كبراء خدام البلاط الملكي ما يلي : « ان العدد الصغير من الفرنسيين الموجودين في بغداد يضم صوته الى صوت معتمد حكومة الملك ليضع الجميع في هذا الظرف المؤلم على قدمى جلالتكم التعابير الفياضة بالاحترام عن الاحساسات التي تخالج نفوسهم . وان السكان الاصليين انفسهم يرون في هذه الحادثة آية على الحماية السماوية التي شمل

بها الله فرنسا والامير المعظم الذي يحكمها . وان الزيارات التي انهالت هذا اليوم على دار القنصلية بهذه المناسبة تظاهرة اجماعية لهذه الفكرة » (٥)

ومن بين الحوادث المهمة في ايام حكم لويس فيليب ذلك الحادث الذي يبدو انه قد وقع له اعظم دوي هائل في هـذا القطر الاسلامي واعنى به استسلام عبدالقادر الجزائري الذي كان له عن طريق اسرته روابط دينية تربطه بالعراق . كما كانت له شهرة واسعة في هـذه البلاد استناداً الى ما ينقله الى علمنا البارون دى فيمار ضمن رسالة كتبها في شباط عام ١٨٤٨ . قال فيمار : « لقد كان للخبر وقع هائل في بغداد حيث كان يسود الاعتقاد بين سكانها بدوام المقاومة التي يشبهها عرب واتراك هـذا القطر دائماً من خلال احاديثهم معي بالحرب الفعالة التي يخوضها (شامل) ضـد القوات الروسية في القفقاس . وكان للاهتمام المتعلق بهؤلاء الاشخاص والذي هو نابع قبل كل شيء من المشاعر الدينية للمسلمين بواعث اخرى في الوقت نفسه . فان عبدالقادر من جانبه ان لم يكن قد ترك في العراق اقرباء فهو على الأقل قد خلف بعض الذكريات في بغداد . وان العجائز اللواتي يقمن في محلة جامع وبجوار مرقد الشيخ عبدالقادر الكيلاني ذائع الصيت يدعين بانهن يتذكرن عبدالقادر الشاب الذي جاء في عام ١٨٢٨ زائراً لبغداد . وكان له في هذا الجامع ظهور قرر مستقبله . وان تعصب سكان المحلة التي يوجد في حماها قبر الشيخ ودار القنصلية الفرنسية معاً لا يستطيع ان يسلم بأن التنبؤات التي نبيء بها عبدالقادر في عتبات بغداد المقدسة قد كذبها الواقع على هذا المنوال . ومن الجهة الاخرى فان الاسم الفرنسي قد ازداد ابهة في

---

(٥) فيكى هو متامر ولد في مورأتو من أعمال كورسيكا ١٧٩٠-١٨٣٦ . وقد حاول اغتيال حياة لويس فيليب بوأسطة ألة جهنمية عام ١٨٣٥ فنفذ فيه وفي شريكيه ، وهمـا بيبيان وموری ، حكم ألاعدأم (قاموس لاروس) .

اعقاب هذا الحادث . ولدى وصول هذا الخبر رفع العلم الفرنسي على محل الاقامة القنصلية . وجاء عدد كبير من السكان يتساءلون عن حقيقة الباعث على هذه التظاهرة التي حكمت بضرورة القيام بها في هـــذا البلد المتقهقر حيث يمكن لاوضح الوقائع واظهرها وقوعاً ان ينكرها المنكرون بسهولة » .

ولكن مهما كانت درجة صدق ولاء البارون دى فيمار الملكي الذي لايخالجني ادنى شك حوله فان هذا البارون كان مع ذلك تضج نفسه ببعض الحزازات المكظومة تجاه (گيزو) . لان البارون دى فيمار يعتقد ان مسيو گيزو لم يسانده المساندة اللازمة الفعالة في صراعه ضد والي بغداد بل لاذ بالاناة والروية اكثر مما يجب في مداراة الوالي الذى كان دى فيمار في حرب ضروس معه دفاعاً عن محميينا في الشرق . ولهذا انحاز دى فيمار دون تردد الى جانب الجمهورية واشار على مرؤوسيه بان يحذوا حذوه . وقد كتب في الثاني عشر من نيسان عام ١٨٤٨ الى باريس الرسالة التالية : « لي الشرف ان أعرض لكم وقوفي الى جانبكم . وارجوكم ان تنقلوا الى الحكومة الموقتة اعلان ولائي لحكومة الجمهورية كما علي كذلك ان احمل اليكم انحياز موظفي هذه القنصلية والرعايا الفرنسيين المقيمين في بغداد اليكم بعد ان كلفوني بهذا الطلب . ولما لم يصل الى بغداد اي خبر عن قبول هذا الولاء لا من الحكومة المركزية ولا من ممثلها في القسطنطينية فانني قد ارغمت ارغاماً على الاقتصار على اعلام حاكم بغداد العام بصورة غير رسمية بالوقائع التي حدثت في فرنسا وبالتجديد الرائع في حالتها الاجتماعية والسياسية . وانني منتظر اوامركم . كما انني أعهد الى انصاف حكومة الجمهورية بموظفي ومستخدمي هذه القنصلية الفرنسيين منهم وابناء هذه البلاد . وكلهم من قدماء خدام فرنسا المتفانين في خدمتها والذين اظهروا في هذه الظروف

الجديدة انبل المشاعر نحو فرنسا » .

وفي اليوم نفسه كتب مواطننا الى معتمدنا القنصلي في الموصل معلماً اياه بقراره وكاشفا له عن الآمال التي يعقدها على الحكومة الجديدة وعلى الاخص اعتماده على وزير الخارجية الفرنسية ، فقال : « نظراً لاقتناعي بأن وكلاء امة من الامم الحرة الدستورية هم مبعوثو البـلاد نفسها فانني اعلن بملء ارادتي وبكل ولاء واخلاص عن تأييدي لحكومة الجمهورية . كما ارى من واجبي الذي انجزته بسهولة ان ابعث اليكم بتأييـدات موظفي القنصلية وبتأييد العدد الصغير من الفرنسيين القاطنين في بغداد . وانني منذ سنوات كثيرة اكافح في القسطنطينية وفي باريس نفسها ضد التخلي عن حقوقنا في الشرق : وان الحكومة التي تستطيع وتريد انتشالنا من هذه الوهدة يجب ان تكون قد وصلت الى الحكم معها .

وان راى مسيو دى لامرتين في مجلس الامة حول موضوع شؤون الشرق هو ضمان للمستقبل في سبيل اعادة أستتباب نفوذنا . وان رحلته الى تركيا في عام ١٨٣٢ قد اطلعته على المصاعب الجمة التي يتجشمها معتمدونا في هذا القطر . فلا ترتابوا بالاهتمام الذى يوحيه الي اولئك الذين يقيمون في الشرق منذ عهد بعيد » .

ولكن المضحك فى الموضوع ان قنصلنا العام الذي كان يوقع دائما في الايام الخوالى هكذا « بارون دى فيمار » قد تكيف للحالة الراهنة التي تتطلبها الجماهير الشعبية فطمس على لقبه .

وقد اغتبط مسيو دى فيمار كل الاغتباط بالاستقبال الذي استقبلت به السلطات المحلية النظام الجديد . فكتب في الرابع والعشرين من نيسان يقول : « في يوم عيد الفصح وجد قنصل الجمهورية نفسه محوطا بكل مظاهر

التجلة والاحترام وبكل معاني الاكبار والتقدير . فان قنصل انكلترا العام ، وهو معتمد سياسي لشركة بلاد الهند ، قد جاء الى القنصلية الفرنسية وكذلك جاء مواطنوه . كما ارسل الي الحاكم العام مترجمه الاول مهنئاً اياي . وقد ظهر الموظفون العثمانيون ووجهاء المسامين والمقيمون الاوربيون ورجال الدين من مختاف الطوائف والسكان المسيحيون قاطبة في دار القنصلية فهنأوني كل بدوره . اما الشعور العام والفكرة التي تبدو انها سائدة في هــذه المدينة حيث اوربا وانظمتها لا تكاد تعرف هنـا فقد كانا رأياً رفيعاً بمقدرات فرنسا الحالية وترحيباً تاما بمعتمدها وبمواطنيه وتكريماً لهم » .

وبعد كتابة هذه الرسالة بيومين وصلت بلاغات الحكومة الموقتة الأولى ففسرها قنصلنا العام على هذه الشاكلة : « يبدو لعيني من هــذه الوثائق المختلفة ان خط سلوك معتمدى الجمهورية قد رسم من قبلكم في هــذه الكلمات الثلاث : اخلاص وكرامة واتزان . وهي لاتنطبق على واجبات المعتمدين نحو دولتهم فحسب وانما تنطبق على ما يجب ان تفعل الحكومة العثمانية تجاه هذه المبادىء . اذ يقع عليها عدم نكران الدفاع الجدي عن حقوقنا . كما يجب عليها ان تتقبل اهتمامنا بالسكان المسيحيين . وان تسعى الى تحقيق التزامات وعهود السلطان في التخفيف عن كاهل كافة افراد شعبه وتحضيرهم ، ولو اننا لا نشهد آثار هــذه الالتزامات وتلك العهود . ولما كان لي شرف اعادة استئناف نشاط القنصلية الفرنسـية العامة منذ سبع سنوات في بغداد حيث لم اتوان منذ تلك الفترة عن العمل بكل ما لدي منى طاقة في صيانة النفوذ الفرنسي وفي توسيعه ــ فانى لسعيد ، يا سيادة الوزير ، باستطاعتي مواصلة هذه الهمة مؤيداً من قبلكم ، وبان اضع في خدمة الامة تجربة الوقائع التي اكتويت بنارها وثمار العلاقات الشخصية التي

افاءتها على اقامتى الطويلة المتصلة في هذا الاقليم القصي من اقاليم اسيا » .

لست ادرى ان كان هذا التأييد الحماسي السريع للبارون دى فيمار قد اعقبه ترفيع له لانني اعلم كل العلم ان اسمه قد اختفى حينئذ من ارشيفات هذا المنصب . لانه لأسباب تتعلق بالاقتصاد ولا ريب قد خفضت درجته الى نائب قنصل وترك بدون وظيفة الى نهاية عام ١٨٥٠ وهو تاريخ وصول (ليزيماك تافرنييه) الى بغداد .

وكان لاعلان الامبراطورية بعض الدوي في هذه الربوع . حيث كانت الحملة المصرية قد تركت ذكريات على شيء من الحياة . ففي عام ١٨٣٥ تحدث قاصدنا الرسولى عن الزيارة التي اداها اليه احد الضباط الاتراك فكتب الى باريس يقول : « لقد اطرى هذا الضابط الفرنسيين وتحدث عن الانسان الذى لم يعد له وجود فاثنى على بطولاته وامجاده الحربية ومدح علمه العسكرى ودخن وشرب قهوة وانصرف » . وفي السادس والعشرين من آب ١٨٥٤ كتب كذلك قنصلنا في الموصل وهو پلاس العالم الاثارى يقول : « لقد ظل اسم نابليون اسماً شعبياً في الشرق وبقى يعتبر في هذه الديار رمزاً للقوة . اقول ذلك دون مداجاة او محاباة . لانني مازلت اتذكر الاثر الذي احدثه هذا الاسم العظيم في بلادنا النائية عندما انتشر الخبر بانه ما فتيء يمسك مرة اخرى بمقدرات فرنسا . ولانني ازداد اندهاشا واستغرابا كل يوم من ان تاريخ الامبراطور يعرفه الناس هنا وهم على ما هم عليه من جهل مطبق لا يصدق اكثر مما يعرفون عن تواريخ سلاطينهم » .

وينبغي لنا ان نقول ان مسيو پلاس الذي كان يتحمل انذاك مهمات قنصل الموصل ومتاعب العالم الاثارى في خورصاباد قد ساهم كثيراً في جعل اسم نابليون اسماً شعبياً في تلك المنطقة بفضل الاحتفال الذي كان أقامه

لعماله بمناسبة اعلان الامبراطورية : وقص قصة هذا الاحتفال بنفسه في باريس في الخامس والعشرين من شباط ١٨٥٣ فقال : لم يبلغني خبر اعلان الجمهورية الا في غاية التأخر . ولكن ما ان تلقيت هذا النبأ حتى صممت على جعل عمالي الكثيرين يشعرون بشعور السعادة الذي عمت الافراح من جرائه كل ارجاء فرنسا . وبعد اجراء المراسيم الدينية في الموصل توجهت الى خورصاباد وأولمت وليمة هوميروسية وأغدقت الثيران والاغنام والارز . حتى طعم جميع العمال واكل كذلك منها النساء والاطفال . اما بالنسبة لهولاء العمال الذين لايفقهون السلطة الا متجسدة في شخص العاهل فان هذه الحفلة كان لها مغزى عظيم نافع كل النفع لنفوذنا . وقد تجاوز التأثير هذه المنطقة بسريانه الى المناطق الجنوبية نتيجة ما عم هؤلاء الشغيلة من مسرات وافراح . وفي تلك الامسية عندما كانوا يرقصون حول ثور مجنح من المرمر ، هائل مستخرج من القصر الاشوري كان المغنون يهزجون بمقطوعات شعرية دام انشادها حتى ساعة متأخرة من الليل ترافقها ابيات تشيد بعظمة الامبراطور . ولدى نهاية كل مقطع كان الاعراب يضجون بالانغام على هيئة جوقة موسيقية قائلين ، « الله يجعل عمر باديشاه فرنسا الف سنة ! » وكان هذا المشهد بالنسبة لي مشهداً لم ار اروع منه وانا اشاهد هذه الجموع الغفيرة التي اكاد اسميها همجية وهي تفرح وتمرح على هذه الدرجة من الحماس والفوران العاطفي في حين ان الاعمدة الحجرية العملاقة التي اضاءت وجوهها انوار المشاعل اللاهبة كانت تتأمل في شيء من الجمود هذا المنظر الغريب وهو الشاهد الاخرس بعد ثلاثة آلاف سنة على اعلان جمهورية جديدة في حين انها كانت قد رات اقدم جمهورية في العالم » .

ولكن حيث لم يكن يوجد ممثل فرنسي يطلع السكان على قيام الجمهورية

الثانية فان الحالة كانت سائرة على نهج اخر مختلف كل الاختلاف . وان نائب قنصلنا في بغداد مسيو (بليزيبه) الذي التحق بمنصبه في عام ١٨٦٦ عن طريق البحر كان قد اضطر على التنويه بهذه الحالة والافضاء بالامر الى رئيسه فكتب يقول : « اقول لكم والاسف يملأني حزناً ، يا سيادة الوزير بانني استطعت اقناع نفسي في بندر عباس وخصوصاً في بندر بوشهر بقلة من يعرف احوالنا في هذه السواحل البعيدة . . لقد وصلت برحلتي الى البصرة مع تجار اغنياء من جزائر البحرين ومن بقاع الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية : وقد تحدثت طويلاً مع هؤلاء اثناء الساعات الطويلة التي قضيناها في اختراق هذه الاماكن واستطعت كذلك ان اقنع نفسى بان الناس في بلاد هؤلاء ليست لهم اية فكرة عن عظمة وقوة حكومة الامبراطورية . وقد تحدث الي هؤلاء السكان عن سلطان الفرنسيين السابق بونابرت الذي كان في نظرهم شيطانا لم تستطع قهره واستئصال شافته الا انكلترا (هكذا يزعمون) . ولكنهم يجهلون جهلاً تاماً ان ابن أخ هذا الرجل العظيم يحكم فرنسا المكللة باكاليل الامجاد منذ قرابة عشرين عاماً ولكن مقابل ذلك كان هؤلاء الناس يعرفون كل شيء عن الملكة فيكتوريا » .

واياً كانت الحالة فان الفرنسيين قد احتفلوا احتفالاً فخماً مهيباً في دور قنصلياتنا بعيد نابليون ، احتفالاً مشبهاً لآحتفالهم بعيد الملك المواطن . ولكن لسوء الحظ كانت تقييدات الميزانية تحول في بعض الاحايين دون اضفاء الابهة المرغوبة على هذه الاحتفالات . وقد شكا مسيو نيكولا قنصلنا في بغداد بصورة خفية من هذه الحالة وذلك في رسالة وجهها الى وزارة الخارجية في الخامس من ايلول ١٨٥٤ فكتب يقول : « كم كان بودى ان اقيم مأدبة بمناسبة عيد الخامس عشر من ايلول كتلك المأدبة التي اقامها قنصل انكلترا

في عيد الملكة ، مأدبة شرعنا بتهيئة مقتضياتها واوشكنا ان ندعو اليها وجوه بغداد واعيانها . والكنني تلقيت المنشور الذي لي شرف تلقيه من قبلكم بتاريخ الثامن عشر من مايس الاخير (٦) فاضطررت اضطراراً على ايقاف عمليات التهيؤ وقبعت داخل وسائلي الضعيفة مكتفياً باقامة مائدة عشاء حضرها جميع الفرنسيين وكل المشمولين بحماية فرنسا من المقيمين في بغداد . ومع ذلك فلم يكن الاحتفال البسيط هذا ليقل رونقاً وبهاء . لأن الأنخاب التي شربت مصحوبة بالهتاف بصحة جلالة الامبراطور وبنجاح جيوشنا لم تكن لتقل روعة عن انخاب الاحتفالات بملكة انكلترا وبالسلطان ، (٧) ولم تكن دونها عدداً ، وقد رفعت في ذلك اليوم اشارة الى الاتحاد التام السائد بين الدول المتحالفة الثلاث الاعلام الثلاثة : العلم الفرنسي والعلم الانكليزي والعلم التركي . اما الوالي الذي كان بيني وبينه سوء تفاهم بسيط من جراء تأخره في ارسال ممثله الى القنصلية ليقوم بالتبريكات المعتادة والذي قدم اعتذاراته المرغوبة بنفسه في دار القنصلية فقد عني كل العناية برفع العلم التركي على القلعة حيث ظل خفاقاً حتى غروب الشمس . واما قنصل انكلترا الذي انا واياه على خير ما يكون الوئام فقد رفع هو ايضاً العلم البريطاني على دار قنصليته » .

ان الانظمة تزول واما الأعياد الوطنية فتبقى وتبقى معها مراسيم الاحتفالات التي لاتتبدل . ففي عام ١٨٨٢ التمس نائب قنصلنا في بغداد مسيو پيريسييه برسالة مؤرخة في الخامس والعشرين من تشرين الاول نوع معونة لمدارسنا الدينية وحكم بنفسه على صلاح تبرير هذا الطلب بالاعتبار التالي :

---

(٦) لم أستطع العثور على هذا المنشور الذي لابد أن يكون قد نص على أجراءات اقتصادية .

(٧) نحن هنا أثناء حرب القرم .

« ان خادم حكومة الجمهورية المتواضع المخلص ليخون واجباته اذا لم يلفت انظار مقام معاليكم العالى الى موقف المبشرين في بغداد بوصفهم مواطنين . لقد كان موقفهم في جميع الظروف ، يا سيادة الوزير ، موقفاً صحيحاً صائباً ، فقد تصرفوا تصرف الفرنسيين ونعم الفرنسيين . ولم يبد منهم اى اعتراض مهما كان طفيفاً عندما طلبت منهم ان يهتفوا باللاتينية بدعاء سلامة الجمهورية . كما انهم لم يعارضوا في الهتاف بحياة الجمهورية بالفرنسية كما هي العادة في ختام القداس الرسمي فهتفوا مع الهاتفين . ذلك الهتاف الذي رددته الجالية الفرنسية بأسرها » .

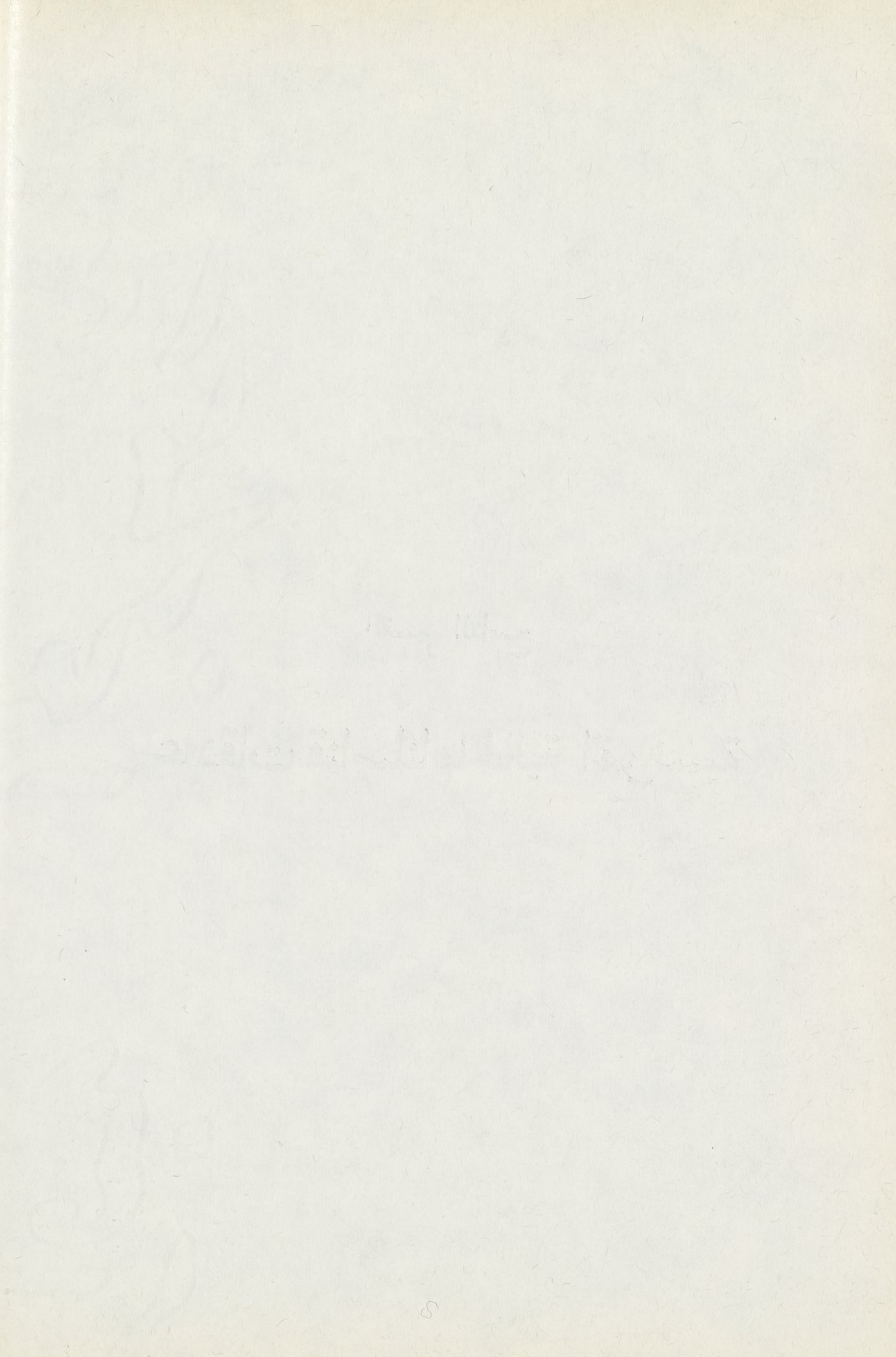
وكانت تقام احتفالات مهيبة بمناسبة مرور شخصيات مرموقة ببغداد : وها هو مسيو فيدال نائب قنصلنا في بغداد يصف لنا عام ١٨٤٠ حفلة الاستقبال التي اقيمت لسفيرنا في طهران مسيو دى سيرسي فيقول ما يلي : « لي الشرف ان اخبر معاليكم بان الكونت دى سيرسي قد وصل الى هذه الديار صحيحاً معافىً بعد رحلة صعبة دامت ثلاثين يوماً في قطع المسافة بين اصفهان وبغداد . وقد خففت لاستقباله من مسافة ستة فراسخ مصحوباً برؤساء المؤسسات التجارية المشمولين بالحماية الفرنسية ومعي كذلك شيخ عشائر ولاية بغداد وخمسون فارساً من قبل الباشا الذي هيأ بناء على طلبي مسكناً مناسباً لمعالي السفير وحاشيته . وفي اليوم التالي ارسل الباشا صهره قائد القوات مع الاعضاء البارزين في مجلس الادارة مهنئين الكونت دى سيرسي بسلامة الوصول . وامس زار سفيرنا الوالي فقوبل بترحاب وحفاوة فائقين . وكانت القوات العسكرية كلها مدججة بالسلاح . وانتظر الباشا وحاشيته كلها وجميعهم يرتدون الالبسة الرسمية لدى مدخل قصر الولاية

خارج قاعة الاجتماعات الكبرى وصول معاليه ، فلما وصل بسط الوالي اليه يده وادخله الى غرفة الاستقبال .

لقد فقد الاسم الفرنسي اشراقه وبهاءه منذ بضع سنوات في هذه الاقطار النائية وقد آن لفرنسا الآن ان تسترد اعتبارها فيها » .

القسم التاسع

علاقات قناصلنا بالجالية الفرنسية



كانت الجالية الفرنسية في العراق خلال القرن التاسع عشر ضئيلة العدد للغاية . فاذا تركنا جانباً المبشرين الذين سنتحدث عنهم في قابل الصفحات فان افراد هذه الجالية كانوا يتجاوزون قليلاً عدد الاصابع : فهم اما تجار مقيمون في العراق واما تجار قادمون الى العراق بصورة منتظمة لتمشية شؤونهم . وفيهم العلماء بصورة عامة وعلماء الآثار القديمة بصورة خاصة . وبينهم موظفون في خدمة الحكومة العثمانية . وكان عددهم يصل الى تسعة انفار في بغداد في عام ١٨٤٥ يضاف اليهم بعض المسلمين الجزائريين وبعض رعايا الدول الاجنبية الاخرى الذين عهدوا الى فرنسا بمهمة حماية مصالحهم .

وبالرغم من ضآلة عدد افراد هذه الجالية ــ بل لعل ضآلة العدد هي السبب في ذلك ــ فان الوفاق لم يكن سائداً على الدوام بين صفوف مواطنينا . ففي عام ١٨٣٦ كتب القاصد الرسولي ــ الذي كان يقوم حينئذ بمهام القنصل ــ الى باريس شاكيا من معتمدنا القنصلي في البصرة مسيو (فونتانييه) الذي يرميه بالكفر والزندقة والادمان على السكر والعربدة حين تدور ام الخبائث في راسه ، ويتهمه بالمتاجرة بسفاهات وضيعة وبغرقه في الديون وباخلاق شائنة فاضحة : وكتب عنه كذلك يقول . « يزعم هذا الدعي انه طبيب وبالفعل فهو يمارس هذه المهنة المزعومة في سبيل الاندساس في البيوت لرؤية النساء والصبايا ولاشتهائهن . وقد كشف سلوكه القذر القناع عن شعوذته . وانقطع الناس عن الاتصال به بأي شكل من الاشكال ، ولكننا نستطيع ان نضع موضوعية مراسلنا هذا موضع الشك لانه يضيف الى ذلك

قائلاً انه يرتاب في نوايا (فونتانييـه) الذي عساه يطمح الى الحلول محله فيصبح قنصلاً بدله .

وعلاوة على ذلك ففي هذه الفترة كان لمعتمدينا بعض الحقوق في تطبيق القوانين والانظمة على رعايانا . لان قوانين عام ١٧٧٨ وقوانين عام ١٨٣٦ كانت تخولهم بصورة خاصة ارغام الفرنسيين على مغادرة البلاد . ففي عام ١٨٤٧ استند قنصلنا العام في بغداد البارون دى فيمار على هـذه القوانين فأمر بطرد ملا يدعى مسيو (فونفريد) لانه ارتكب بعض اعمال العنف اثناء مروره ببغداد فاصبح مجرماً . ولما احتج هذا على هذا الاجراء وقفت وزارة الخارجية بجانب القنصل العام واقرت بصواب تصرفه واظهرت اسفها على سوء نية مسيو فونفريد في مقاومته امر القنصل العام بحقه .

وفي نهاية هذا القرن تأثر قنصلنـا في بغداد مسيو پونيون اوجع التأثر من تصرف سيدة فرنسية من علية القوم هي الكونتس فلانة التي اقامت بضعة اسابيع في عاصمة الخلفاء بصحبة شيخ عربي يافع وقعت في شباك غرامه والذي حملت السلطات التركية على اخراجه من السجون وكان معتقلاً فيهـا كرهينة . فطاف هذان العاشقان في الأسـواق كأنهما يريدان الاعلان عن حبهما حتى علم بأمرهما الخاص والعام وفاحت روائح الفضيحة .

اما الرعاع والغوغاء والدهماء فكانوا يرشقونهما بانواع الشتائم والمسبات . واما السلطات فارتعدث وقلقت . واما مسيو پونيون فقد قص قصة هـذه الملحمة الغرامية في بضع برقيات . لقد رأى بالرغم من الانطباع المحزن المخجل الذي تركه تغنج واستهتار هذه الفرنسية ان من واجبه ان يدعو مواطنته المغناج الى تناول طعام الغداء ، ولكنها قابلته بحملة عنيفة من الشتائم ضد حكومته بحيث رأى من الافضل عدم العودة الى دعوتهـا الى طعـام .

ويصف قنصلنا بعبارات لذيذة رائقة هذه العاشقة فيقول : « كانت جولات العاشقين تخترق المدينة طولاً وعرضاً وصباحاً ومساء . وهما يظهران في كل مكان وفي كل زمان يداً بيد وذراعاً بذراع . وقد ملت من وقع اقدامهما بلاطات الاسواق وها اننا نراها تحمى بمظلتها الباريسية شيخ العاشقين لئلا تلفح بشرته النحاسية الشمس . ترد اشعة الشمس عن ملامح ابن الصحراء السمراء » .

ولكن لكل شيء نهاية في هـذا العالم . وهكذا افترق هذان العاشقان ولكن بلطف ورقة وحنان كما يبدو . فالتحق الشيخ بعشيرته مثقلاً بالذهب والهدايا . في حين ان السيدة الجليلة توجهت الى طهران تتقدمها رسالة من قنصلنا مرسلة الى وزيرنا في فارس محذرة اياه من مواطنة ماجنة متهتكة الى ما لا نهاية .

ولكن غالبية الجالية الفرنسية كانت مؤلفة من المبشرين الكاثوليكيين والرهبان والراهبات . فالكراملة منهم في بغداد والدومينيكان منهم في الموصل . وعلى سبيل المثال كان يوجد في عام ١٨٦٧ في بغداد ثلاثة اباء فرنسيين يديرون مدرسة للطلاب البرانيين (الخارجيين) ويوجد خمس راهبات منهمكات بادارة مدرسة للبنات . وفي عام ١٨٨٢ كان للرهبان الفرنسيين عدة منشآت في الموصل : فهناك مدرسة اكليريكية للاكليروس الكلدان ويبلغ عدد طلابها (٢٩ طالباً) وهناك مدرسة للطلاب البرانيين ويبلغ عدد طلابها (١٤٠ طالباً) ١١٠ منهم من الطلاب الكاثوليك و ٧ من الطلاب المسلمين . وهناك دار للعجزة . وهناك مطبعة عربية . اما بالنسبة للبنات فهناك الأخوات راهبات التقدمة اللواتي كن يقمن بادارة مدرسة داخلية لرعاية البنات اليتيمات وعددهن ١٢ طالبة . كما كن يدرن مدرسة برانية يبلغ طلابها

٢٣٤ طالباً ١٨١ منهم من الكاثوليك و ٣٠ منهم من المسلمين : اما الموظفون الفرنسيون لهذه المؤسسات فقد كانوا عشرة اباء واحدى عشرة راهبة من الاخوات . وكانوا بالاضافة الى ذلك يعاونون في ادارة خمس عشرة مدرسة كاثوليكية مبعثرة في كافة ارجاء القطر .

وهذه المؤسسات كانت تتلقى اعانات من الحكومة الفرنسية : ١٥٠٠ فرنك لبغداد عام ١٨٦٧ و ١١٥٠٠ فرنك للموصل في عام ١٨٨٢ . ولكن قناصلنا الذين كانوا يفتشون هذه المنشآت بدون انقطاع كانوا يشكون من قلة عدد الطلاب الذين يتعلمون اللغة الفرنسية . كما كانوا يضجون بالشكوى من نوعية التعليم . وكانوا يجاهدون في معالجة هذه الحالة ولكنهم كانوا يصطدمون بلا مبالاة اولياء الطلاب من جهة وبجمود المربين من الجهة الاخرى .

اما العلاقات بين السلطات المدنية والسلطات الدينية فقد كانت بصورة عامة حسنة ايام حكم الملكية العائدة وفي عهد ملكية تموز . ولكن هذه العلاقات ساءت وتعكرت عقب ذلك واصبحت على درجة لابأس بها من التوتر في نهاية القرن . وإن القناصل ليحنون هاماتهم اجلالاً للاعمال التي انجزها المبشرون . ولكنهم يشكون من تشربهم بالروح التبشيرية ومن اهداف بعض القصاد الرسوليين الطموحة .

ففي عام ١٨٥٧ حكم نائب قنصلنا في الموصل مسيو (بوفيه) حكما صارماً على احد هؤلاء المبشرين فكتب يقول : « ان هذا الشخص هو اليوم (مثلما كان دائماً) ينبوع لاينضب بخصوص اقلاق راحة القنصلية . . فهو يحمل روحية كارهة مبغضة . وهو متقلقل لايستقر على حال . وهو استفزازي بشكل عجيب . وهو مسلح دائما بالدسائس والاحابيل والخدع . وهو

لايستطيع ان يغتفر للاتراك كونهم مسلمين ! وهو يصرح بانه لايضمر لهم اية نية طيبة . وهو يخلف وعوده مع الناس اجمعين . وفي كل زمان ومكان . وهو يحرضنا على السلطة ويحرض السلطة علينا ويدعنا يموج بعضنا ببعض ، وقد يدفعنا الى خوض معارك جدلية شائكة مع هذه السلطة وقد يثير السلطة بغتة عندما يوشك الطرفان ان يلتقيا في بعض النقاط ويتصالحا . كل هذا ، يا سيادة الوزير ، ما يزال سهل التحمل بالنسبة لقنصلكم فعلى عاتق هذا القنصل يقع عبء تسوية اموره مع الحبر الفهامة لهذه البلاد . وهو لن يشكو من مسألة تافهة كهذه . ولكن هناك اسبابا اخرى اشد خطورة تدفعني دفعاً الى مفاتحة معاليكم اليوم حول مونسنيور (ب) . فان هذا يعود الى اخوية الجزويت . وهو مولود في فرنسا ولكنه يكره وطنه الاصلي . وهو يقول ان ملك نابولي يعادل على الاقل فرنسا ! وهو يجاهر بهذا الرأي ويرفع به صوته الى حد الزعيق . وهو يقول ان فرنسا مباءة للفساد . وحين يتحدث عن الامبراطور يلوى لسانه باسم بونابرت . وهو يقول حين يتحدث معي : « لم احب هذا العنصر ابدا » . وهو يقرأ جريدة (العالم) فيغلي راسه من هذه القراءة فيعتقد كما يظهر أن رأيه الشخصي لاغنى عنه لسلام اوروبا واطمئنانها . ويظل يطاردني بثرثراته لعلي اشاركه في سفاسفه . وهو يحدثني عن مقته للوالي بنفس اللهجة التي يتحدث فيها عن شماسه . وهو على علم واسع بالنوادر والطرائف والفضائح التي تخص قصور (التويلرى) . واوسع من ذلك علمه بالامراض التي تقرض صحة بونابرت قرضاً . ومعلوماته هذه تصدر من مصادر معصومة من الزلل والخطأ ! وانك لتعلم يا سيادة الوزير ، انني اقل الناس تحملاً لامثال هذه الاحاديث البائخة التي تطعن الامبراطور وفرنسا في اقدس اقداسهما . وسابذل مع ذلك

كل ما فى طوقي للتمسك بالروية والاعتدال تجاهه حتى اليوم الذي يطيب لمعاليكم فيه ان يجد لي تدبيراً حيال هذا الشخص فاتلقى بهذا الخصرص تعليماتكم التي انا بانتظارها على احر من الجمر ، فاغيثوني بها . وان هذا السيد المنتدب على خطأ في ان يدع الناس يترصدون حركاته وسكناته ويشكون في اخلاقه ويتحدثون بحرية وانطلاق ودون تحفظ . وعلاوة على اندساسه في كل مكان وعلى استقباله عدداً هائلاً من النساء في اوضاع وظروف وهيئات مريبة ومن بين هؤلاء النسوة من اشتهرن بالاستهتار وسوء السلوك فانه يرتكب بعض الحماقات كحماقة إلباسه في هذه الايام (كما يؤكد الناس هنا) لاحدى نساء اصدقائه ثوبا فصل من رداء كان يرتديه منذ سبع سنوات سلفه الذي ورث عنه هذا الرداء عند زينته الاسقفية » (١)

ولكني لم اجد في ارشيفات وزارة الخارجية اثراً لارسال التعليمات المطلوبة من قبل مسيو (بوفيه) . وينبغي ان نضيف الى ذلك ان مسيو بوفيه قد وقع في مرض خطير في تلك الآونة فتولد لديه الشعور بالاضطهاد فاظلمت موضوعيته وفسدت احكامه .

وقد وقعت لاحد اخلافه ايضاً وهو مسيو سيوفى خصومة مع القاصد الرسولى لتلك الفترة الذي يرسم لنا صورتها على هذه الشاكلة فيقول . « انه مخاتل مراوغ يظهر ما لايبطن . وهو منافق مداهن ناعم الملمس يعطيك من طرف اللسان حلاوة حينما يريد الحصول على شيء . ولكنه متغطرس متعجرف تياه بل حتى متهور تجاه اولئك الذين هم بحاجة اليه او تحت رحمته . وكل الوسائل لديه حسنة اذا افضت به الى مرامه (الغاية تبرر الواسطة) وكل مفعول لديه جائز في سبيل بلوغ النجاح . وهو لايخشى من بذر بذور

---

(١) الرسالة المؤرخة في ٦ آب ١٨٥٧ .

الفتن والقلاقل والاضطرابات في صفوف النـاس ، وهو لايتحرك في اغلب الاحيان الا بدافع الغرور أو بباعث من المصلحة . ويحلو له ان يمشى بالسعاية والنميمة بين الناس ولا يهمه في شيء ما تؤدي اليه هذه الاعمال من جروح بليغة في كرامته ومنزلته . وان الارسالية هنا لا تمارس سلطانها على كاثوليك هذه البلاد الا عن طريق الاموال التي بحوزتها وليس عن طريق المودة والالفة والعواطف الاخوية . وهذا ما جعل هـذه الارسالية لايدور في فلكها الا المداهنون والمتملقون والمتزلفون ، في حين يبتعد عنها الاصدقاء ، وهم الكثرة الكاثرة من انصارها في هذه المدينة » (٢)

والواقع ان اشد ما ينقمه قنصلنا على المبعوث كان من الناحية البروتوكولية : فهذا المبعوث يطالب لنفسه بالتمتع بحقوق الصدارة والتقدم التي ينكرها عليه - وهو مصيب في انكاره - مسيو سيوفى ولا يعتقد باحقيته في في استعمالها الا في الاحتفالات والمراسيم الدينية . وأياً كان الامر فان المبعوث قد وصل الى روما ليرسمه الراسمون اسقفاً فوجد السفير يشكو منه مر الشكوى لدى قداسـة البابا فاعترف بارتكابه الاخطاء ووعد بان ينسى الماضي . وعلى اثر ذلك كتب وزير الخارجية الذي لم يكن في ذلك العهد سوى (جول فيري) طالباً الى القنصل توجيه رسالة تبريكات الى الاسقف الجديد بمناسبة رسمه اسقفاً . واختتم رسالته بهذه العبارات : « اما بشأن العلاقات التي ستنشئها معه بعـد رجوعه الى بلاد ما بين النهرين فلا يسعنى الا ايصاؤك بمراعاة الاعتبـارات التي كانت قائمة في ايام سلفه . على انني بالاضافة الى ذلك معتمد على كياستك وعلى حنكتك لاعطاء هـذا الوفاق طابعاً دائمياً ولتفادى عودة المتاعب التي تضر من حيث النتيجة بمحبي فرنسا

---

(٢) ألرسالة المؤرخة في ٢٢ مايس ١٨٨٤ .

وبمقام البابوية وهو حب مشترك » . (٣)

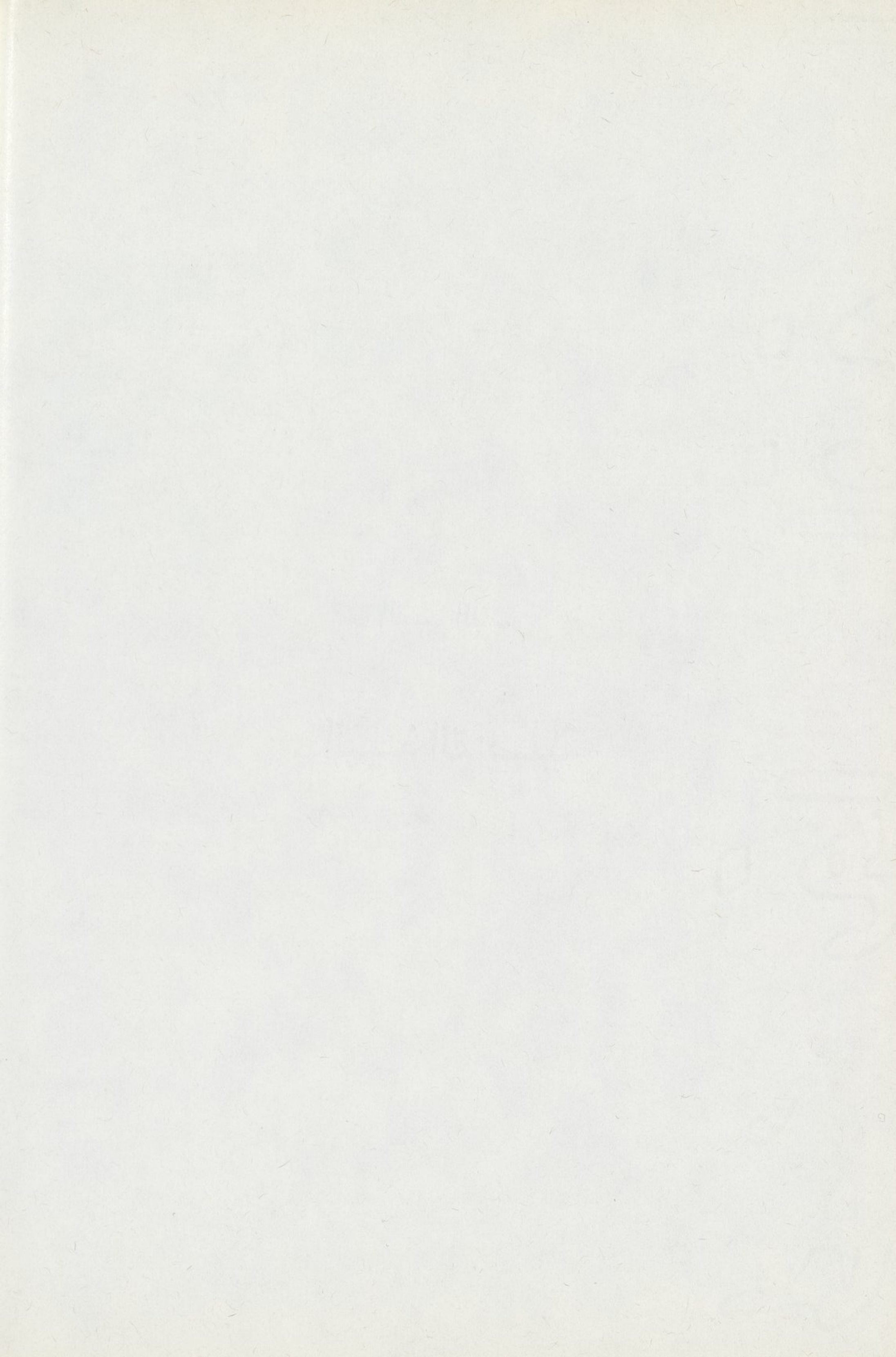
ورغم ذلك فان هذه الخصومات الشخصية لم تكن لتمنع سيوفي نفسه من اقامة افضل العلاقات مع الدومينيكان في الموصل . فان هؤلاء الذين اظهروا اسمى ما تكنه الارواح النبيلة من رحمة وحنو واشفاق اثناء المجاعة التي عاثت بمدينة الموصل على ١٨٨٠ قد توسل سيوفى الى الحكومة ان تمنحهم « ساعة خارجية دقاقة كانوا يشتهونها ويتمنونها منذ عهد بعيد ولكنهم لم يكونوا ليملكوا وسائل دفع اثمانها . على ان تكون ذات اربعة وجوه اذا امكن وذلك ليعلم الوقت بفضلها جميع سكان الموصل كائنة ما كانت الجهة التي هم فيها » . فاجيب الرجل الى طلبه ووجه رئيس الدير رسالة شكر الى وزير الخارجية الفرنسية تحمل تاريخ اليوم الثامن والعشرين من شهر شباط لعام ١٨٨١ . وكان اهم ما جاء فيها العبارات التالية : « ان هذه التحفة الناطقة باللطف والكرم التي نزلت على نفوسنا من يدكم الكريمة بدون وساطة سوف تعلن بصورة فعالة للغاية لانظار الاهالى الذين يحفون بنا من كل جانب عن الرعاية السامية التي شملتمونا بها . وهي وسيلة للاعراب عن هذه الرعاية التي لا تستطيع وصفها أفصح الخطب وابلغها . ان هذه الساعة الدقاقة حين تسمع صوتها الآذان لتذكر سكان مدينتنا حتى بعد اجيال واجيال متلاحقة بأن فرنسا تحب دائماً نشر مبرات جودها وسخائها التي تشمل بها ابناءها كما تشمل بها كافة شعوب الشرق سواء بسواء » .

---

(٣) الرسالة المؤرخة في ١٧ أيلول ١٨٨٤ .

القسم العاشر

الهيئة القنصلية



ان الدول الوحيدة التي كان لها ممثلون في بغداد وفي الموصل خلال الشطر الاعظم من القرن الماضي كانت فرنسا وبريطانيا العظمى وفارس . وقد سبق ان اتيحت لي الفرصة للتحدث عن المنازعات التي كان يطير شرارها بين قناصلنا وبين زملائهم البريطانيين الذين كانوا محظوظين اكثر من قناصلنا على الصعيد المالي ، والذين كان قناصلنا يراقبون حركاتهم وسكناتهم بريبة وحذر . ومع ذلك فقد تحسنت العلاقات بين الطرفين خلال السنوات الاخيرة من القرن المنصرم حتى اصبحت روابط ودية منذ عقد الوفاق الودي .

اما قناصل فارس فكان يهمهم اكثر ما يهمهم شؤون مواطنيهم ومقدراتهم بصورة خاصة . وهؤلاء المواطنون كانوا يقيمون في العراق باعداد كبيرة كما كان هؤلاء القناصل معنيين برعاية مصالح الطائفة الشيعية بصورة عامة . وكان بعضهم قد اخذوا فكرة عجيبة غريبة عن مهمتهم ، مستنداً في حكمي هذا على ما كتبه في العشرين من كانون الثاني ١٨٤٧ البارون دى فيمار عن زميله الذى اوردته الكوليرا حتفه . قال : « لقد ظهر من التحري الذي جرى في منزله ومن جرد امواله انه قد اوعز باختطاف عدة نساء تركيات واحالهن الى جوار يستمتع بجمال بعضهن في بغداد ويرسل بعضهن الى فارس . وقد اعتقل والي بغداد صهر القنصل الراحل ووضعه تحت الرقابة حتى عادت الى بغداد احدى هؤلاء الضحايا وكانت قد ارسلت الى فارس . وبعد وصولها سلمت الى عائلتها . وقد ثار غبار نزاع وجدال حول موضوع مختلف المواد الثمينة التي استلبها المتوفى سواء من المسافرين الفرس أو من جوامع كربلاء

ومساجدها . وكان سلوك هذا القنصل الشاذ الغريب الاطوار معروفا منذ عهد بعيد لدى رؤسائه في طهران . ولكن يبدو ان حكومة الشاه كانت تكره احلال قنصل آخر محله قبل التسوية النهائية للمشاكل التركية الفارسية » .

وفي عام ١٨٨٣ ارتأت روسيا ان من المفيد لها ان تقيم لنفسها قنصلية فى العراق فبادرت الى تعيين قنصل يمثلها في الموصل احباطا لدسائس الانكليز واحابيلهم في هذه المناطق التي كانت روسيا تشعر بقلق من نشاط هؤلاء في ربوعها . ولكن هذا القنصل اثبت انه رجل ارعن احمق في علاقاته مع السلطات المحلية التي سرعان ما ساورتها الشكوك من انهماك هذا القنصل في أعمال الجاسوسية . ويبدو ان قنصلنا مسيو سيوفى يشاطر السلطات المحلية هذا الراى فقد كتب يقول : « لقد وصل القنصل الروسي يصحبه شاب يافع قدمه بوصفه سكرتيره . ولكنه في الحقيقة والواقع لم يكن سكرتيره بل كان ضابط هندسة له هدف اعترف به هو التقاط صور فوتوغرافية ورسم لوحات زيتية . ورأيت لديه خريطة جغرافية للقفقاس ولارمينيا ولبلاد ما بين النهرين . ولكن الامر الذي ادهشني واذهلنى لدى امعاني النظر في هذه الخريطة هو ان الجزأين الاولين منها كانا يحتويان على تأشيرات جغرافية في غاية الاسراف شأنهما كشأن كافة الاشياء من هذا النوع اللهم الا بلاد ما بين النهرين التي كان معظمها خالياً من هذه التأشيرات ولم تكن مؤشرة الا بالنهرين العظيمين اللذين تنداح بينهما هذه البلاد المسماة باسم هذين النهرين . واذ استفسرت عن علة هذا النقص الخطير اجابني القنصل انه ما زال يجهل هذه البلاد . فلم يبد لنفسي هذا التفسير مقنعاً بالمرة . لان الروس بالغاً ما بلغ جهلهم ومهما كانت درجة تأخرهم وتخلفهم في المسائل الجغرافية فلابد أنهم يعرفون على الاقل مواضع النقاط الرئيسية في بلاد

عظيمة كبلاد ما بين النهرين . اذن فيحق لنا ان نفترض ان هذه الكثرة من الوكلاء الروس لها مهام مختلفة . فبعض هؤلاء الوكلاء مكلفون بدراسة القطر وطرق المواصلات فيه وبعضهم مهمتهم القيام بالاعمال الطبوغرافية في هذا الجزء التابع لتركيا » .

اما الدولة الاخرى التي لم تهتم بشؤون العراق الامؤخراً فقد كانت المانيا . فان قنصلها الأول لم يعين في بغداد الا في مطلع هذا القرن في اعقاب قضية عجيبة تحزب لها ممثلنا مسيو پونيون بتطرف وتهور لسبب واحد ، كما يبدو ، لم يكن سوى عواطفه الكارهة للدين ولرجال الدين . فمنذ بضع سنوات القى عصا الترحال في عاصمة الخلفاء شاب الماني يافع يدعى (ريتشارز) وهو باذخ الغنى ، متعطل ، سيد الموقف في حفلات الاستقبال التي كانت تستهوى افئدة الجالية الأوروبية الصغيرة التي اصبح هذا الفتى الالماني مطمح انظارها .

وفي احد الايام زعم غلام من تلاميذ آبائنا الكرمليين انه وقع ضحية نزوات (ريتشارز) الألماني الجنسية التي رفعت عائلته ضدها الدعوى . واثارت هذه القضية انفعالات عنيفة في المدينة التي انقسمت الى معسكرين . اما قنصلنا الذي وقعت له مشادات ومشاجرات مع مواطنينا من رجال الدين في عدة مناسبات فقد انحاز انحيازاً حاداً الى جانب الشاب الالماني الذي لم يكن مع ذلك ممن شملتهم حمايتنا . فكتب الى باريس رسالة في اثر رسالة ليبرهن على براءة صاحبه . واننا اذا عمدنا الى تصديق ما يقوله ريتشارز فانه يكون قد وقع ضحية لمؤامرة سافلة حاك خيوطها للايقاع به الآباء الكراملة الذين ينعون عليه عدم الامتناع عن تناول اللحم والدسم (عدم الصيام) يوم الجمعة ، واقامته حفلات راقصة اثناء الصوم الكبير . اما

الضحية المزعومة فيتابع مسيو پونيون حديثه عنها قائلاً : « لقد اثبت التحقيق والفحص الطبيان ان هذا الغلام الكرملي المضحك قد سبقت استباحته بافراط بحيث لم يعد في حيز الامكان اثبات وقوع الاعتداء الاخير على شرفه أو نفيه » . (١)

واخيراً لم يطل امد التحقيق ولم ينته الى شيء وظهرت الحكومة الالمانية بمظهر المستاء من هذا التشهير الذي احاط هـذه المشكلة فارادت البرهنة عملياً على اقتناعها ببراءة احد رعاياها فعينت ريتشارز قنصلاً لها في بغداد . فطار من الفرح بهذا التعيين زميله الفرنسي .

ولكن القنصل الفرنسي كان مخطئاً في حسبانه احراز الانتصار ، فان السيد ريتشارز لم تكن سمعته فوق الشبهات اذ ما ان اندلعت قضية (اولانبورغ) (٢) حتى كان احد ضحاياها إذ عزل من منصبه واضطر الى مغادرة القطر . ويقص علينا خلف مسيو پونيون تفاصيل الواقعة ويبدى دهشته من تحمس سلفه الحاد وجعجعته لغرض اثبات براءة الفتى الالماني فيكتب : « اي دافع دفع هذا الشاب الثري الانيق سليل الاسرة النبيلة للمجيء الى بغداد ان لم يكن ذلك لاحتمال الاستفادة من الفرص التي تتيحها له مدينة عامورة الجديدة ؟ » .

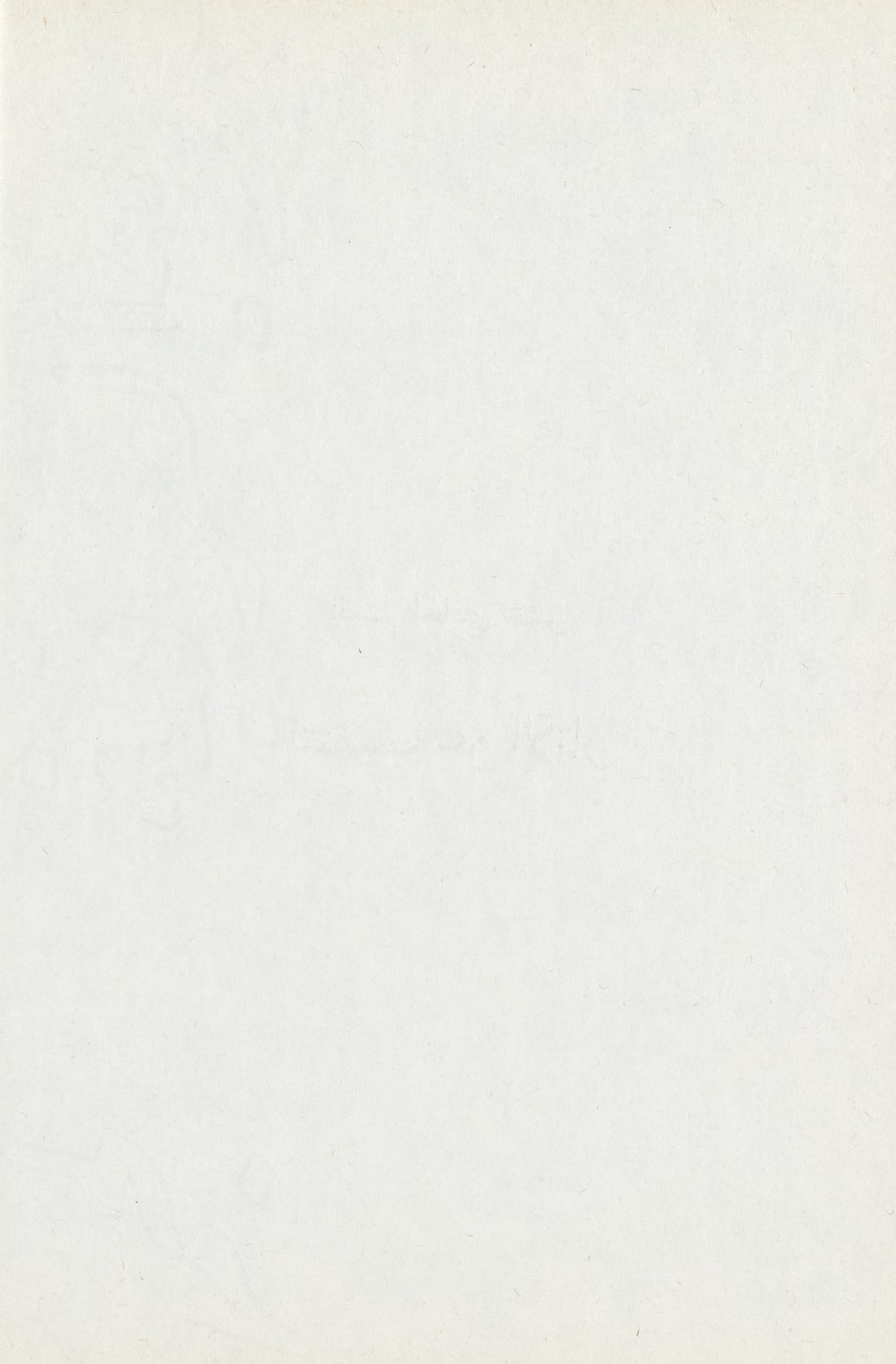
---

(١) الرسالة المؤرخة في ٦ نيسان ١٨٩٥ .

(٢) Eulenbourg (Philipe). سياسي وكاتب الماني ، ولد عام ١٨٤٧ ، وتوفي عام ١٩٢١ وقد ساهم في الحرب الفرنسية البروسنية ، ودخل عام ١٨٧٧ باب الدبلوماسية . واختتم حياته كسفير في فيينا (١٨٩٤-١٩٠٢) . وفي عام ١٩٠٧ ، عقب اكتشاف فضائح Maximilien Harden غادر البلاط الالماني (المترجم) .

القسم الحادي عشر

التنقيب عن الآثار



إن علم الآثار القديمة الفرنسي مدين بافدح الديون الى ممثلينا القنصليين في العراق الا وهم : (بوتا) و (بلاس) و (سارزيك) الذين كانوا في الواقع رواد هذا العلم في بلاد ما بين النهرين . ولم يكافأ الاول ولا الثاني وذلك لان الحكومة اذا كانت قد اعانتهما على الصعيد المالي في اعمالهما فانهما لم يسلما مع ذلك من غضب الحكومة وسخطها عليهما . وعلى العكس من ذلك اذا كانت قد حدثت لسارزيك كما سنرى مشادات ومنازعات خطيرة مع قنصلنا في بغداد مسيو پونيون فان سارزيك هذا كان مسانداً على الدوام من قبل وزارة المعارف العمومية حيث كان له في دوائرها اصدقاء متنفذون .

من المعروف لدى كثير من المعنيين بشؤون الآثار القديمة ان بوتا الذي عين عام ١٨٤١ معتمداً قنصلياً في الموصل قد اكتشف خلال السنة التالية : لتعيينه ، قصر سرجون في خورصاباد . ولكنني والاسف الشديد يأخذ بخناقي لم اقع في ارشفيات وزارة الخارجية الفرنسية على اي رسالة منه تتعلق بتنقيباته وحفرياته . وان الوثيقتين الوحيدتين الخاصتين بمهمته الآثارية هما من جهة ، عبارة عن رسالة تحمل تاريخ اليوم الخامس والعشرين من شهر آب لعام ١٨٤٣ معلمة اياه برحيل الرسام (فلاندان) الى الموصل وهو المكلف بوضع التصاميم والرسوم للقطع الاثرية المكتشفة ، ومن الجهة الاخرى ، رسالة من البارون دى فيمار قنصلنا العام في بغداد مؤرخة في الخامس والعشرين من كانون الثاني لعام ١٨٤٦ وهي عبارة عن قائمة حساب

بتكاليف نقل الآثار الفنيـة الى باريس . ويجب ان نلاحظ ان البارون دى فيمار لم تكن له سوى فكـرة شديدة الغموض عن طبوغرافية اعمال التنقيب . والشاهد على ذلك انه يعزو الى نينوى ما لا يمكن ان يصـدر الا عن خورصاباد . ذلك لان بوتا كان قد ترك تنقيباته في موقع العاصمة الآشورية دون العثور على شيء جدير بالاهتمام .

واليكم الان ما كتبه مسيو دى فيمار : (ان الأرماث (الأكلاك) المكلفة بنقـل منحوتات نينوى لم يظهر لهـا اثر في البصرة حتى اليـوم الثـامن من كانون الثاني * . وان الكتل القديمة المكتشفة في نينوى ما زالت حتى هـذه اللحظة قابعة في بغداد . اما الرسائل المختلفة التي كان لي شرف توجيهها الى معالي وزير الداخلية مشيراً عليـه بضرورة ارسـال الاموال اللازمة والاوامر الضرورية لشحن هذه التحف الى البصرة خلال الموسم الملائم لهذه الملاحة الطويلة الشاقة فانها لم تحظ بأي جواب حتى يومنا هذا) . وأخيراً شحنت القطع الى بغداد في اليوم الثـامن والعشرين من شهر آذار لعام ١٨٣٦ . وقد وصف هذا الشحن بكـونه (عملية شاقة نظراً لنوعية السفن العربية الرديئة المستعملة ولقلة العمال ولعدم وجود الالات) ، فلم تصل هـــذه الاشياء الى فرنسا الا في مطلع عام ١٨٤٧ حيث اثارت الاعجاب العـام . ولكن بوتا كان قد غادر الموصل في تلك الاونة .

وبعد ذلك باسابيع معدودات استأنفت هـــذه الاعمال من قبل احد اخلافه وهو فيكتور بلاس وقد اعترضت سبيل هذا الآثاري صعوبات كبيرة .

(*) عندما شرع (بوتا) بالتنقيب في خورصاباد ، كان يظن أنه ينقب في جـزء من أطلال نينوى ، ولم يكشف عن أسم خورصاباد ، (دور شروكين ألقديمة) عاصمـة سرجون الا بعد مدة . وهنا يشير ألى حادثة غرق مجموعة من الاثـار ألمكتشفة في مكان قريب من القرنة في ٢١ـ٥ـ١٨٥٥ .

(س١٠)

ذلك لان البلاد كانت تعاني في تلك الفترات من هزات وقلاقل خطيرة . وكان يتحتم عليه حماية لعماله ان يبرم اتفاقيات مع العشائر المجاورة ليشتري حماية هؤلاء العمال ، وهو الامر الذي اعتذر عنه في الثامن من تشرين الثاني عام ١٨٥٢ بالعبارات التالية : « انها لعادة يتبعها هنا التجار المرغمون على تعبئة القوافل وارسالها . واؤمل ان يحظى هذا التصرف بموافقتكم وتأييدكم ، وهو سلوك فرضته فرضاً عليّ القلاقل والاضطرابات في هذا القطر العجيب الذي (اسكنه) » . وعلاوة على ذلك فقد اضطر في احايين كثيرة الى ايقاف اعمال التنقيبات لنفاد الاموال . ففي عام ١٨٥٤ مثلاً ارسل الى زميله في بغداد كمبيالة على باريس لم يستطع صرفها في الموصل بسبب اختلال حبل الامن في مطالع حرب القرم ، وقد رجا قنصلنا العام ان يشحن اليه بعض الاموال التي هو في أمس الحاجة اليها .

واستعذبت باريس طعم هذه النفائس التي كان قد اتحفها بها بوتا فطلبت من فيكتور پلاس عدداً من النقوش البارزة ومن التماثيل التي يخلق استخراجها ونقلها في تلك الحقبة مشاكل ليس الى حلها تقريباً من سبيل . وكان بوتا قد لجأ في زمانه الى تقطيع التماثيل الى قطع صغيرة نسبياً لاستطاعة ارسالها الى باريس . اما پلاس فيقول لنا (سيرام) في كتابه المعنون . « مغامرة التنقيبات الاثرية » إنه (لم يجزىء الكتل الكبيرة ولكنه استعمل آلة صنعت خصيصاً لهذا الغرض . وكان يسحبها المئات من سكان البلاد ، فنقل على هذه الشاكلة عدة ثيران مجنحة بلغ وزن بعضها ٣٢ طناً) . ولابد اننا الان نتصور المشاكل التي كانت تثيرها قضية اجور العمال والاحتفاظ باليد العاملة .

وحين تصل هذه الكتل على هذا المنوال الى شواطىء دجلة كانت تحمل

فتوضع على متون الاكلاك . هذه الارماث التي سبق ان تحدثت عنها . وهي التي يقع على كاهلها عبء نقل هذه القطع الى البصرة حيث تنقل من هناك على ظهور سفن من البحرية الوطنية . ولكن الحوادث كانت كثيرة . ففي عهد بوتا غرقت اكلاك عديدة وغاصت حمولتها الى قعر النهر . أما في عام ١٨٥٦ فقد وقعت الطامة الكبرى . فمن مجموع مائتين وخمس وثلاثين قطعة فنية مستخرجة من قصر خورصاباد نجت ست وعشرون قطعة وصلت الى البصرة . وقد عثرت في ارشيفات السفارة في بغداد على محضر غرق السفينة . وهذا المحضر ما يزال موجوداً في السفارة . وقد كان سبب هذه النكبة خرق بنود الاتفاق وسوء النية . فان هذا الموكب النهري قد هوجم من قبل سكان البلاد على بعد بضعة كيلو مترات من شمال القرنة في محل اختلاط دجلة بالفرات . فبالرغم من التعليمات المشددة القاطعة التي زود بها ربان الاكلاك فانه ضرب بهذه التوصيات عرض الحائط وحمل اكلاكه بالبضائع الرخيصة التي اسالت لعاب سكان الشواطىء واستفزت اطماعهم . فهاجم هؤلاء هذا الاسطول المنفوخ وبعجوا اجربة الاكلاك ونهبوا كل ما عليه من متاع لم يقدر له الغرق وسلبوا المسافرين . أما الفرنسيون الذين رافقوا المركب فقد وجدوا على الساحل عراة كأنهم ديدان . واضطروا الى قطع المسافة مشياً على الاقدام حتى وصلوا الى القرنة حيث اخطروا السفن الفرنسية التي كانت بانتظارهم في البصرة . فسارت هذه المراكب صعدا في النهر حتى بلغت موضع الغرق . واستطاع ملاحوها الحصول على محتويات كلكين كانا قد جنحا الى الساحل ولكن محتويات الاكلاك الاخرى كانت قد انبطحت في قاع النهر . وقد غاصت التماثيل في الاوحال . ولعدم وجود وسائل رفع كافية اضطر هؤلاء الملاحون الى ترك القطع الخالدة تغوص في

الرمال الآسنة الى يوم الدين . وقد تأثر مدير الآثار العراقية ★ عميق التأثر واظهر بالغ الاهتمام حين اطلع على هــذه الوثيقة التي اريته اياها . لان محضر قضية الغرق يعين بمنتهى الدقة محل رقود هذا الكنز الفريد . (١)

وقد تمنى ان يوفق الى ارسال حملة للبحث عن هــذه المفقودات بل سألني عن امكانية مساهمة مواطننا (كوستو) وبعض زملائه المعنيين باستخراج الآثار القديمة من تحت المياه في هذه المحاولة . ولكن من سوء الحظ ان يصادف وقوع هذه المحاولة اليائسة في خريف عام ١٩٥٦ . ذلك لان العلاقات الدبلوماسية انقطعت بعد ذلك بايام معدودات بين فرنسا والعراق . ولا ادري ان كانت قد اعقبت هذه المفاتحة بالانقاذ محاولة عملية جدية .

اما القنصل الاثاري الفرنسي الاخير في العراق فقد كان مسيو دى سارزيك وهو المعتمد القنصلي في البصرة من عام ١٨٧٥ حتى عام ١٨٨٤ ثم عين قنصلاً في بغداد التي مكث في ربوعها من سنة ١٨٨٤ حتى سنة ١٨٨٧ . ومنــــذ عام ١٨٧٧ اولع مواطننا بموضع (تللو) الواقع فى بلاد ما بين النهرين السفلى في محل المدينة السومرية العتيقة لگش . فعمل في استنطاق آثارها حتى ادركته منيته في عام ١٩٠٠ .

ومنذ البداية واجه اعماله بوصفه عالما اثارياً وادار مهامه الرسمية بحزم

(★) مدير الآثار العام في هذه الفترة كان المرحوم الدكتور ناجي الاصيل (س٠أ)

(١) كتب القصصي الفرنسي جوستاف فلوبير في كتابه الموسوم (رحلة الى الشرق الصادر في عام ١٨٥٠ والذي دعاه مسيو بوتا الى تناول الطعام معه يوم كان قنصلا في القدس مايلى : (ان بوتا انسان متخرب وهو رجل الخرائب في مدينة الخرائب ٠ أنه يفكر بكل شيء ويبدو أنه يكره كل شيء عدا الاموات ٠ أنه يحن الى العصر الوسيط كل الحنين ويعجب بمونسنيور دي ميستر ٠ وهو يتعلم الان العزف على البيانو ويعترف كل الحنين ويعجب بمونسنيور دى ميستر ٠ وهو يتعلم الان العزف على البيانو ويعترف بانه ليس حفار قبور (كذا) ٠ أنها فترة من حياة هذا الرجل وهي فترة حافلة بالمحاولات وحياته نسيج عجيب ٠ فهو طبيب وعالــم طبيعي وقنصل وعالــم آثار ٠ وقــد جرب محاولاته الاخيرة في الاثار وتعلق بها ولا يهوى سواها ٠ فيا له في الختــام من شخص مسكين) ا٠
(المؤلف)

وثبات . وكان هذا الموقف هو السبب الاول للمشادات التي وقعت له مع مسيو پونيون القنصل في بغداد ثم خلفه . فقد كان پونيون معنياً بشؤون الآثار القديمة لانه كان هو نفسه خلال ثلاث سنوات مكلفاً بالقاء محاضرات عن اللغة الاشورية في مدرسة الدراسات العليا قبل ان يدخل في السلك القنصلي . ومن جهة اخرى كانت الحكومة قد كلفته بتسوية نفقات بعثة دى سارزيك . وهذا التكليف جعله يتخيل ان له بعض الحق في الاشراف على الاعمال الجارية ، وخلاصة الحكاية ان الرجلين سرعان ما اصبحا عدوين لدودين لبعضهما ، بحيث ان مراسلات مسيو پونيون بدت تعج بالشكاوى والقدح والطعن ضد سلفه .

ولو رجعنا الى اصول الموضوع لتبدى لنا أن مسيو پونيون قد ادرك اهمية موضع (تللو) . افلم يكتب في اليوم السادس من مايس ۱۸۸۷ ما يلي : « ان ما يميز تمييزاً خاصاً موقع تللو ويخلع على مستكشفات مسيو دى سارزيك اهمية استثنائية هو ان هذه البقعة تضم في حناياها خرائب مدينة قديمة دمرت منذ عهد سحيق في القدم للغاية ولم يكتب لها ان يعاد تشييدها من جديد ولا ان تتناولها يد الترميم . ولذلك فاذا كانت مشيدات اقدم الاحقاب قد انطمست لتحل محلها منشئات حديثة نسبياً كما حدث في بابل والوركاء وفي كل البقاع التي استكشفها في بلاد ما بين النهرين فان الامر يختلف بالنسبة لموضع تللو حيث يخيل الينا ان الحياة قد انقطع تيارها بصورة فجائية هناك . فنحن واجدون خرائب ذات طابع غارق في ظلمات القدم . ولكنه طابع خاص ليس كمثله طابع بحيث ان الاهتمام الذي يثيره هو اهتمام بالغ العظم . ولو سمح لي باستعمال موازنة لعلها تبدو متكلفة لقلت بان موقع (تللو) بالنسبة لبلاد ما بين النهرين

يوازي موقع (پومپي) بالنسبة لايطاليا ؟ » .

ولكن هذا الوفاق لم يدم طويلاً . فقد ساد سوء التفاهم بين مسيو دى سارزيك وبين الموظف التركي المكلف بمراقبة اعمال الحفر والتنقيب . وكان هذا الموظف يدعى بدرى بيك . وقد شكاه الى مسيو پونيون وطالب بتسديد مبلغ زعم ان العالم الاثاري كان قد اقترضه منه دون ان يعلم بذلك الاقتراض قنصلنا . فما كان من هذا الا ان اسرع باخبار الوزارة بالواقعة التي ضمنها الرسالة التالية المؤرخة في الخامس من كانون الثاني لعام ١٨٩٠ والتي ظهر فيها ارتياحه بل سروره المفرط من ادراج كافة الانتقادات التى وجهها بدري بيك الى دى سارزيك ، واليكم نص الرسالة الجارحة :

« لقد اكد بدري بيك ان مسيو دى سارزيك لم يجلب من فرنسا اي اداة . واضطر الى ان لايستعمل سوى خمس مساح وسبعة معاول وتسع مجارف تركت من قبله لدى احد سكان القطر اثناء تنقيباته الاولى منذ عشر سنوات . واضاف ان مقابض هذه الادوات قد تهرات . ولم تكن في حوزة مسيو دى سارزيك نقود تركية لانه لم يحمل سوى النقود لشراء الخشب بهذه النقود . وادعى اخيراً انه حين ذهب لتوديع مسيو دى سارزيك في يوم رحيله عن البصرة على ظهر سفينة كانت تهم برفع مرساتها ايذاناً بالرحيل فان صاحبنا قد صرف بدري بيك شبه مطرود واحاله الي لأسدد عنه دينه في بغداد . وقد بدت لي هذه الحكاية وكأنها اسطورة من اساطير الجن إذ خيل الي ان من المستحيل ان عائلة دى سارزيك المكلفة بمهمة خطيرة كهذه او التي تتظاهر بخطورة هذه المهمة (كذا) لم تكن تحمل معها اية اداة (٢) كما خيل الي كذلك ان من المستحيل على مسيو دى سارزيك

---

(٢) كان يرأفق مسيو دي سارزيك في موقع تللو زوجته ونجله فاستاء مسيو پونيون من هذه الرفقة أشد الاستياء . (المؤلف)

وهو قنصل فرنسا ان يتفادى خسران بضعة قروش في سبيل مبادلة العملة الذهبية الفرنسية بعملة تركية فيلجأ الى اقتراض تسعة وستين فرنكا من تركي بائس يتضور جوعاً والى عدم رد المبلغ اليه في اقرب وقت ممكن . وأخيراً يخيل الي ان ما هو اشد استحالة من هذا وذاك ان يحاول مسيو دى سارزيك التخفف من الاعمال العلمية التى ارهقته فيلهو باللعب مع بدري بيك على ظهر الباخرة التي ستغادر به البصرة اللعبة الكلاسيكية التي لعبها دون جوان مع دائنيه فيعرضني انا في حالة ما لو لم اكن على علم مسبق بالامر الى لعب نفس الدور الذي لعبه (سجاناريل) على مسرح هذه التمثيلية ذاتها » (٣)

والواقع ان كل شيء قد جرى طبق ادعاء بدري بيك وقد ايده في ذلك مسيو دى سارزيك ضمن رسالة جافة كل الجفاف . وقد وافق بالاضافة الى ذلك على تسديد دين بدري بيك من جيبه الخاص وهذا ما لم يكن بمستطاع القنصل ان يفعله لو اراد تسديده من مخصصات الخدمة ما دام هذا الدين من الديون الشخصية . ومن هذا ندرك ان صاحبنا (سجاناريل) قد اغتاظ واعلن لباريس انه لن يتحمل بعد اليوم نفقات تمويل البعثة فكتب يقول في الرسالة ذاتها : « لقد ارغمت ارغاماً في عام ١٨٨٨ نتيجة لنسيان مسيو دى سارزيك ان أدفع مبلغ سبعمائة فرنك اخرى لبدري بيك . وهذه الفرنكات السبعمائة قد نزلت بطبيعة الحال من مخصصات البعثة . فأي عمل كان يتورع عن اتيانه مسيو دى سارزيك لو كان في حوزته عام ١٨٨٨ مثلاً سبعمائة فرنك اخرى ؟ كان في هذه الحالة سيضيف الى المساحى الخمس والمعاول السبعة والمجارف التسع التي استعملها خمس عشرة اداة اخرى تكلف كل اداة عشرة فرنكات فيكون مجموع تكليف هذه الادوات مائة

---

(٣) راجع دونجوان مسرحية موليير - (المترجم)

وخمسين فرنكا . وكان بوسعه اخيراً ان يودع هذه الادوات الى خمسة عشر عاملاً اضافيين . وهذا الاجراء لو حدث لما كان كلف سوى خمسمائة وعشرة فرنكات لاربعة وثلاثين يوماً من اعمال الحفر نظراً لرخص اليد العاملة الخرافي في منطقة تللو لان مياومة العامل هناك اقل من فرنك واحد . ولو انه ضاعف عدد الادوات المستعملة في اعمال التنقيب لربح نصف الوقت الذي صرفه ولقام بعمل سنتين اثنتين خلال سنة واحدة .

ولانتهت نتيجة لذلك عمليات الحفر قبل عام من انتهائها الواقعي ولامتلأ قلب مسيو دى سارزيك بالفرح لعودته قبل سنة من عودته الى الخدمة الفعلية . ولاحرز متحف اللوفر هذه الكنوز الاثارية الثمينة التي حملتها اليه بعثة مسيو دى سارزيك قبل سنة من احرازه الفعلى لها » .

فكان لهذه الشقشقات اللسانية المفرطة في الغلو وقع سيء لدى باريس حيث كان لمسيو دى سارزيك اصدقاء اقوياء . وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان لعام ١٨٩٠ طارت برقية من باريس الى قنصلنا ترجوه بلهجة قاسية الا يتداخل بعد الان في بشؤون سير اعمال التنقيب وان تقتصر مهمته على اخبارها بالمحاولات التي يحتمل ان تقع من قبل الاجانب لتفادي حدوثها » .

فطعنت هذه البرقية قنصلنا في الصميم . فاغتاظ واجاب عليها في سورة غضبه ضحى اليوم التالي بما يلي : « ان مجرد كون القنصلية مكافة بدفع اجور الوكلاء العثمانيين (الذين كانوا يراقبون اعمال الحفر) يعطيها الى درجة ما الحق في تصور أن مراقبة أعمال عائلة دى سارزيك تقع ضمن صلاحيتها . وبالتالي فانهم يزعمون ان شكاواهم يجب ان تعرض علي . تلك الشكاوى التي يؤسفني ان اقول ان بعضها قد اخجلني وحمر وجهي وجبهتي لشدة ما

احدث لدي من احاسيس مؤلمة مخجلة . . . ولما لم يكن لي ان احكم على اعمال عائلة دى سارزيك فمن قلة الذوق ان اتوسع في هـذا الموضوع الدقيق . وسأكتفي بالقول بأن هذا الراي بالغاً ما بلغت درجة خطأه لا يقلل من اعتزازي به وبأنه يحدث تأثيراً سيئاً في هذا القطر . فيكون اذن من المرغوب فيه الا يكون للقنصلية اي علاقة او رابطة بعد اليوم ببعثة تللو والا تكلف بتسوية حساب الوكلاء العثمانيين مطلقاً . ذلك لانني سأستطيع حينئذ دون ان ابدو لهم متهماً بالتواطوء مع البعثة ان اجاوب على جميع الشكاوى التي يحتمل ان يوجهوها اليّ وان اقول ان عمليات عائلة دى سارزيك هي عمليات علمية (مهما دار حولها من الشبهات) وان القناصل لا شأن لهم البتة بقضايا من هذه الطبيعة . وبالتالي لن يتحتم على ان ادقق واحقق عما اذا كانت شكاواهم قائمة على اساس يركن اليه او غير قائمة وانهم احرار في التوجه مباشرة الى السيد وزير المعارف العمومية اذا راقهم هذا التوجه » . واخيراً يشير الى احتمال تجاوز بعثة اجنبية على موقع تللو بالقيام بأعمال الحفر فيضيف الى ذلك مسيو پونيون باستعلاء واهتياج قائلاً : « انني لا اتوقع ان ارى احداً يدفعه الاهتمام الى القيام بحفريات في موقع تللو في حين انهم يستطيعون ان يجدوا في كل خطوة يخطونها في بلاد ما بين النهرين خرائب لم تلمسها يد المستكشفين وهي اعظم من خرائب تللو ثلاثين مرة واهميتها تضاهي اهمية خرائب تللو من ناحية علم الآثار ان لم تفقها اهمية » .

وهكذا نرى قنصلنا وهو في ذروة غضبه قد نسي ما كان قد كتبه هو نفسه قبل ثلاث سنوات خلون .

فاستقبلت الوزارة هذه البرقية استقبالاً سيئاً كل السوء ووجهت توبيخاً

شديد اللهجة الى موقعها ، فكتب الوزير في اليوم الثامن من حزيران يقول : « يؤسفني كل الاسف ان اقرر ان مراسلاتك تفصح عن سوء الطوية التي تنطوي عليها تجاه مسيو دى سارزيك بصورة تحيزية . وعلى العموم ارى تصرفاتك تناقض كل المناقضة التوصيات التي وجهتها اليك في مد يد العون الى البعثة التي كانت اعمالها محققة للآمال التي عقدتها عليها وزارة المعارف العمومية » .

فلم يعتبر مسيو پونيون نفسه مقهوراً ابدا بل رأى من الخير له ان يبرر تصرفاته . وكان ذلك عن طريق الرسالة التالية المؤرخة فى اليوم السابع من تموز : « لقد تفضل معاليكم فجعلني اطلع على الاستياء الذي شمله بعد قراءة تقاريري . ولا يسعني إلا ان اقول بأن من الواجب على كل معتمد ان يحني راسه بخضوع عسكري كل العسكري امام الاهانات التي تنصب على رأسه هذا . وعلى ذلك فانني ، غير محاول ان ابرر سلوكي بأي شكل من الاشكال ، ارجو من معاليكم ان تتفضلوا بقبول التعبير عن شعوري بالالم المخلص الذي احدثته في نفسي واقعة توجيه توبيخ لي من جانبكم ... انني اعلم ان تقاريري قد اغاظت معاليكم . وهذه الاغاظة وحدها كافية لجعلي اتأسف اعمق التأسف على كتابتي لهذه التقارير او على الاقل لانني لم احسن التعبير عن الافكار التي اعربت عنها خلالها في صيغة لعلها كانت تقع لدى معاليكم موقعاً حسناً ... ولما كان التقرير الذي عرضت فيه الاسباب التي تجعل من المرغوب فيه ، حسبما تصورت ، قيام فصل تام بين الاعمال الحسابية للقنصلية وبين حسابات البعثة قد اغاظ معاليكم واورثنى الحزن العميق فانني لعدم استطاعتي الادلاء بحجج اكثر جدية بعد هذا اليوم لانني ممنوع من مصارحة معاليكم سأكتفي باعلام وزارتكم مستنداً على ما لدي من مستمسكات

بأن تسوية حسابات الوكلاالعء ثمانيين قد كلفت القنصلية مبلغاً لا بأس بجسامته صرفت اجزاؤه على البرقيات فاحدث تعقيداً كبيراً في حسابات القنصلية لان السلف التي امرت انا بدفعها في عام ١٨٨٨ لحساب وزارة المعارف العمومية لم تسدد الي حتى يومنا هذا ولن يمكن تسديدها استناداً الى ما كتبه الي صرافي الا بموجب قانون ينتظر في هذه اللحظة موافقة مجلس الشيوخ عليه » .

فلم تر باريس جدوى في وجوب متابعة الجدل في الموضوع ، ولكن يبدو ان مسيو پونيون قد اعفي حينئذ من مهام تمويل البعثة . فظل لائذاً بالصمت ولا صمت ابى الهول خلال اربع سنوات متواليات لم يتحدث اثناءها عن حسابات حفريات تللو على الاطلاق . ومع ذلك فقد اشار اليها اشارة شفافة في رسالة له مؤرخة في الثاني من مايس ١٨٩٤ ماساً مساً رفيقاً بها عالماً آخرا في العراق الا وهو الاب المحترم (شيل) فكتب يقول : « لقد استطاع الاب شيل ان يقوم بحفريات لا تكاد تنقطع في موضع (سيار) * منذ الثالث عشر من كانون الثاني حتى الثالث والعشرين من نيسان وهو اليوم الذي من ضمن المدة مستخدماً في كل يوم خمسين عاملاً وعشر مساح وخمسة معاول وخمس وثلاثين سلة .

ان الاب المحترم شيل ليس هو كما نرى من اولئك الذين يبحثون عن ادامة اللذة الى ما لا نهاية . والذين يدارون الخربة التي يستغلونها كالفارس الذي يداري دابته التي يسره ان يبدو راكبها . لقد عمل في ثلاثة اشهر اكثر مما يعمله الاخرون في ثلاث سنوات . ومع ذلك فانه لم ينفق الا مبلغاً ضئيلاً قدره ثلاثة آلاف فرنك . . . لقد عثر على عدة مئات من

(*) هو الموقع المعروف الان ب (ابو حبة) الواقع قرب ناحية اليوسفية . (س-١٠)

العقود التي يرقى بها الزمن الى عهد حمورابي . ووجد بعض القطع التي تتضمن مقاطع كلمات . وصادف بعض الادعية والصلوات والاناشيد الدينية ، ووقع على اوعية خزفية على هيئة حيوانات . واذا لم يكن قد عثر على نصوص صادرة عن ملوك جدد ولا على نفائس موغلة في اعماق التاريخ فاننا لانستطيع ان نشكو منه دون خدش شعور العدالة والانصاف. ولا ادري يا سيادة الوزير ، ما اذا كانت الحكومة التركية ستفيد مجدداً من من حسن نية الاب شيل وصفاء سريرته . ولكن ما اعلمه من علاقاتي الشخصية هو انه لما كان الاب شيل قد ارتكب الخطيئة الكبرى بتخرجه في مدرسة القاهرة واقترف علاوة على ذلك الجناية التي هي اكبر من الخطيئة الاولى بكونه خبيراً متخصصاً لا يحتاج الى معونات مضحكة تدر على اصحابها الفوائد فان مساعي كبيرة ستبذل ضده ، وان ما يحز النفس قوله هو أن بؤرة هذه الدسائس ليست كائنة في القسطنطينية » .

ولابد ان كره مسيو پونيون لمسيو دى سارزيك كان من الحدة في درجة وجد نفسه معها مرغماً على مدح أحد رجال الدين وهو الاب شيل نكاية بمسيو دى سارزيك في حين ان مقته للدين ورجاله كان بادياً في جميع مراسلاته .

وبعد ذلك بشهر واحد يبدو ان المصادفة وحدها سمحت لقنصلنا بأن يقطع الصمت الذي فرضه على نفسه دون ان يخشى زجراً او تعنيفاً من باريس . فقد جاء منقبون سريون الى تللو وباشروا باعمال الحفر ووضعوا اليد على مجموعة من الرقم الطينية التي بيعت بصورة علنية في بغداد . فاخطر مسيو پونيون بهذه الحادثة باريس ببرقية وهيأ بعد ذلك تفاصيل دقيقة عن هذه السرقات برسالة مؤرخة في الحادي عشر من تشرين الاول ١٨٩٤

فكتب يقول : « يبدو ان هذه التنقيبات هائلة . ويخيل الي ان عواقبها فوق ما يتصور المتصورون . بحيث ان مقتي لهذا الموضوع بالغاً ما بلغ من التفاقم لا يحول بيني وبين الاعتقاد بضرورة توجيه تقرير الى معاليكم والا كنت مسؤولاً او مشاركاً في المسؤولية .

انه ليستحيل علي ، يا سيادة الوزير ، أن اشير الى عدد الالواح الاشورية ★ التي استخرجت من تللو منذ ثلاثة اشهر . اذ يشيع القول في المدينة بان المستخرج من هذه البدائع بلغ خمسين الف قطعة ... قد يبدو هذا الرقم خيالياً للوهلة الاولى ولكنني لا اراه بصورة قطعية مبالغاً فيه ، والواقع انني رأيت رأي العين قرابة ألف قطعة من امثال هذه القطع . ومن البديهي انني لم ار عشر الكمية بل لم اشهد جزءاً واحداً من مائة جزء مما استخرج منها . انني لم ابصر سوى ما كان في أيدي صغار التجار اليهود الذين لعجزهم عن ارسال انصبتهم الصغيرة من هذه النفائس العتيقة الى اوروبا بعد ان اشتروها من الاعراب قد حاولوا بيعها في مكانها معرضين انفسهم للتبعات والاخطار . ولكن عدا هؤلاء التجار الصغار يوجد تجار كبار يرسلون الى اوروبا في صناديق كاملة تلك الالواح التي اشتروها في موقع تللو وذلك بارشاء موظفي الكمارك بقناني الخمر او بالهدايا الاقل شأناً من قناني الخمر . وقيل عن لوحة انها بيعت وحدها الى المتحف البريطاني بثلثمائة ليرة ذهبية . فليس بوسع أى متحف آخر غير المتحف البريطاني العالي المدار احسن ادارة ان يشتري لوحة اشورية لو لم تكن تحتوي على نص تاريخي بالغ الاهمية . وقد حدثت ايضاً عن تمثال حجري وجد في تللو يقول في

(★) كان المنقبون الاوائل يطلقون على كل كتابة مسمارية آشورية بسبب كون الاكتشافات الاثرية الاولى جرت في العواصم الآشورية . ولم تكن اللغات السومرية والبابلية محددة . (س٠أ)

وصفه الواصفون انه مماثل لتلك التماثيل التي يمتلكها متحف (اللوفر) فيما عدا كونه سليماً تاماً في حين ان تماثيل متحف اللوفر مقطوعة الرؤوس ... ان اعمال التنقيب متصلة اكثر من اي وقت مضى . وان كثيراً من اليهود مقيمون الآن في موقع تللو لشراء القطع الآثارية في مظانها : ويبدو ان الخربة قد تناهبها المتناهبون ويحتمل ان تكون الجدران نفسها قد عاث بها التخريب والتقويض ولا اشك في اننا لن نرى بعد ثلاثة اشهر أي أثر من الآثار العجيبة في تللو . . . ولم يعد يتحدث المتحدثون هنا في هذه الآونة الا عن الارباح الفاحشة التي تحققت . فقد طفحت المدينة بقطع الآثار العتيقة وشرعت السلطات بأعمال المصادرة في كل مكان . ومع ذلك فلم يحدث أبداً ان انتعش التهريب كما هو منتعش الان . ومن المستحيل على محافظي المتحف البريطاني يا سيادة الوزير ، الذين هم واحسرتاه علماء بالشؤون الاشورية بالاضافة الى انهم قد حنكتهم الخبرات والتجارب ، ان يجهلوا مصدر الوثائق التي يشترونها . ولن تتملكنى الدهشة ولن أباغت يوم ينشرون بعد بضعة اشهر القضية الكاملة عما جمعوا من التحف محلين ابحاثهم بالتندرات الخفيفة على الغفلة الفرنسية وذلك بعد ان تكون خرائب تللو قد اصبحت خاوية الوفاض من الآثار المهمة . وقد حدث مثل هذا اذا لم تخني الذاكرة منذ عشرين سنة تقريباً » .

وبطبيعة الحال يعلن القنصل عجزه على ملأ الاشهاد . فيكتب قائلاً :

« لقد بلغني ان قوة للحراسة قد كلفت بمراقبة موضع تللو خلال بضعة أيام . ولكن هؤلاء الحراس قد اشتريت ذممهم وضمائرهم وها اننا نرى جميع صغار موظفي المنطقة يتاجرون هذا اليوم بمواد الآثار العتيقة لحسابهم . اما السلطة العليا فلعجزها عن قمع هذه التصرفات تكتفي بمصادرة الآثار القديمة

التي افلتت من ايدي الاعراب والتجار غباءاً او ذهولاً . ولا استطيع ان احمل نفسي على الاعتقاد بأن مجموع هـذه الاشياء المصادرة سيأخذ كله طريقه الى متحف القسطنطينية » .

ويحاول مسيو پونيون تفادي ما هو الاسوأ فيقترح بكل بساطة انهاء عمليات التنقيب في اسرع وقت ممكن ويناشد صديقه الاب شيل . ويضيف قائلاً : « انني اجهل مقدار المال اللازم لانهـاء عمليات الحفر فى تللو . ولكن حسب جميع المعلومات التي توفرت لدى اراني على يقين بأن الموضوع لن يكلف كثيراً لان موقع تللو هو احد اغنى المواقع ولكنه في الوقت نفسه هو احد أتفه الامكنة في العراق ... وان تخصيص اعتماد قدره اربعة آلاف فرنك يحتمل ان يمكن الاب المحترم شيل من القيام بالتنقيبات مدى اربعة اشهر كاملة اي من كانون الاول الى نيسان » .

ويختتم قنصلنا رسالته بالتذكير بالتعليمات التي تلقاها في عام ١٨٩٠ ويضيف قائلاً : « ادراكا مني بأنني كنت شخصاً مريباً امام وزارة المعارف العمومية فانني منذ تلك الفترة لم انطق باسم تللو في اي تقرير من التقارير التي وجهتها اليها . وكانت رغبتي الكبرى الا ارغم ارغاماً على كتابة هـذا الاسم مجدداً . ولكنني لم استطع ان اتجاهل ما يعلمه العـام والخاص وما يتحدث عنه كل الناس وهو ان خربة تللو يتناهبها المتناهبون في هذه الآونة . اقول هذا رغم رغبتي الجامحة في تجاهل الموضوع » .

ولكن باريس لم تهتز اوتارها لهذه التنبوءات العابسة التي جار بهـا قنصلها . فهي لم تكتف بتكليف الاب المحترم بمواصلة اعماله التنقيبية في موضع تللو فحسب وانما جعلت مسيو دى سارزيك يحصل في العام التالي على تجديد مهمته . والواقع ان الخسائر لم تكن على درجة الفداحة التي

زعمها بونيون . لان هذه الاعمال توالت في موقع تللو حتى عام ١٩١٤ بل انها استؤنفت في فترة من فترات ما بعد الحرب العالمية الاولى .

ان مهمة العالم الآثاري كانت تنطوي في بعض الاحايين على نشاطات لا تحمد اخلاقها . فمن المؤكد ان البعثات التنقيبية تستخدم في العراق كادوات فعالة للتغلغل البريطاني في هذه المناطق . ومنذ عام ١٨٥٠ ابدى معتمدنا في الموصل مسيو (غاليه) قلقه من هذه البوادر . فكتب في الثامن عشر من آذار يقول : « ان وصول الرحالة الانكليز المزعومين قد فاجأني وأذهلني وأيقظ شكوكي وهواجسي . لان كل واحد من هؤلاء وحتى اولئك المبعوثين بمهمة عادية له غرض خفي خاص . وكلامي هذا بديهية من البديهيات . فالمستر لايارد مثلاً لا يشك احد في انه موفد الى هذه الديار من قبل حكومته التي عززته بطبيب ورسام في سبيل مواصلة اعمال التنقيب المباشرة في بقاع نينوى والنمرود وخورصاباد وفي اماكن اخرى . ولكنه معبىء لخدمته مئات الاشخاص . وسوف يذهب لزيارة عشائر السهل والجبل ليرفع من شأن الاسم الانكليزي ويقوي ركائزه . وليعمل على محو الاسم الفرنسي من ذاكرة الناس . وليحسن بالعمل الدائب المتواصل ظن الاهالي بالانكليز . وليشار اليه بالبنان بزرعه الاحسان في هيئة الذهب الرنان . واخيراً ليخلع عليهم حمايته » .

الخاتمة

ارجو السماح لي وانا مشرف على الانتهاء من نفض يدي من الكتاب بأن اصوغ عبارة التمني التي تتلخص بأن يكون في مقدور هذه الدراسة القصيرة ان تلهم الباحثين الاخرين الرغبة في ان يغترفوا من معين هذه

الوثائق القنصلية اكثر مما اغترفت . هذه الوثائق التي تكاد تجهلها الكثرة الكاثرة جهلاً تاماً والتي تتضمن حشوداً من التفاصيل العجيبة الطريفة التي تهم كافة اصقاع الكرة الارضية تقريباً .

إن الكتاب الرائع الذي الفه المأسوف عليه مسيو (دوللو) عن قناصل فرنسا في (تريستا) قد فتح الطريق في هذا المجال واشار الى المثال الذي يستحق ان يحتذى . وقد بذلت كل ما في طوقي لمحاكاته . وكان طموحي الوحيد كما سبق ان ذكرته في توطئتي لهذا الكتاب هو ان انتشل من خضم النسيان اسماء بعض الموظفين الشجعان المخلصين الذين لم يكونوا على وجه التأكيد ليتخيلوا يوم كانوا يحررون الرسائل التي انتهيتم تواً من قراءتها انها سيقدر لها ان تأخذ طريقها الى النشر في يوم من الايام .

واختتم كتابي متمنياً بكل ما في قلبي من حرارة واخلاص ان يتاح لمراسلات اخرى ان تكون موضوع مؤلفات مماثلة لتحمل البهجة والمتعة والمسرة الى جميع اولئك المعنيين ببعث الماضي من اكفانه .

استدراك

وردت تسمية (سيفيتا فيكشيا) في الصفحة ١٥ ، والحقيقة ان لفظها هو (چيفيتا فيكيا) Civita Vecchia . اسم ميناء ايطالي على البحر الأبيض المتوسط .

اما ستاندال Stendhal ، فهو الكاتب الفرنسي المعروف (١٧٨٣-١٨٤٢) . وقد ورد اسم هذا الميناء في كتابه Chroniques italiennes .

✲✲✲

جميع التعليقات المرموز إليها بحرفي (س . أ) . تلطف بها الاستاذ سالم الآلوسي .

المحتوى

الصفحة

وزارة الثقافة والاعلام

مديرية الثقافة العامة

صدرت عن مديرية الثقافة العامة في وزارة الثقافة والاعلام المطبوعات **التالية :**

	الثمن فلس	دينار
اولا ـ سلسلة كتب التراث		
١ ـ الدر النقي في علم الموسيقي : للقادري الرفاعي الموصلي وتحقيق الشيخ جلال الحنفي	٥٠	ـ
٢ ـ ديوان عدي بن زيد العبادي : تحقيق وجمع السيد محمد عبدالجبار المعيبد	٣٠٠	ـ
٣ ـ مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء لياسين بن خيرالله العمري ـ تحقيق السيد رجاء السامرائي	٣٠٠	ـ
٤ ـ اصحاب بدر : منظومة الشيخ حسين الغلامي تحقيق وشرح الاستاذ محمد رؤوف الغلامي	٢٥٠	ـ
٥ ـ ديوان ليلى الاخيلية : عني بجمعه وتحقيقه الاستاذان خليل وجليل العطية .	٢٠٠	ـ
٦ ـ الدر المنتثر في اعيان القرن الثاني عشر والثالث عشر للحاج علي علاءالدين الالوسي ، وتحقيق الاستاذين جمال‌الدين الالوسي وعبدالله الجبوري	٣٥٠	ـ
٧ ـ الجمان في تشبيهات القرآن : لابن ناقيا البغدادي تحقيق الدكتورأحمد مطلوب والدكتورة خديجةالحديثي	٥٠٠	ـ
٨ ـ ديوان العباس بن مرداس : تحقيق يحيي الجبوري (تحت الطبع)		
٩ ـ رسالة الطيف : لبهاءالدين علي ابو الحسن الاربلي : تحقيق عبدالله الجبوري (تحت الطبع)		
١٠ـ خصائص العشرة الكرام : للزمخشري : تحقيق الدكتورة بهيجة الحسني . (تحت الطبع) .		

ثانيا ـ سلسلة الكتب المترجمة

الكتاب	الثمن فلس	الثمن دينار
١ ـ الاصطلاحات الموسيقية : تأليف أ٠ كاظم نقله الى العربية عن التركية : ابراهيم الداقوقي	١٠٠	ـ
ملحق ـ١ـ المستدرك على الاصطلاحات الموسيقية : للمؤلف نفسه وتعريب ابراهيم الداقوقي	١٠٠	ـ
٢ ـ رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر نقله الى العربية عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين قدم له وعلق عليه السيد سالم الآلوسي	٢٠٠	ـ
٣ ـ الحياة في العراق منذ قرن : للمسيو بيير دى فوصيل٠ نقله عن الفرنسية الدكتور أكرم فاضل	٢٠٠	ـ
٤ ـ في زنزانات اسرائيل ـ مذكرات النقيب التركي شهاب طان : ترجمة ابراهيم الداقوقي	١٢٠	ـ
٥ ـ الاساطير في بلاد ما بين النهرين : تأليف صموئيل هنري هوك وترجمة يوسف داود عبد القادر	١٢٥	ـ

ثالثا ـ سلسلة الكتب الحديثة

الكتاب	الثمن فلس	الثمن دينار
١ ـ رائد الموسيقى العربية : تأليف عبدالحميد العلوجي	٢٠٠	ـ
٢ ـ معجم الموسيقى العربية : تأليف الدكتور حسين على محفوظ	٢٠٠	ـ
٣ ـ جولة في علوم الموسيقى العربية: تأليف الاستاذ ميخائيل خليل الله ويردي	٥٠	ـ
٤ ـ الحرية : تأليف الاستاذ ابراهيم الخال	١٠٠	ـ
٥ ـ موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي	٥٠	ـ
٦ ـ موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي	٥٠	ـ
٧ ـ النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأميم في القانون العراقي : تأليف الاستاذ حامد مصطفى	٣٥٠	ـ
٨ ـ علي محمود طه ٠٠٠ الشاعر والانسان : تأليف المرحوم الاستاذ أنور المعداوي	٢٠٠	ـ
٩ ـ مؤلفات ابن الجوزي : تأليف عبدالحميد العلوجي	٢٥٠	ـ
١٠ـ أبو تمام الطائي : تأليف الاستاذ خضر الطائي	١٥٠	ـ
١١ـ من شعرائنا المنسيين : تأليف الاستاذ عبدالله الجبوري	٢٠٠	ـ

	الثمن	
	فلس	دينار
١٢ـ محمد كرد علي : تأليف الاستاذ جمال الدين الآلوسي	٣٠٠	ـ
١٣ـ أدباء المؤتمر : للاستاذ عبدالرزاق الهلالي	٢٠٠	ـ
١٤ـ بدر شاكر السياب : للاستاذ عبدالجبار داود البصري	١٥٠	ـ
١٥ـ الواقعية في الادب : تأليف الاستاذ عباس حضر	٢٠٠	ـ
١٦ـ شعراء الواحدة : للاستاذ نعمان ماهر الكنعاني	١٥٠	ـ
١٧ـ لقاء عند بوابة مندلبوم : للاستاذ احمد فوزي	٢٠٠	ـ
١٨ـ خسرناها معركة .. فلنربحها حربا : للاستاذ فيصل حسون	٢٠٠	ـ
١٩ـ عطر وحبر : تأليف عبدالحميد العلوجي	٣٥٠	ـ
٢٠ـ الدبلوماسية في النظرية والتطبيق : تأليف الدكتور فاضل زكي محمد .	٣٠٠	ـ
٢١ـ من عيون الشعر مختارات الاستاذ ناجي القشطيني	٤٥٠	ـ
٢٢ـ مع الكتب وعليها ـ للاستاذ عبدالوهاب الامين	٢٠٠	ـ
٢٣ـ مقال في الشعر العراقي الحديث : للاستاذ عبدالجبار داود البصري	١٥٠	ـ
٢٤ـ مع الاعلام : للاستاذ جميل الجبوري	٣٠٠	ـ
٢٥ـ محاكمات تاريخية : بقلم الاستاذ مدحة الجادر	١٢٠	ـ

رابعا ـ سلسلة الثقافة العامة

١ ـ المواسم الادبية عند العرب : تأليف عبدالحميد العلوجي	١٠٠	ـ
٢ ـ الادباء العراقيون المعاصرون وانتاجهم : تأليف السيد سعدون الريس	٥٠	ـ
٣ ـ تطور الحركة الوطنية التونسية منذ الحماية حتى الاستقلال : تأليف الدكتور لؤي بحري (نفدت نسخه)	٥٠	ـ
٤ ـ العلم للجميع : اعداد كامل الدباغ	٥٠	ـ
٥ ـ الدين والحياة ـ تأليف الشيخ محمود البرشومي	١٥٠	ـ

	الثمن
	فلس دينار
خامسا ـ سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث	
١ ـ اللهب المقفى ـ شعر حافظ جميل	٣٥٠ -
٢ ـ غفران ـ شعر محمد جميل شلش	٢٥٠ -
٣ ـ صوت من الحياة : شعر حازم سعيد أحمد	٢٥٠ -
٤ ـ مرفأ السندباد : شعر مؤيد العبدالواحد (تحت الطبع)	
سادسا ـ سلسلة القصة والمسرحية	
١ ـ الظامئون : للاستاذ عبدالرزاق المطلبي	٢٥٠ -
٢ ـ عمان لن تموت : للاستاذ عبدالوهاب النعيمي	١٠٠ -
٣ ـ من مناهل الحياة : للاستاذ الياس قنصل	١٠٠ -
٤ ـ رماد الليل : للاستاذ عامر رشيد السامرائي	١٥٠ -
٥ ـ الهارب : للاستاذ شاكر جابر	١٠٠ -
٦ ـ خارج من الجحيم ـ للاستاذ صادق راجي	١٢٠ -
٧ ـ عندما تكون الحياة رخيصة ـ للاستاذ ادمون صبري	١٢٠ -

سابعا ـ مطبوعات باللغات الاجنبية

Poetry of Resistance in Occupied Palestine.
Translated By: Sulafa Hijjawi.

Pierre de Vaucelles

La vie en Irak
Il y a un siècle

Traduit par: Dr. Akram Fadel

Publié par le ministère de la Culture
et de l'Information
Bagdad - Irak
1968



ثمن النسخة ٢٠٠ فلس

المؤسسة العامة للصحافة والطباعة
دار الجمهورية - بغداد
١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م